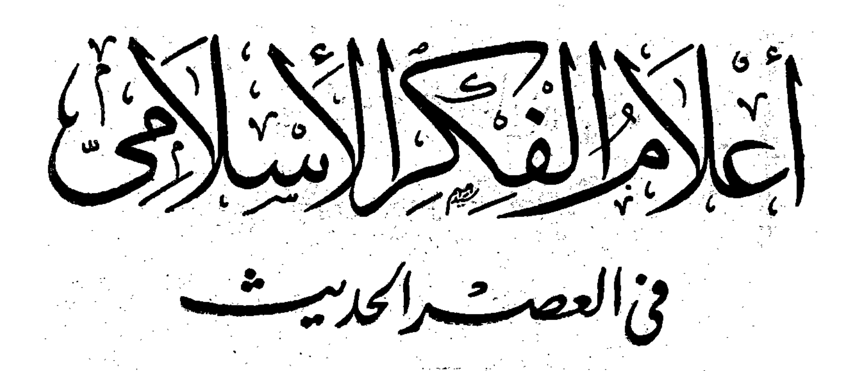
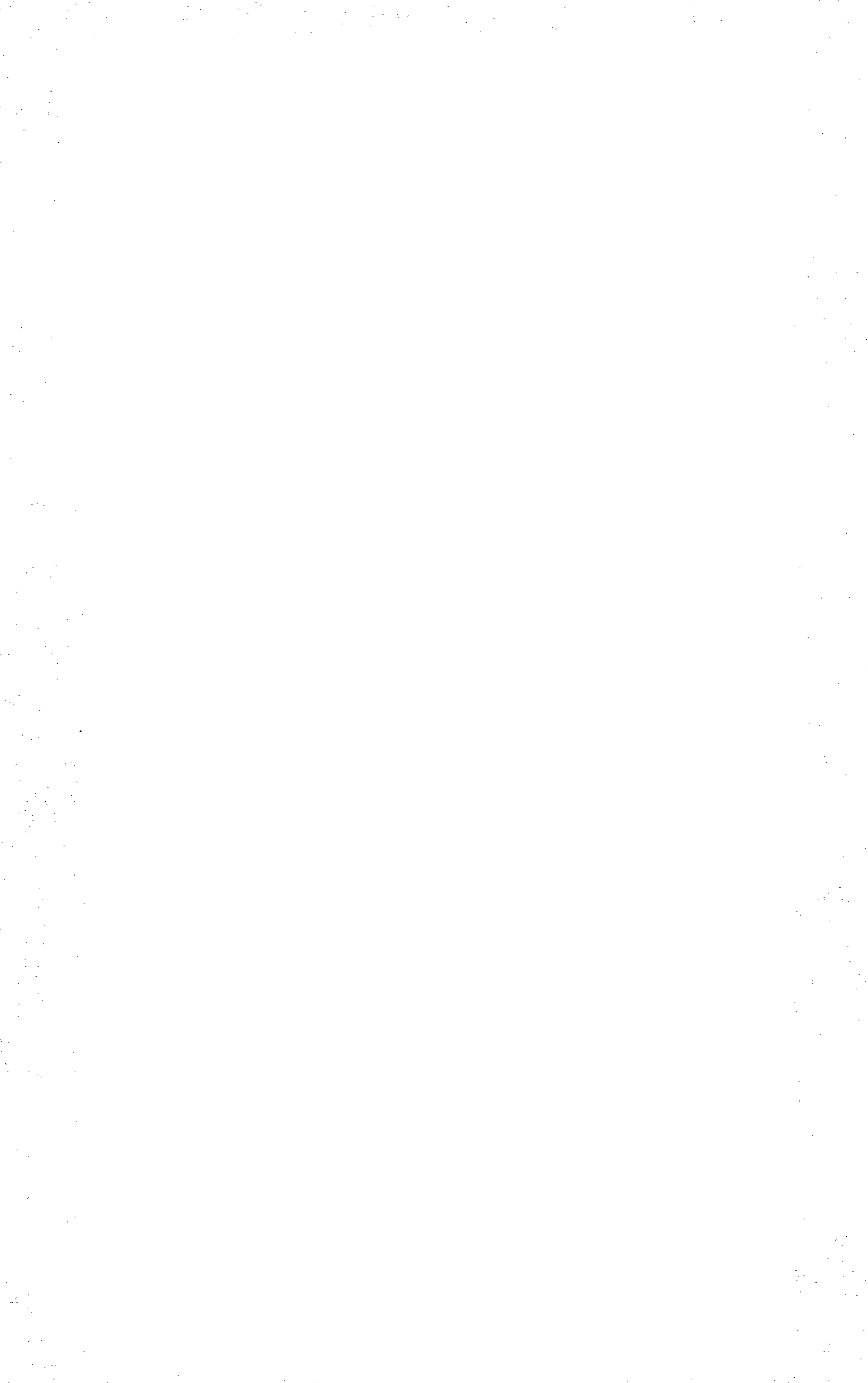
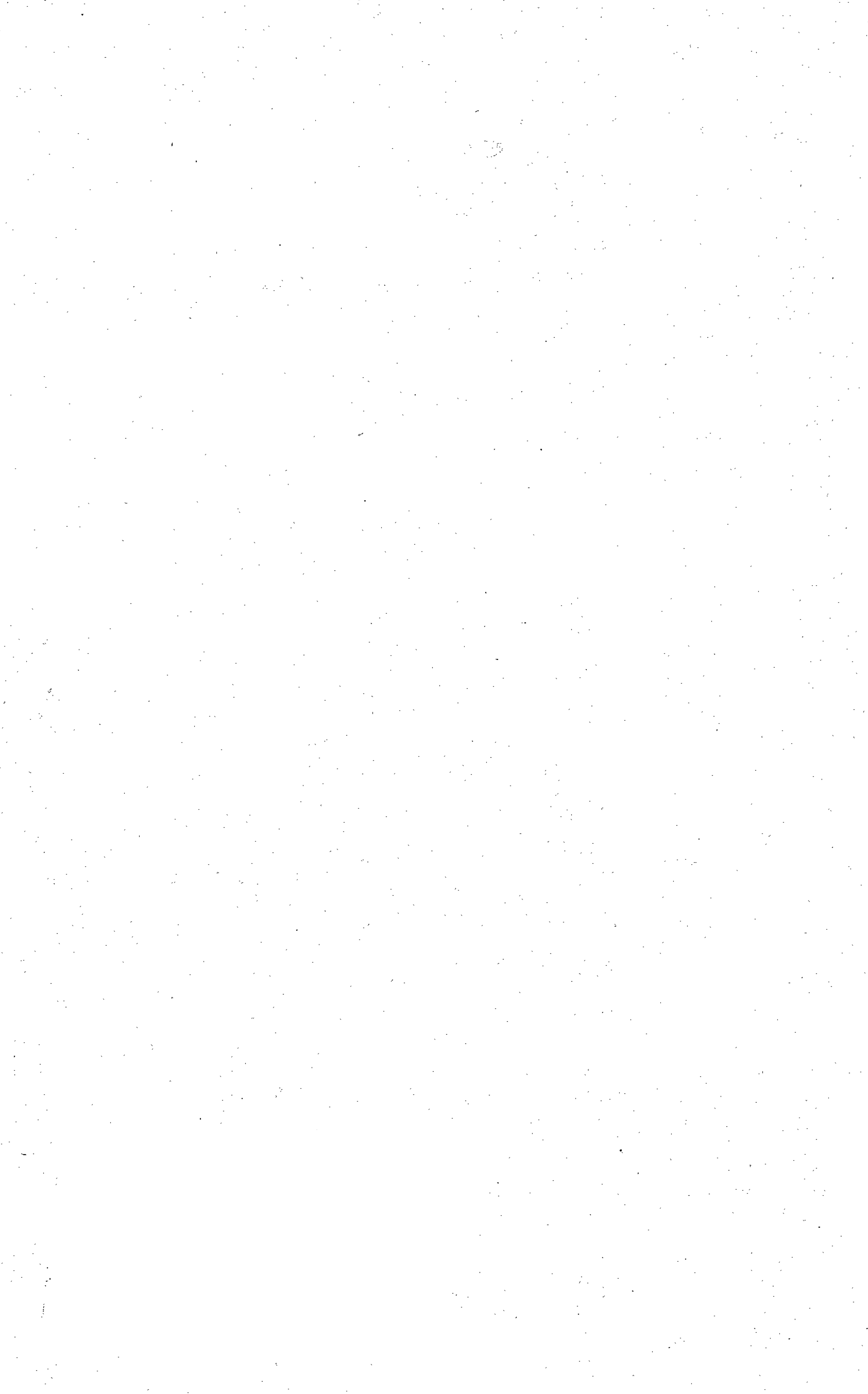
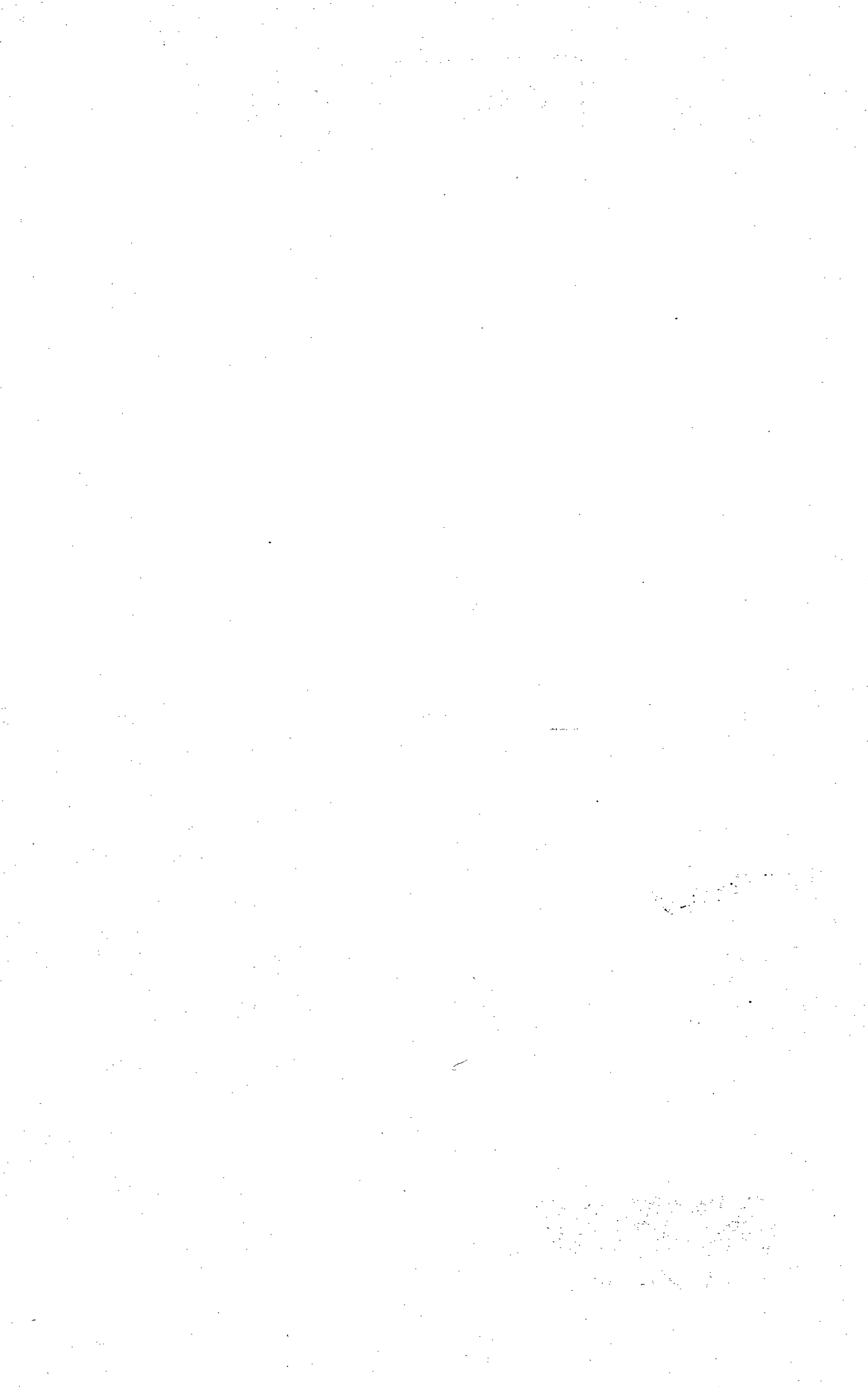


تراجم نخبة من رجالات العلم والأدب والدين والإصلاح
في مصر والشام والعراق والحجاز وتونس والجزائر والمغرب

للعلامة المحقق المغفور له
أحمد تيمور باشا







دراسة تحليلية

بقلم الأديب المحقق الأستاذ محمد عبد الغنى حسن

يعلم الله قدر سعادتى حين عهدت إلىّ لجنة نشر المؤلفات التيمورية أن أجول جولة فى كتاب « أعلام الفكر الإسلامى فى العصر الحديث » للمغفور له العلامة المحقق أحمد تيمور باشا ، وأن أخرج من هذه الجولة بكلمة أصدر بها هذا الكتاب . والحق أن كتب تيمور باشا ورسائله الجليلة غنية عن التقديم لها ، والتعريف بها ، فإن اسم هذا العالم الكبير ضمان للجودة فى التصنيف والدقة فى التأليف .

فالتأليف — عندى وكما كابدته — أمانة لايحملها إلا أمين ، وليس التأليف — كما يزعم الفارغون — تسويد صفحات تسود منها الوجوه ، أو تحرير كلمات لاتحمل من أمانة العلم ما يليق بجلال رسالته ، وجمال بضاعته .

ولقد عشت مع القدر المطبوع الذى وصل إلىّ من كتاب أعلام الفكر الإسلامى ساعات بل أياما سعيدة ، فقد نقلنى مؤلفه العظيم - عليه رحمة الله ورضوانه - إلى القرن الثالث عشر الهجرى ، وأبعد فى النقلة إلى مطالع ذلك القرن ، حيث عاش سنوات منه أمثال الشيخ حسن العطار ومحمد صنع الله الخالدى . وكمال الدين الغزى ، وسليمان الموصلى ، وعلى السويدى البغدادى الأديب المحدث المؤرخ ، وغيرهم من عشرات العلماء الذين كانوا منارات علم أو أعلام

هداية ، وأساطين فكرة ، ودعامات نهضة . وامتد البحث به رحمه الله إلى حفنة من رجال القرن الثانى عشر .

ولم يختص أحمد تيمور باشا بالترجمة والسيرة للرجال قطراً عربيا دون قطر . بل نظر إلى العروبة فى إطارها الواسع ، وفى محيطها الشامل ، فترجم لأعلام من أهل المغرب والمشرق على السواء ، وراح إلى إفريقية يترجم لحفنة كريمة من أعلام تونس والجزائر والمغرب . . وبهذا استوى عنده فى العروبة القريب والبعيد ، والحضرمى والكرخى ، والأسيوى والإفريقى .

ولم يؤثر — رحمه الله — أهل طبقة واحدة ، ولا صناعة واحدة . فلم يجعل كتابه وقفاً على تراجم الشعراء ، وسير الأدباء ، بل وسع فيه المجال للعلماء والفقهاء ، واللغويين ، والمفسرين ، والمحدثين ، ورجال التصوف ، ورجال الإصلاح ، وزعماء الجهاد ، وخطباء الثورات ، فجاء بذلك سجلا حافلا ، وباقة متنوعة الأزهار ، وإن كان لم يبلغ فى عدد المترجم لهم مابلغ مثل كتاب « حلية البشر ، فى تاريخ القرن الثالث عشر » الذى ألفه المرحوم الشيخ عبد الرازق البيطار وأصدره مجمع اللغة العربية فى دمشق فى ثلاثة أجزاء ضخام سنة ١٩٦٣ م . فقد زادت التراجم هنا على سبعمائة ترجمة وسيرة ، على حين قلّت فى كتاب أحمد تيمور باشا عن مئة . ولا يدل هذا على جدب فى الأرض ، أو عقم فى الروض ، ولكن علامتنا الراحل تخير من تلك الكثرة الكاثرة من أعلام القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، من رأى فى الترجمة لهم وفاء بحق ، أو إيضاحاً لمذهب ، أو إيثاراً بذكر ، فكان

شأنه فى ذلك شأن من دخل الرياض فتحير فيها ، أيجنى ورودها أم يجنى أقاحها

على أن كتاب أحمد تيمور باشا قد أسعفنا فى تراجم الرجال ممن يعز علينا أن نجدهم فى مصدر آخر ، فقد كتب عن العلامة الشيخ طاهر الجزائرى الذى مات سنة ١٣٣٨ بعد وفاة الشيخ عبد الرازق البيطار فلم يترجم له فى موسوعته ، وكتب عن الشيخ مصطفى المغربى الدرغوثى — لا التهامى كما وضع خطأ فى رأس صفحة ٢٣٦ — وهو والد أستاذنا العلامة الجليل المرحوم الشيخ عبد القادر المغربى عضو المجمع العلمى العربى بدمشق ومجمع اللغة العربية بمصر . وقد أنصف تيمور باشا بالترجمة للشيخ مصطفى المغربى نقلا عن الترجمة التى ألفها ولده الشيخ عبد القادر ، فإن صاحب حلية البشر — على كمال فضله — لم يترجم للشيخ مصطفى المغربى ولم يفسح له مكانا بين مئات الأعلام التى ترجم لها فى القرن الثالث عشر ، فشاء الله أن يسد تيمور باشا هذه الثغرة فى كتابه هذا الذى نقدمه لك ، وأن يستدرك النسيان ، الذى هو من آفات الإنسان . . .

وأود أن أذكر هنا أمراً ، وأذيع سراً يسر له المشتغلون بتحقيق الكتب وآثار الأعلام . فإن عنوان هذا الكتاب الذى نقدمه لك لم يكن للمرحوم أحمد تيمور باشا يد فى اختياره ، ولا أثر فى إيثاره ، ولعله ـ رحمه الله ـ لم يكن يخطر على باله أن يكون هذا العنوان عنواناً على تراجمه وأعلامه التى آثرها بالترجمة لها . فالكتاب كله لتيمور ، والعنوان ليس له ، ولكن اللجنة اختارته له ، بعد أن وجدت هذه التراجم بلا عنوان ، أو لعل هذا الاسم المستحدث يكون

أقرب إلى مراد علامتنا الراحل ، وأدنى إلى غرضه . . .

إن هذا الكتاب ليس من سبيل كتب التراجم لرجال القرون ، كما فعل ابن حجر فى « الدرر الكامنة » والسخاوى فى « الضوء اللامع » لرجال القرن التاسع ، والغزى فى « الكواكب السائرة » لرجال المائة العاشرة ، والمحبى فى « خلاصة الأثر » لرجال القرن الحادى عشر ، والمرادى فى « سلك الدرر » لرجال القرن الثانى عشر ، وعبد الرازق البيطار فى « حلية البشر » لرجال القرن الثالث عشر . لا ! ليس هذا من ذاك ، ولكنه كتاب جرى فيه مؤلفه — رحمه الله — على اختيار طائفة من أعيان القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، كما فعل مؤرخنا جرجى زيدان فى « تراجم مشاهير الشرق » وحسن السندوبى فى « أعيان البيان » وكما وفقنى الله أن أفعل فى كتاب « أعلام من الشرق الغرب » الذى شرفنى الأساتذة خير الدين الزركلى ، وعمر رضا كحاله ويوسف داغر بأن جعلوه من مصادرهم لكتبهم العظيمة فى التراجم والأعلام

وإذا كان مؤرخنا جرجى زيدان ، وعلامتنا عبد الرازق البيطار قد فسحا المكان فى كتابيهما لبعض العناصر النسوية الجديرة بالترجمة فى نظريهما ، فإن علامتنا أحمد تيمور باشا قد قصر الباب فى أعلامه على الرجال . . ولو شاء لوجد متسعا من الترجمة لأخته السيدة عائشة التيمورية ، ولباحثة البادية ملك حفنى ناصف ، كما وجد الشيخ عبد الرازق البيطار متسعا فى « حليته » للترجمة مثلا للسيدة رقية بنت إبراهيم السعدى والزاهدة الصوامة ، والعابدة القوامة ! ولكن تيمور باشا كان ينتقى الأعلام ممن يمثلون الفكر العربى الإسلامى فى عصرهم أصدق تمثيل .

وأحمد تيمور سلفى حتى فى طريقة ضبطه للأعلام والأماكن ، فهو يلجأ إلى الضبط بالحروف والكلمات لا بالشكل . فهو حين يترجم للشيخ أحمد مفتاح يذكر نسبته إلى عمار ثم يضبطها هكذا : (بضم العين المهملة وتخفيف الميم) ص ١٦٩ ، وكذلك يفعل حين تذكر القرى والبلدان الصغيرة ، فإنه ينسبها إلى ألويتها أو مديرياتها ، كما فعل حين تحدث عن الشيخ محمد الأشمونى فذكر أن (أصله من أشمون جريس قرية من أعمال المنوفية) ص ٤١ . وقد جرى فى الأغلب على هذه الطريقة الواضحة الموضحة ، وإن كان تركها فى أحوال نادرة كما فعل فى قرية « سفط القطايا » ص ١٠٢ ، فإنه تركها بدون تعريف أو إلحاق بإقليم من الأقاليم . .

ولقد عول تيمور باشا فى الترجمة لهؤلاء الأعلام على المصادر التى يمكن أن يعول عليها أو يستند إليها محقق . فرجع إلى الكتب مابين مخطوط ومطبوع وما بين عربى وعجمى ، ورجع إلى أناس يسألهم أو يستمع منهم ، فيقول : بلغنى كذا ، أو حدثنى فلان بكذا كما فى صفحتى ٧٥ ، ٧٧ ، ورجع إلى بعض المترجم لهم ممن أدركهم[1] وهو فى هذه الحالة الثالثة يكتب عن معاينة وعن صلة وتجربة . لكن « المعاصرة » لم تحل دون صاحبنا ودون كلمة الحق والإنصاف . فما كان يحكم عن هوى ، ولا يصدر فى الرأى عن تعصب ، ولا تميل به دواعى الحب والكراهية إلى إيثار الصديق ، وغمط الحقوق . . .

---

(١) هناك تراجم لم يكتبها أحمد تيمور بقلمه ، ولكنه طلب كتابتها من بعض أقارب المترجم لهم . كترجمة الشيخ أحمد الفحماوى ، فقد طلب كتابتها من ولده محمد عارف المدرس بمدرسة الهندسة المصرية .

ففي ترجمته للشيخ الأديب أحمد أبي الفرج الدمنهوري قال ما للرجل وما عليه في عفة وأدب وقصد في الكلام، وبعد عن الإيلام، وحسبك هذه الصورة الطريفة بقلم أحمد تيمور للشيخ الدمنهوري حيث قال:

(وكان اجتماعي به في مجلس أحد الأعيان، وأنا شاب يافع متعلق بالأدب وأهله. ولم أكن قد لقيته من قبل، بل كنت أسمع به، وأشتاق إلى رؤيته. فرأيت عجباً. رأيت شيخا قصيرا دميم الوجه قد ذهبت إحدى عينيه، عليه جبة واسعة الأكمام، وهو جالس في زاوية من المكان، يملي على شخص حسن الخط، دالية من الطويل – يعني تيمور باشا قصيدة دالية من البحر الطويل – منصوبة الروي جعلها تهنئة للخديو توفيق بقدومه من الأسكندرية، وكان منه من الوقوف عند كل بيت والإعجاب به على ما تقدم ذكره، ما نبهني للالتفات إليه، ثم مر بيت قافية لفظه «ومعضدا» فوثب من مكانه ونبه الحاضرين إلى أنها تورية باسم الخليفة المعتضد بالله، فلم يوافقوه، فأعرض عنهم، وأقبل على الكاتب يشرح له حسن هذه التورية! وأنها لم تتهيأ له إلا بعد إعمال الفكر والروية! حتى أضجره ورمى الدرج من يده! فغلبني الضحك واستظرفته ..!!)

ومثل هذه الحوادث الشخصية غير قليل في تراجم أحمد تيمور. ففي ترجمته للشيخ حسن الطويل يذكر لنا كيف اجتمع به، وكيف قرأ عليه، وكيف كان على حيرة من الأمر في بعض البدع التي التصقت بالدين، والخرافات التي نسبت ظلما إليه، إلى أن هداه الله إلى التعرف على الشيخ. فصحح له

العقيدة ، وجعله على بينة من أمر دينه . ونفى له من الخزعبلات ما لصق به .
ولا يكتفى مؤرخنا العظيم بهذا بل يذكر فى خلال الترجمة ما يشبه المذكرات
اليومية ، ولا يتحرج من التصريح بأنه جلس مع الشيخ حسن فى صحن الدار
يلعبان الشطرنج (وكان الشيخ مولعاً به مع قلة إجادته فيه . .) .

ولقد أجاد تيمور باشا تصوير الرجال الذين ترجم لهم على صلة بهم . وتمتاز
صوره فى هذا الباب بالدقة التامة حتى لا يكاد يخطىء عينه النافذه شىء من
ملامح الصورة ودقائقها ، ثم يزيد هذه الصورة طرافة وإشراقا بالتعبير الدقيق
الجميل ، وأسألك بالله وبالأدب الرفيع أيها القارىء الكريم أن تقول لى رأيك
فى هذه الصورة لأديب مفتون بشعره يقول فيها أحمد تيمور : (وكان على قلة
إجادته فى شعره مفتوناً به ، مبالغاً فى تقريظه وقت إنشاده . يمزج ذلك بإشارات
وحركات تستظرف منه ، ولا يكاد يقر لأحد بالتقدم عليه فى النظم ، ولعمرى
لا أرى عبارة تفى بوصفه ووصف حركاته عند الإنشاد ، وقيامه وقعوده ، والتفاته
واستدعائه الحاضرين إلى استماعه . فإنه كان إذا أراد إنشاد قصيدة من نظمه بدأ
أولا بتقريظها ، ونبه الحاضرين إلى مواضع الإجادة منها ، إذا ألقوا إليه بسمعهم
أنشد المطلع ، وسكت هنيهة كالمأخوذ من جودته ، ثم التفت يمينه ويسرة
مستطلعا خبيئة رأيهم فيه ، واستحلفهم بالله وبأنبيائه : هل طرق آذانهم مثله فى
عمرهم ؟ وهل تهيأ لشاعر قبله ما تهيأ له من رشاقة المبنى ، وغرابة المعنى ،
وتناسب الشطرين ؟ ؟)

والعفة فى لسان أحمد تيمور واضحة فى تراجمه لمن عرفهم من قرب ،

وابتلاهم عن تجربة ، وإذا كنا نعرف أن السخاوى المؤرخ المشهور قد وقع فى بعض أعلام عصره وهو يترجم لهم ، فإن أحمد تيمور كان عفيف اللسان حتى مع الذين لم تسلم سيرهم من عثرات . وتراه فى هذا إنسانا كامل الإنسانية يلتمس الأعذار للناس حين ينزلقون ، وبهذا رزق ـ رحمه الله ـ أسمح مافى الدنيا من خلق ، على حد قول شاعرنا أحمد شوقى فى نهج البردة :

رزقت أسمح ما فى الناس من خلق   إذا رزقت التماس العذر فى الشيم

ما أعف لسان تيمور وهو يتحدث عن الشيخ أحمد الرفاعى أستاذ الشيخ محمد عبده والشيخ محمد بخيت والشيخ محمد أبى الفضل الجيزاوى قائلا :

(ثم وقعت منه فى آخر أيامه زلة ، قيل إنه تصرف فى وقف بغير وجه شرعى ، ولكن الله لطف به ، فلم يقع له بسبب ذلك غير فصله من المقارىء) أرأيت عبارة أكثر تهذيبا من هذه ، فهو يذكر الحقائق المتصلة بالشخص ولكن فى إنسانية كاملة وفى بعد بعيد عن التشهير والتجريح . وتتجلى إنسانية أحمد تيمور وعفة لسانه وإنصافه فى وزن الرجال وتقديرهم فى قوله فى الترجمة للشيخ حسونه النواوى : (والحقيقة أن الشيخ لم يعهد عليه ما يشين دينه ولا دنياه ، بل عرف بالعفة ،وعلو الهمة ونقاء اليد ، ولولا جفاء كان يبدو بعض الأحيان فى منطقه وشدة فيه يراها بعض الناس غلظة ، ويعدها البعض شهامة ، لحفظ ناموس العلم . خصوصاً مع الكبراء الذين أفسدهم تملق علماء السوء وحملهم على الاستهانة بهذه الطائفة.) ص ١١٨ . وتذكرنا هذه العفة والصقل فى التعبير والتحرز فى ذكر المساوىء بذلك المنهج الذى اتبعه صديقنا العالم الكبير

الأستاذ خير الدين الزركلي في موسوعته الكبيرة : « الأعلام »

ولم يخرج تيمور باشا في مقدار الترجمة لكل شخصية على النهج الذي سلكه سابقوه من كتاب التراجم في الأدب العربي ، فهو تارة يطيل في الترجمة لواحد من الأعلام ، وطوراً يوجز إلى حد كبير في الترجمة لآخر . فني ترجمته للشيخ حسن العطار ـ أستاذ رفاعة الطهطاوي وموجه مصر إلى الأخذ بالعلوم التطبيقية الحديثة قد بلغ ثماني صفحات ، على حين أن ترجمته للشيخ محمد أبي الفتح لم تبلغ صفحتين ، أما ترجمته للسيد عبد الله النديم فقد بلغت ثلاثا وعشرين صفحة . وكذلك ترجمته للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . والحق أن شخصية المترجم له والحوادث المحيطة به هي التي تملي على كاتب السيرة المجال الذي يترجم له به .

وعلى الرغم من الدقة التي امتاز بها علامتنا الكبير أحمد تيمور لم يستأثر دائما بكلمة الفصل في الحقائق التي يذكرها . فقد ذكر ـ مثلا ـ في صفحة ٤٥ أن الشيخ محمد عياد الطنطاوي الرائد العربي الأول في روسيا ـ ولد في طنطا على حين يؤكد لنا المستشرق الكبير : أغناطيوس كراتشكوفسكي أنه ولد في قرية « نجريد » من أعمال طنطا . وقد اتبع تيمور في هذا رأى المستشرق الروسي « فالين » مع أن كراتشكوفسكي يؤكد أنه واهم في هذا (١) . أما وفاة عياد الطنطاوي فهي في سنة ١٨٦١ م — لا في سنة ١٨٦٢ كما ذكرهما في رأس ترجمته ص ٤٥ .

---

(١) انظر كتاب (حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي) لكراتشكوفسكي وترجمة كلثوم عودة ، بتحقيقاتنا — ص ٢٢ — وهو من مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .

أنا واثق أن الشبان سيقرءون كتاب « أعلام الفكر الإسلامى فى العصر الحديث » بشغف ومتعة وفائدة ، لأنهم سيجدون فيه نماذج من العصامية الفكرية والطموح والجهاد فى سبيل الله والعروبة والإسلام . أما الشيوخ فسيجدون فيه صوراً وذكريات من بوا كير شبابهم ، بل صوراً وذكريات من تاريخ مصر والبلاد العربية التى كتب الله لها أن تتحرر من أغلال الاستعمار ، وأن تتخلص من أصفاد الجامد من الآراء والأفكار .

والله يوفق لجنة نشر المؤلفات التيمورية إلى إتمام ما اضطلعت به من طبع آثار فقيد العروبة والإسلام أحمد تيمور . .

محمد عبد الغنى حسن

كلمة اللجنـــة

هذا الكتاب

بقلم الأستاذ محمد شوقى أمين

عضو اللجنة ، ورئيس التحرير فى مجمع اللغة العربية

إنمـا يعرف الفضل من الناس ذووه !

ومن أجدر أن يعرف للفضلاء من معاصريه حقهم على التاريخ من العلامة الفذ « أحمد تيمور » ؟

وإن العجب لينقضى ـ وإن شئت قلت : لا ينقضى ـ من هذا الرجل الذى نذر للبحث والدرس سعيه وهديه ، وقصر عليهما جهـده ووكده ، ولـكنه لم يجتزىء بميدان من تلك الميادين الرحاب يتخصص له ، ويقف عنده ، بل ضرب فى كل ناحية ، وحلق فى كل أفق ، وألزم نفسه الـكشف عن الخبايا والطوايا ، من جليل المسائل ودقيقها ، فى مجالات شتى من علم وأدب ، ومن دين وشريعة ، ومن حضارة وتاريخ .

وما شفاه ولا كفاه أن يرتصد لتراث العرب والإسلام ، يتصيده من كل مكان ، غـير ضان عليه بالمـال الـكثير ، ويجمعه فى خزانة كتبه الخالدة ،

النادرة ، فأضاف إلى ذلك تقليب العالم اليقظ المتمكن فى هـذا التراث ، والاستفادة به فى تحقيق وتمحيص ، وفى تنوير وتبصير ، فكانت مؤلفاته فى قيمتها ، تبارى مقتنياته فى نفاستها .

منذ ربع قرن عنيت الأسرة التيمورية بطبع كتاب له بعنوان «تراجم أعيان القرن الثالث وأوائل القرن الرابع عشر » ، وكان لى شرف الإشراف على إخراجه ، وتذييله ببيان له ، والكتاب يحتوى أربعاً وعشرين ترجمة لأعلام نجلتهم « مصر » أو أظلتهم سماؤها ، وقد وجدت هذه التراجم بخط العلامة « أحمد تيمور » فى دفتر كبير بائن الطول ، ناصل الورق من أثر السنين ، والمكتوب منه نحو خمسه ، والتراجم مسرودة بغير ترتيب، منها ما هو قصير، ولا سيما بعض ما جاء فى أخريات الأوراق، وهذا مع أن المترجم قد يكون ممن تنفسح فيه مذاهب القول . وقد راعى المؤلف ذلك ، فترك مواضع لمن أوجز ترجمتهم ، عسى أن يستلحق مافات ، ويستكمل ما نقص. وواضح أن المؤلف فى هذا الدفتر لم يستوعب أعيان المعاصرين ، ففى هذه الحقبة رجالات ليست شهرتهم فى فروع العلم والأدب أخفى من شهرة الذين ترجم لهم فى تلك الأوراق .

وكان الذى استظهرناه يومئذ فى تأويل ذلك الإيجاز الشديد فى بعض هؤلاء المترجمين ، وقلة عددهم جميعاً ، ما يؤيده عارفو الفقيد من أنه كان ينتوى المضى فى إتمام كتابه على الوجه الشامل ، ثم خشى ألا يستطيع الصراحة

فى ترجمة من كانت له بهم أو مازال لأمرهم به صلات مودة ، فطوى دفتره ، وآثر من الصمت ما هو الأشبه بكرمه وكرامته .

ولما تألفت « لجنة نشر المؤلفات التيمورية » بعد ذلك ، وأعملت يد التنقيب فيما خلف الفقيد من دفاتر وكراسات وأوراق ، تبين لها أن ذلك الدفتر الذى طبع محتواه من التراجم من قبل ليس إلا جزءا من كل ، فإنها عثرت على تراجم أخرى لنخبة من الأعلام العرب ، فى الشرق الغرب ،من أهل الشام والعراق ، ومن أهل الحجاز وحضرموت ، ومن أفارقة تونس والجزائر والمغرب . وبضم هؤلاء وهؤلاء أصبح عدد المترجمين مئة إلا أقلها .

بان لنا إذن أن المؤلف كان من همه وعزمه ، أن يجعل كتابه محطا ينتظم أعلام الفكر الإسلامى فى العصر الحديث ، ناظراً إلى الوطن العربى أجمع نظرته إلى وحدة متكاملة ، وأنه شرع فى التقصى والإعداد ، يستكتب ويستخبر ، ويستق وينتقى ، وكلما اجتمعت له مادة صالحة يحسن الاكتفاء بها فى ترجمة واحد من أولئك الأعلام عمد إلى تحريرها وتدبيجها . وكانت تشغله أشتات الشواغل فى عديد المسائل ، عن التجرد للكتاب ينجزه ، أو كان ينتظر المزيد من التعرف لهذا من المترجمين أو ذاك . .

ومضى — نور الله ضريحه — عن دفتره الأول ، والأوراق التابعة له ، واللاحقة به ، لم تبلغ من نظره مبلغ التمام .

ورأت « لجنة نشر المؤلفات التيمورية » بين يديها حصيلة وافرة من التراجم ، منها ما فرغ المؤلف من إعداده ، مكتوبا بخطه ، ومنها ما حصله من هنا وهنالك مكتوبا بخط غيره ، وما وافاه به العارفون بالمترجمين من أقربائهم وخاصتهم ، ليستعين به حين يكتب الترجمة فى الصيغة المرتضاة . وما وجدته اللجنة من التراجم يتفاوت بين قليل و كثير ، وبين مافيه غنية وما لا يشفى الغلة . فاستقر الرأى على أن تخرج اللجنة للناس هذا كله ، فإنه مادة تاريخية خليقة أن تسلم من الضياع ، وأن يفيد منها رواد البحث والاطلاع .

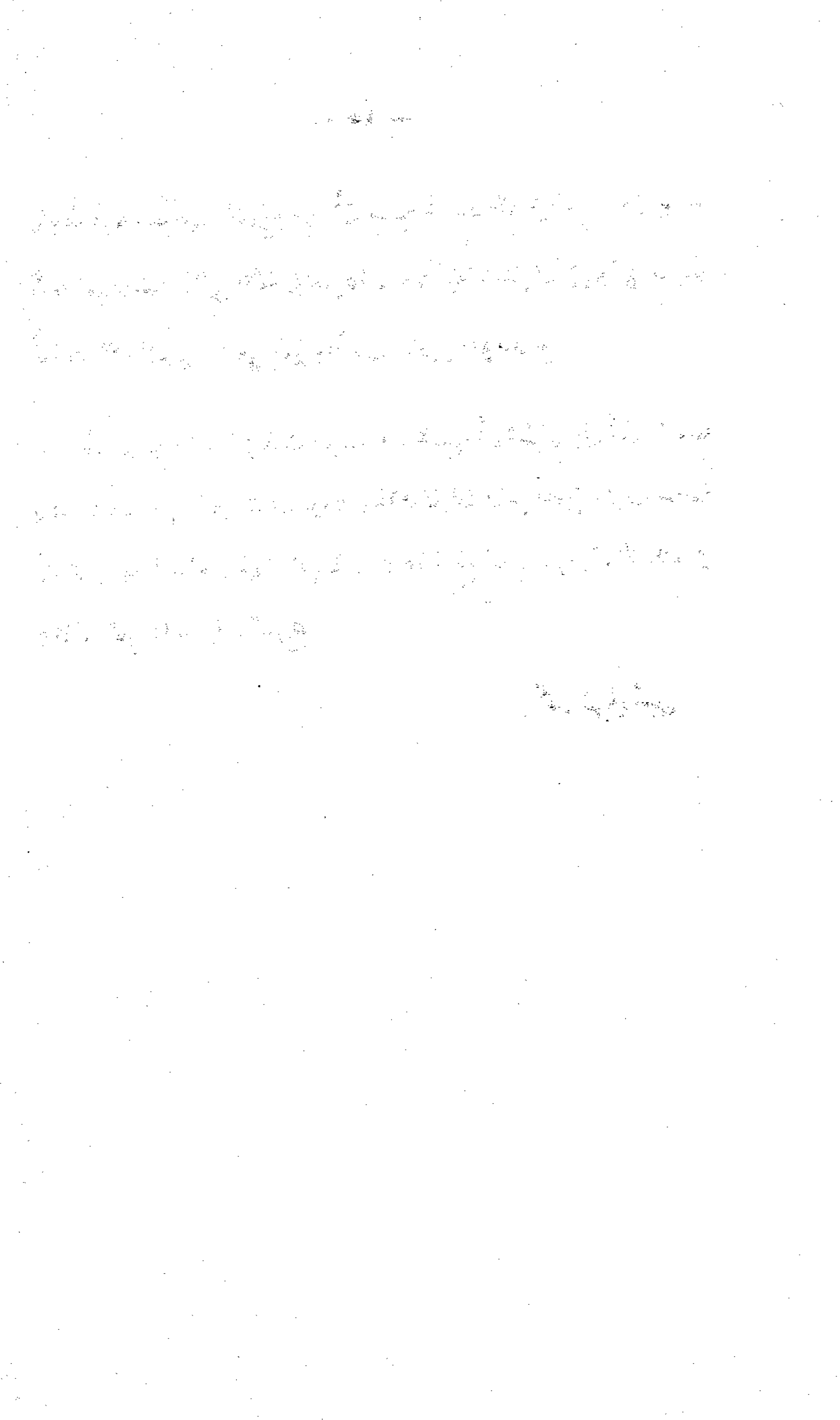
وربما لاح لقارىء فى توزيع المترجمين على المواطن العربية المتعددة أن بعضا من أعلام هذا الموطن أولى به أن يذكر فى موطن غيره ، وذلك لتباين الاعتبارات فى تعيين الموطن الذى يعزى إليه : أمسقط رأسه ؟ أم البلد الذى انتمت إليه أصوله؟ أم الأفق الذى تألق فيه نجمه ؟ والحق أن المواطن العربية كانت تتهادى أعلامها ، فكم من حسنة للمشرق فى المغرب ، وكم من حسنة للمغرب فى المشرق، ولطالما كانت عواصم العربية متنقلا لأعلامها فى أمس الدابر واليوم الحاضر ، وإن ذلك لآية الوحدة الفكرية فى العالم العربى والإسلامى ، حتى ليحار المرء فى تقويم النسبة لبعض المبرزين من المفكرين : أ إلى هذا الموطن يعزوهم أم ذاك ؟

ولا يملك مطالع منصف إلا أن يحمد فى هذا الكتاب لمؤلفه العظيم عاطفته الكريمة لفضلاء معاصريه ، تلك العاطفة التى أملت عليه البر بهم ،

والوفاء لهم ، وتمكين التاريخ من أن يفسح فى صفحاته لحياتهم ، وأن يجلوها لأخلافهم ،وصلا لماضى الأمة بحاضرها ، وتزكية للمثل الكريمة التى ضربها أولئك الأعلام فى مناحى العلم والأدب والدين والإصلاح .

فأما « لجنة نشر المؤلفات التيمورية» فحسبها أن تطمئن إلى أنها ناهضة بواجبها نحو إحياء التراث التيمورى ، ذلك التراث الذى أعجل الموت صاحبه أن يحقق به إرادته الخيرة النبيلة : إرادة النفع العام للعروبة والإسلام فى مجالات العلم والقومية والتاريخ . .

محمد شوقى أمين



أعلام مصر

رقم مسلسل	أسماء الأعلام	التاريخ	رقم مسلسل	أسماء الأعلام	التاريخ
١	حسن العطار	١١٨٠ـ١٢٥٠هـ	١٣	حسن الطويل	١٢٥٠ـ١٣١٥هـ
٢	محمد أبو الفتح	١٢١٧ـ١٢٩٤هـ	١٤	مصطفى السفطى	١٢٥٠ـ١٣٢٧هـ
٣	محمد الأشمونى	١٢١٨ـ١٣٢١هـ	١٥	أحمد الرفاعى	١٢٥٠ـ١٣٢٥هـ
٤	إبراهيم مرزوق	١٢٢١ـ١٢٨٣هـ	١٦	على محمد الببلاوى	١٢٥١ـ١٣٢٣هـ
٥	محمد عياد الطنطاوى	١٢٢٧ـ١٢٨٠هـ	١٧	حسونة النواوى	١٢٥٥ـ١٣٤٣هـ
٦	على الليثى	١٢٣٦ـ١٣١٣هـ	١٨	عبد الله نديم	١٢٦١ـ١٣١٤هـ
٧	محمد الطنطاوى	١٢٤١ـ١٣٠٦هـ	١٩	محمد عبده	١٢٦٦ـ١٣٢٣هـ
٨	محمد العباسى المهدى	١٢٣٤ـ١٣١٥هـ	٢٠	أحمد أبو خطوه	١٢٦٨ـ١٣٢٤هـ
٩	أحمد أبو الفتح الدمنهورى	١٢٤٣ـ١٣١٠هـ	٢١	أحمد مفتاح	١٢٧٤ـ١٣٢٦هـ
١٠	زين المرصفى الشافعى	١٢٤٤ـ١٣٠٠هـ	٢٢	محمد أكمل	١٢٨٠ـ١٣٤٣هـ
١١	حسن عبد الباسط الحوىّ	١٢٤٥ـ١٣٠٠هـ	٢٣	محمد الإدريسى	١٢٩٣ـ١٣٦٤هـ
١٢	رضوان محمد المخللاتى	١٢٥٠ـ٣١١ هـ	٢٤	عبد الحميد نافع	

حسن العطّار

١١٨٠ هـ — ١٢٥٠ هـ

هو العلامة شيخ الإسلام الشيخ حسن بن محمد العطّار المصرى ، المولود بالقاهرة في حدود سنة ١١٨٠ هـ ١٧٦٦ م . ونشأ بها فى رعاية والده الشيخ محمد كتن . سمع من أهله أنه مغربى الأصل . قدم بعض أسلافه مصر واستوطنوها ، وكان والده عطاراً صغيراً له إلمام بالعلم .

وكان فى أول أمره يستصحبه إلى الدكان ، ويستخدمه فى صغار شئونه ، ويعلمه البيع والشراء . ولشدة ذكائه وحدّة فطنته كان يميل إلى التعليم ، وتأخذه الغيرة عند رؤية أترابه يتردَّدُون إلى المكاتب ، فكان يختلف إلى الجامع الأزهر لحفظ القرآن الكريم .

ولما رأى والده فيه هذه الرغبة إلى التعلم ، ساعده حتى أتم حفظ القرآن فى مدة يسيرة ، ثم أقبل على طلب العلم ، وجدّ فى التحصيل على كبار المشايخ كالشيخ الأمير والشيخ الصبان وغيرهما ، حتى بلغ من العلوم فى زمن قليل ما هيأه للتدريس ، وزادت رغبته فى التزود بكثير من العلوم المختلفة ، فعكف على دراستها وأتقنها .

ولما دخل الفرنسيون مصر غادر القاهرة مع جماعة من العلماء إلى الصعيد ،

ثم عاد إليها إبان احتلالهم الممقوت ، فقرّبوه منهم ، واتصل بعلمائهم ، فأفادهم واستفاد منهم . وكان يتنبأ لمصر بتقدّم عمرانيّ وثقافيّ .

ثم سافر إلى الشام ، وأقام بدمشق بالمدرسة البدرية زمناً ، ومدحها بقصيدة أوّلها :

بوادي دِمَشْقِ الشام جُزْ بي أخا البَسْطِ　　وعَرِّجْ على باب السَّلام ولا تُخْطِي
ولا تبكِ ما يبكي امرؤُ القيس حوملاً　　ولا منزلا أَوْدَى بِمُنْعَرج السِّقْطِ
فإنّ علَى باب الســلام من البَهَا　　ملابسَ حُسْنٍ قد حفِظْنَ من العَطِّ
هنــالك تلْقَى ما يروقُكَ مَنْظَراً　　ويُسْلِي عن الأخْدَانِ والصَّحْبِ والرهطِ

ومنها :

وقِفْ بي بجسر الصالحيّةِ وقفةً　　لأقضِي لُبَانَاتِ الهوَى فيه بالبَسْطِ
وعرِّج على باب البريد تجِــدْ به　　مراصــدَ للعشّاق في ذلك الخطِّ
وحاذِر سُوَيْعَاتِ العمارة إنهــا　　مهالكُ للأَموال تأخذُ لا تُعْطِي

إلى أن قال :

وعنــدي من التأليف شيءٌ وضعتُه　　على شرح قانون الحفيد أخي السِّبْطِ
ثلاثُ مقــالاتٍ كبارٍ وضعتُهــا　　لتعريف حال الكَيِّ والفَصْدِ والبَطِّ
وجزءٌ على شرح المــبرِّد كامل　　أُبيِّنُ فيه غامضَ النَّص بالقطِّ
وألّفتُ في عــلم الجراحة نُبْذَةً　　لتعريف أكل الفول بالقطع والخطِّ

ومن شعره :

إنى لأكرهُ فى الزمانِ ثلاثةً ما إن لها فى عدِّها من زائدِ

قربَ البخيلِ ، وجاهلاً متفاضلاً لا يستحي ، وتودُّداً من حاسدِ

ومن الرزيّةِ والبليّةِ أن ترى هذى الثلاثةَ جُمِّعَتْ فى واحدِ

ومن خطه فى بعض مجموعاته : « اتفق لى أنى بعد قضاء حجّى توجّهتُ مع الركب الشامى ، فوصلت إلى « معان » . ثم لبلدة « الخليل » ، فأقمتُ بها نحو عشرة أيام ، ثم توجّهت إلى القدس الشريف ، فنزلت بدار نقيبها السيد عمر أفندى ، وكان معزولا عن نقابة الأشراف ، ومن عادته الاحتفال بالموسم الموسوىّ ، وإطعام الفقراء ، وقبل حلول الموسم بيومين أُعيد إلى نقابة الأشراف ، فنظمت قصيدة تهنئة له بعود المنصب :

الحمد لله على فضله من بعد أن أُشفقَ من محلِهِ

قد يطلب الحسناءَ من لم يكنْ كفؤاً لها للحُمْقِ فى عَقْلِهِ

فمنصِبُ المرءِ قرينٌ لهُ والشّكلُ مجذوبٌ إلى شَكْلِهِ

وبقية القصيدة فى الجزء الرابع من « الخطط التوفيقية » جزء ٤ ص ٣٩ .

ثم سافر إلى «استانبول» وأقام هناك مدة ، وتأهل بها وأعقب ولم يبق عقبه .

ولم يزل مشتغلاً بالإفادة والاستفادة حتى عاد إلى مصر بعلوم كثيرة ، وأقرّ له علماءُ عصره بالانفراد ، وعقد مجلساً لقراء تفسير البيضاوى . وقد مضت مدة على هذا التفسير لا يقرؤه أحد ، فحضره أكابر المشايخ ، والتفّوا حول دروسه .

ولمّا حضر إلى مصر فى سنة ١٢٣٧ هـ « بطرس البستانى » مدحه بقصيدة منها :

أمـــا الذكاء فإنـــه | أذكى وأبرع من « إياسه »
أضحى « البديع » رفيقـه | لمـــا تفرد فى « جناسه »
فى أى فن شئته | فـكأنه بانى أساســه

وكتب عنه معاصره الشيخ محمـد شهاب الشاعر قال : « كان آية فى حدة النظر وشدة الذكاء ، وكان يزورنا ليلا فى بعض الأحيان فيتناول الكتاب الدقيق الخط الذى تعسر قراءته فى وضح النهار فيقرأ فيه على ضوء السراج ، وربما استعار منى الكتاب فى مجلدين فلا يلبث عنده إلا أسبوعاً أو أسبوعين ويعيده إلىّ وقد استوفى قراءته وكتب فى طرره على كثير من مواضعه . »

وكان معاصراً له مؤرخ مصر الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، وقـد ذكره فى تاريخه لمناسبة إعادة الشيخ شامل أحمد رمضان إلى مشيخة رواق الطرابلسية وامتداح الشيخ العطار له ، وكان صديقاً له ، بقصيدة أولها :

انهض فقد ولت جيوش الظلامْ | وأقبل الصبح سفـــير اللثام
وغنت الوُرق عـــلى أيـكها | تنبه الشَّرب لشُرب المدام
والزهر أضحى فى الربى باسماً | لمـا بكت بالطـل دمع الغمام

مشيراً إلى أنها من قصيدة فى ديوان الشيخ جاء فى آخرها :

بشراك مولانا عـلى منصب | كان له فيك مزيد الهيـــام
وافاك إقبـــال به دائـمـاً | وعشت مسعوداً بطول الدوام
فقــد رأينا فيك ما نرتجى | لا زلت فينـــا سالماً والسلام

وعندما وصف الجبرتى النكبة التى حلت بالأزبكية ودورها المحـرقة

بالبركة وبأطرافها عند احتلال الفرنسيين قال : « وصارت كلها تلالا وخرائب كأنها لم تكن مغنى صبابات ، ولا مواطن أنس ونزهات » واستشهد بقول العطار فى وصفها إبان ازدهارها . وهذه عبارته (ص ٣٧ ج ٣ الجبرتى) :

« وفيها يقول صديقنا العلامة والنحرير الفهامة حسن العطار حفظه الله :

« وأما بركة الأزبكية فهى مسكن الأمراء ومواطن الرؤساء ، قد أحدقت بها البساتين الوارفة الظلال ، المعدمة المثال ، فترى الخضرة فى خلال تلك القصور المبيضة ، كثياب سندس خضر على أثواب من فضة ، يوقد بها كثير من السروج والشموع ، فالأنس بها غير مقطوع ولا ممنوع ، وجمالها يدخل على القلب السرور ، ويذهل العقل حتى كأنه من النشوة مخمور . ولطالما مضت لى بالمسرة فيها أيام وليالى ، هن سمط الأيام من يتيم اللآلى . وأنا أنظر إلى انطباع صورة البدر فى وجناتها ، وفيضان لجين نوره على حافاتها وساحاتها ، والنسيم بأذيال ثوب مائها الفضى لعّاب ، وقد سل على حافاتها من تلاعب الأمواج كل قرضاب ، وقام على منابر أدواحها فى ساحة أفراحها مغردات الطيور ، وجالبات السرور ، فلذيذ العيش بها موصول . »

وكانت روضة مصر فى عصره مزدهرة ، وحولها دور العظماء والعلماء ، وندواتهم ومكتباتهم ومتنزهاتهم . وفيها يقول العطار :

بالأزبكية طابت لى مسرات ... ولذّ لى ببديع الأنس أوقات

حيث المياه بها والفلك سابحة ... كأنها الزهر تحويها المجرات

وقد أدير بها دور مشيدة ... كأنها لبدور الحسن هالات

مدت عليها الروابى خضر سندسها ... وغردت فى نواحيها حمامات

والماء حين سرى رطب النسيم به وحل فيه من الأدواح زهرات
كسابغات دروع فوقهـا نقط من فضة ، واحمرار الورد طعنات
مراتع لظبـاء الترك ساحتها وللأسود بها فيهن غيضات
وللنديم بها عيش تجـدده أيدى الزمان ولا تخشى جنايات
يروح منها صريع العقل حين يرى على محاسنها دارت زجاجات
وللرفاق بها جمـع ومفترق لما غدت وهى للندمان حانات

بهذا الأسلوب الرائق وهذا الشعر الفائق يصف العطار بركة الأزبكية ، ولا عجب فهو مصرى أولا وقاهرى تربى بالقاهرة ، فرق خياله ، ونعم بجمال البركة الذى فتن كل من رآها فتغنى بجمالها .

ظل الشيخ حسن مصدر إشعاع لمختلف العلوم إلى أن ولى مشيخة الأزهر عقب وفاة الشيخ محمد الشنوانى فى سنة ١٢٤٦ ه فزانها وشرفها ، وظل شيخاً للأزهر إلى أن توفى فى آخر سنة ١٢٥٠ ه وترك مؤلفات قيمة ، منها ما دوّنه طيب الذكر يوسف سركيس فى معجم المطبوعات العربية بعد أن ترجم للشيخ ، وهى :

إنشاء العطار — فى المراسلات والمخاطبات وكتابة الصكوك والشروط مما يحتاج إليه الخاص والعام . وقد طبع عدة طبعات . وهو مؤلف صغير الحجم كبير الفائدة ، يشهد له بدقة الملاحظة وقوة الأسلوب ، وفيه الكثير من أشعاره .

حاشية العطار — على التهذيب للخبيصى ، شرح التهذيب ،

وبهامشها الشرح المذكور وحاشية ابن سعد (منطق) — طبع ببولاق سنة ١٢٩٦ هـ .

حاشية العطار — على شرح إيساغوجى لأثير الدين الأبهرى . وبالهامش الشرح المذكور (منطق) طبع سنة ١٣١١ هـ .

حاشية العطار — على جمع الجوامع ، ثلاثة أجزاء ، طبع مصر .

حاشيته على متن السمرقندية (بلاغة) طبع بالدهينة سنة ١٢٨٨ هـ .

حاشيته على شرح الأزهرية للشيخ خالد الأزهرى (نحو) طبع عدة طبعات بمصر .

حاشيته على شرح المقولات المسمى بالجواهر المنتظمات فى عقود المقولات كلاهما للشيخ أحمد السجاعى ، طبع بمصر سنة ١٢٨٢ هـ .

منظومة العطار فى علم النحو — فى مجموع من مهمات الفنون ، طبع سنة ١٢٨٠ هـ .

وقد زاد المغفور له على باشا مبارك على ذلك من مؤلفات العطار : رسالة فى كيفية العمل بالأسطرلاب والربعين المقنطر والمجيب والبسائط ، ورسائل فى الرمل والزايرجة والطب والتشريح وغير ذلك . وذكر أنه كان يرسم بيده المزاول النهارية والليلية .

وحدث الشيخ إبراهيم السقا أحد تلاميذه : أن بعض سكان مكة المكرمة ، المارين بمصر ، أعجبهم علم الشيخ العطار ، فأحبوا أن يقيم بينهم ليخلف فيهم « ابن حجر الهيتمى » وينتفعوا به وبعلمه ، فاجتمعوا به ، وما زالوا يحسنون له الرحلة حتى أجاب ، وأخذ فى تجهيز نفسه ، وسمع تلاميذه بذلك ،

فاشتد أسفهم ، ولم يكن فيهم من يجرؤ على منعه ، قال : فاحتلت بأن أخرجته بعد الدرس من صحن الأزهر ، ونحن فى حَمَارَّةِ القَيْظ ، وأخذت أسأله بعض المسائل ، وأخرج من واحدة لأخرى ، وهو يرفع رجله ويضعها من شدة حر البلاط ، حتى تبين لى الضجر فى وجهه وانتهرنى ، فقلت : ياسيدى أنت لا تطيق حر الشمس وأنت بمصر ، فكيف لك بالحر فى مكة وهو هناك أضعاف ما هنا ؟ ففكر ثم جزانى خيراً . وفترت همته عن السفر .

وحدث أيضا الشيخ السقا قال : بينما نحن فى درسه إذ وقف على الحلقة رجل أعجمى بشع المنظر فى منطقته خنجر ، ثم (رطن) مع الشيخ بلغة لم نفهمها ، وكلما طال الكلام ازداد الرجل حنقا وحدة ، فترك الشيخ كراريسه وقال : أنا محتاج لتجديد وضوئى ـ ثم ذهب ولم يعد ، وانصرفنا ، وتبين لنا أنه من أقارب زوجته التى تزوج بها فى بلاد الترك ثم تركها ، فأخبرنا هو أن الرجل كان يتهدده بالقتل .

وكان الشيخ العطار عالماً جليلا ذائع الصيت فى مصر وسائر الأقطار العربية والشرقية ، وأديباً فريداً ، وشاعراً مجيداً . وكان مع ما اتصف به من حميد السجايا وطيب الخلال متواضعاً كريماً زاهداً وجيهاً أينما توجه وحيثما أقام ـ رحمه الله وأجزل مثوبته .

الشيخ حسن العطار (١)

رائد البعث الأدبى فى مصر الحديثة

الشيخ حسن العطار هو حسن بن محمد كتن المولود بالقاهرة سنة ١١٨٠ هـ ١٧٦٦ م علـى أرجح الأقوال . وهو يرتد إلى أصول مغربية . وقد اتصل بالفرنسيين اتصالا علمياً ، كما اتصل بمحمد علـى ، وولى تحرير « الوقائع العربية » بين (١٢٤٤ — ١٢٤٦ هـ —١٨٢٨ — ١٨٣٠ م) ومشيخة الأزهر سنة ١٢٤٦ هـ وظل فيها حتى توفى سنة ١٢٥٠ هـ (١٨٣٥ م) .

وكان أبوه عطاراً فقيراً له إلمام بالعلم ، وكان يستصحبه إلى الدكان ويستخدمه فى صغار شئونه ، ومن هنا جاءه لقب العطار . وكان يميل إلى التعلم وتأخذه الغيرة عند رؤيته أترابه يترددون إلى المكاتب ، فكان يختلف إلى الجامع الأزهر خفية حتى قرأ القرآن فى مدة يسيرة ، فلما علم أبوه بذلك بارك اتجاهه وشجعه ، فجد فى التحصيل حتى بلغ من العلوم فى زمن قليل مبلغاً تميز به ، واستحق التصدى للتدريس ، لكنه مال إلى الاستكمال ، فاشتغل بغرائب الفنون والتقاط فوائدها .

والواقع أن مفتاح شخصية العطار يكمن فى حبه الأصيل للعلم . وكلف العطار بالمعرفة والتعلم هو الذى جعله فذا بين أقرانه تلميذاً وأستاذاً ، وهو الذى صاحبه فى كافة مراحل حياته وجعله حدثاً فى عصره .

---

(١) وقد عثرنا على ترجمة أخرى له بهذا العنوان بقلم الأديب الكبير الأستاذ سامى بدراوى ـ نشرها فى (المجلة) التى تصدر فى القاهرة . فأثبتناها بنصها .

كان الرجل قارئاً نهماً ، وكان إلى ذلك يحسن الانتفاع بما يقرأ ، حتى اشتهر عنه ذلك ، فإلى جانب النص السابق الذى يسجل أنه كان ميالا إلى الاستكمال مشتغلا بغرائب الفنون والتقاط فوائدها نجد أحد أصدقائه ، الشيخ محمد شهاب يقول : « إن الشيخ العطار كان آية فى حدة النظر وشدة الذكاء ، ولقد كان يزورنا ليلا فى بعض الأحيان فيتناول الكتاب الدقيق الخط الذى تتعسر قراءته فى وضح النهار فيقرأ فيه على نور السراج وهو فى موضعه ، وربما استعار منى الكتاب فى مجلدين فلا يلبث عنده الأسبوع أو الأسبوعين ويعيده إلىّ وقد استوفى قراءته وكتب فى طرره على كثير من مواضعه » .

وقد اتصل العطار بالفرنسيين إبان الحملة ليعلم أحدهم اللغة العربية ، فكان يستفيد منهم الفنون المستعملة فى بلادهم فيما يقول على مبارك ، وقد أشار العطار نفسه إلى ذلك فى مقامته إن جاز أن نعتبرها مصدراً ، وإن غضضنا الطرف عن فكرة أنه ساقها على لسان راو صديق ، يقول فى موضع منها معدداً الكتب التى رآها عند الفرنسيين : « وكلها فى العلوم الرياضية والأدبية ، وأطلعونى على آلات فلكية وهندسية » ، وفى موضع آخر من نفس المقامة يشير إلى حب الفرنسيين للفلسفة وحرصهم على اقتناء كتبها وإعمال الفكرة فيها .

وإلى جانب صلة العطار بالفرنسيين فى مكتباتهم ومصانعهم ، فقد كان للعطار ولع بقراءة الكتب المترجمة عن اللغات الأوربية ، خاصة فى علمى التاريخ والجغرافيا حتى اشتهر عنه ذلك ، والعطار نفسه يقول فى هذا المنبع من منابع ثقافته :

« وقع فى زمننا أن جلبت كتب من بلاد الأفرنج ، وترجمت باللغة التركية والعربية ، وفيها أعمال كثيرة وأفعال دقيقة اطلعنا على بعضها ، وقد تتحول تلك الأعمال بواسطة الأصول الهندسية والعلوم الطبيعية من القوة إلى الفعل ، وتكلموا فى الصناعات الحربية والآلات النارية ومهدوا فيها قواعد وأصولا حتى صار ذلك علماً مستقلا مدوناً فى الكتب ، وفرعوه إلى فروع كثيرة ، ومن سمت به همته إلى الاطلاع على غرائب المؤلفات وعجائب المصنفات انكشفت له حقائق كثيرة من دقائق العلوم ، وتنزهت فكرته إن كانت سليمة فى رياض الفهم » .

وإلى جانب اتصال العطار بالثقافة الغربية عن طريق الاحتكاك المباشر أولا ، ثم عن طريق الكتب المترجمة ، فإن الرجل قد توفرت له وسيلة ثالثة : هى الرحلة ، إذ ذهب إلى الشام وفلسطين وتركيا ، « ولم يزل مشتغلا بالإفادة والاستفادة حتى عاد إلى مصر بعلوم كثيرة ، وأقر له علماء مصر بالانفراد » .

وليس واضحاً فى كل ما كتب عن الشيخ العطار سبب هذه الرحلة ، ولكن يبدو أنه اضطر إليها بعد أن ساءت علاقاته بالفرنسيين .

فلما عاد العطار إلى مصر فى عهد محمد على ، عاد موسوعياً فى ثقافته وعلمه ، يطاول علماء الأزهر الأفذاذ ، ويمتلىء حماسة لتطوير البلاد وإصلاح أحوالها . ويمكن إجمال جهود العطار الإصلاحية فى ثلاثة ميادين هى : التعليم والثقافة ، ثم الأدب واللغة ، ثم السياسة .

أما فى مجال التعليم والثقافة ، فقد اتخذت جهود الرجل عدة مظاهر :

أولها أنه جعل ينبه الأزهريين فى عصره إلى واقعهم الثقافى والتعليمى ، ويبين ضرورة إدخالهم المواد الممنوعة كالفلسفة والأدب والجغرافيا والتاريخ والعلوم الطبيعية ، كما يبين ضرورة إقلاعهم عن أساليبهم فى التدريس ، ووجوب الرجوع إلى الكتب الأصول وعدم الاكتفاء بالملخصات والمتون المتداولة ، ويتوسل إلى ذلك بكل وسيلة . يقول مبيناً الفارق بين علماء عصره والعلماء الأفذاذ الذين عرفهم العالم العربى قبل عصر العطار ، ومحطما أكذوبة تحريم الدين الإسلامى لبعض العلم :

« .. من تأمل ما سطرناه وما ذكر من التصدى لتراجم الأئمة الأعلام ، علم أنهم كانوا ـ مع رسوخ قدمهم فى العلوم الشرعية والأحكام الدينية ـ لهم اطلاع عظيم على غيرها من العلوم ، وإحاطة تامة بكلياتها وجزئياتها حتى فى كتب المخالفين فى العقائد والفروع .. ثم هم مع ذلك ما خلوا فى تثقيف ألسنتهم وترقيق طباعهم من رقائق الأشعار ولطائف المحاضرات ..

وفيما انتهى إليه الحال فى زمن وقعنا فيه ـ علم أن نسبتنا إليهم كنسبة عامة زمانهم ، فإن قصارى أمرنا النقل عنهم بدون أن نخترع شيئاً من عند أنفسنا ، وليتنا وصلنا إلى هذه المرتبة ، بل اقتصرنا على النظر فى كتب محصورة ألفها المتأخرون والمستمدون من كلامهم نكررها طول العمر ، ولا تطمح نفوسنا إلى النظر فى غيرها حتى كأن العلم انحصر فى هذه الكتب ، فلزم من ذلك أنه إذا ورد علينا سؤال من غوامض علم الكلام تخلصنا منه بأن هذا كلام الفلاسفة ولا ننظر فيه ، أو مسألة أصولية قلنا لم نرها فى « جمع الجوامع » فلا أصل لها ، أو نكتة أدبية قلنا هذا من علوم أهل

البطالة . وهكذا فصار العذر أقبح من الذنب .. وهذه نفثة مصدور » .

وقد بدأ العطار يخرج على هذا الجمود العلمى الأزهرى بتدريسه المواد الممنوعة . إذ بدأ يدرس الجغرافيا والتاريخ فى الأزهر وخارج نطاق الأزهر . كما كان تلميذه محمد عياد الطنطاوى يدرس الأدب فى الأزهر بإيحاء العطار وتحت إشرافه فى « مقامات الحريرى » حوالى سنة ١٨٢٧ م . كما بدأ تلميذه رفاعه الطهطاوى أيضاً يدرس الحديث والسنة بطريق المحاضرة وبلا نص ، مما كان مثار إعجاب العلماء . وفى الخطط التوفيقية أن العطار « عقد مجلساً لقراء تفسير البيضاوى ، وقد مضت مدة على هذا التفسير لا يقرؤه أحد ، فحضر ، أكابر المشايخ ، فكانوا إذا جلس للدرس تركوا حلقهم وقاموا إلى درسه » . ولعله بذلك يكون قد بدأ ما لجأ إليه الأفغانى ومحمد عبده من إعادة تفسير القرآن فى ضوء الظروف المعاصرة . والمهم أن هذا النص يدل على أن التربة من حول العطار لم تكن مواتاً تماماً ، فإن قيام زملائه الشيوخ إلى حلقته ، مع اشتداد معارضتهم له ونقمتهم عليه لنزعته التجديدية وحملاته على تقصيرهم العلمى ، لهو أمر له دلالته ، كما أنه وثيقة تشهد بمقدرة هذا العالم الفذ .

فكأن الشق الأول من دعوة العطار الإصلاحية ، كان يتمثل فى مناداته بضرورة تطوير التعليم الأزهرى من حيث المناهج ومواد الدراسة ، وذلك بالرجوع إلى المصادر الأصلية وبتدريس المواد الممنوعة ، وهو ما يمكن أن نعبر عنه بالدعوة إلى ضرورة بعث التراث العربى القديم . وهى دعوة حاول العطار نفسه الإسهام فى تنفيذها ، إذ لم يكن يكف عن البحث والتنقيب فى

هذه المراجع القديمة ، وإشراك خاصة تلاميذه فى ذلك . ولقد كان الأزهر أكبر المعاقل العلمية فى ذلك الوقت ، فحديث العطار عن التعليم الأزهرى وقصوره حديث عن الحالة الثقافية عامة فى البلاد .

المظهر الثانى لحركة الشيخ العطار التجديدية فى مجال الثقافة والتعليم يتمثل فى دعوته إلى إدخال العلوم العصرية ، وعبارته فى ذلك معروفة « إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها » . والشيخ العطار لم يقتصر فى دعوته على مجرد التبشير بأفكاره الإصلاحية ، إنما هو يردف القول بالعمل ، فإلى جانب تدريسه وتأليفه فى العلوم العربية نجده يكتب فى المنطق والفلك والطب والطبيعة والكيمياء والهندسة ، يتضح ذلك من قائمة مطبوعاته ، ومن إشاراته إلى إعجابه بما رأى عند الفرنسيين وخاصة تحويلهم علومهم إلى عمل . وفضلا عن ذلك فإن استعراض قائمة مطبوعات بولاق حتى سنة ١٨٣٥ تدل على أن عدداً وافراً من المطبوعات فى جميع المواد المذكورة كان قد طبع . بل إن العطار كان يتردد على المرصد الذى أنشأه الفرنسيون ، كما « كان يرسم بيده المزاول النهارية والليلية » . وقد حفلت شروح الرجل وحواشيه على الكتب المختلفة بتعليقات فى كافة العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانية .

والجانب الثانى من جوانب حركة العطار هو التطوير الأدبى . وقد مر بنا أنه أفلح فى إدخال الدراسة الأدبية إلى الأزهر على يدى تلميذه الطنطاوى ، كما أنه هو نفسه قد اعتنى بالأدب عناية خاصة . فلم يكن يتحرج من إنشائه ،

أو تدريسه ، ويبين عدم تعارض ذلك مع وقار العلم أو جلال الدين ، مستشهداً بالأسلاف العظام .

كان العطار يكتب النثر وينظم الشعر ، ويشجع تلاميذه على ذلك ، حتى إن جمال أسلوبه كان سر اختياره أول محرر للوقائع العربية . وقد كتب العطار مقامة على النسق القديم ، وإن كان موضوعها حديثاً ، فهى تدور حول علاقته بالفرنسيين وانتفاعه بمكتبتهم . كما كتب كتاباً فى فلسفة الإنشاء ، ضمنه كل الأنواع الأدبية المعروفة لعهده ، وأردف كلا منها بنماذج مختارة من إنتاجه الخاص ، وهى أكثر أجزاء الكتاب حيوية ، إذ يسجل فيها خواطره وانطباعاته التى تركتها فى نفسه رحلاته ومعاملاته مع الناس الذين احتك بهم . والكتاب بعد حافل بنماذج شعرية للرجل نفسه . وذلك هو كتاب « إنشاء العطار » .

وفضلا عن ذلك فتاريخ «الجبرتى» حافل بنماذج شعرية له ، وكذلك « كنز الجوهر » و « الخطط التوفيقية ، وغيرها من الكتب التى ترجمت له .

ويغلب على أسلوب العطار البساطة والسهولة والحرص على الفكرة ونقلها إلى القارئ ، فالأسلوب عنده مجرد وسيلة للتعبير ، وليس غاية فى ذاته ، ومع ذلك فهناك فى بعض كتابات الرجل السجع والمحسنات البديعية عموما ، ومن غريب الأمر أن ذلك يكثر حيث يقصد الرجل إلى الإنشاء الأدبى أو الكلام فى فلسفة الأدب ، ويقل فى مؤلفاته العلمية حيث يسهل أسلوبه ويسلس حتى ليوشك أن يكون معاصراً .

أما فى الشعر فإن نماذج العطار الحية قد دارت حول موضوعات شغلته . وهو يسجل وعيه بذلك ، وتمسكه به ، ونفوره من التزام التقليد القديم فى بكاء الدمن ، والانغلاق فى الموضوعات الشعرية القديمة وعناصرها . ومن أقوال « العطار » فى هذا المعنى ما جاء فى ثنايا تغنيه بجمال الطبيعة فى دمشق :

بوادى دمشق الشام جز بى أخا البسط
وعرج على باب السلام ولا تخطى

ولا تبك ما يبكى امرؤ القيس حوملا
ولا منزلا أودى بمنعرج السقط

فإن على باب السلام من البها
ملابس حسن قد حفظن من العط

هنالك تلقى ما يروقك منظراً
ويسلى عن الأخدان والصحب والرهط

كساها الحيا أثواب خط فدثرت
بنور شعاع الشمس والزهر كالقرط

فهو يؤثر التحول عن بكاء الأطلال إلى التغنى بالطبيعة الحية من حوله إيثاراً واعياً مقصودا . ويلاحظ على هذه المقطوعة سهولة لغتها وتماسك أبياتها فى كلٍّ مترابط ، وهى صفة عامة تنسحب على معظم إنتاج العطار الشعرى ما لم يعمد الرجل إلى التزام الإطار التقليدى للقصيدة العربية ، كما كان متداولا عند معاصريه . ويكثر ذلك فى شعر المناسبات غالباً ، وفى رثاء الشيخ العطار

لأستاذه «الدسوقى» نجد نموذجاً لهذا الشعر الذى يقوم على المغالاة ، والاتكاء على التوليدات المنطقية ، مما يجعله أقرب إلى النظم . وفى نماذج هذا النوع تنتكس وحدة القصيدة فيصبح البيت وحدة قائمة بذاتها ، كقوله :

عزاء بنى الدنيا بفقد أئمة ... لكأس مرير الموت كلٌّ تجرعا
يميناً لقد جل المصاب بشيخنا الـ ... ـدسوقى وعاد القلب بالهم مترعا

بقى من أوجه نشاط العطار الجانب السياسى ، والفكرة الشائعة بين من درسوا الرجل وأعماله ، أنه كان مسالماً بطبعه ، يلتزم أسلوب العلماء فى الآراء التى يبشر بها . أو أنه كان حصيفاً كيساً ـ كما يذهب المرحوم الأستاذ العقاد ـ فلم يقحم نفسه فى مجال السياسة . بل إن الذى يراجع آراء معاصرى العطار من الشيوخ ، يحس أنهم كانوا ينظرون إليه على أنه رجل محمد على وصنيعته . والواقع أن هذه النظرة إلى نشاط العطار السياسى لها مايبررها من ظاهر موقف الرجل ورأى معاصريه فيه ، ولكنها بعد نظرة من الخارج ، أو هى نظرة على السطح .

لقد رحل العطار من القاهرة إلى أسيوط فراراً من وجه الفرنسيين أول دخول رجال الحملة الفرنسية القاهرة ، وظل هناك حتى هدأت الأحوال واطمأنت النفوس ، فعاد مع العائدين ، وبدأت صلة العطار بالفرنسيين منذ ذلك التاريخ ، وتوثقت هذه الصلة حتى أصبح يفهم عنهم ويتحمس لحضارتهم وعلمهم ، ويبشر بضرورة الانتفاع بكل ذلك ، ثم يسافر العطار إلى سوريا وتركيا ولايعود إلا فى عهد محمد على ، والراجح أنه خرج مكرهاً بسبب العسف الفرنسى ، أو احتجاجاً على إساءة الفرنسيين معاملة المصريين ، ويقال إنه ذكر ذلك فى بعض رسائله الخاصة .

وفى عهد الحملة بشر نابليون فى منشوراته وأقواله بملامح ديمقراطية رائعة، وبلغ ذلك ذروته فى الديوان العام الذى هو أشبه ما يكون بمؤتمر عام يضم مندوبى القاهرة والأقاليم للبحث فى شكل الحكم والضرائب والقضاء وغير ذلك من الأمور الحيوية ، كما نجد هذه اللمحة الديمقراطية تتكرر فى الدواوين الخاصة ، إلا أن الفرنسيين لم يلبثوا أن فجعوا المصريين فى آمالهم التى علقوها بهذه الوعود البراقة ، ذلك أن الفرنسيين سلبوا هذه المنظمات فاعليتها ، وفرضوا الكثير من الضرائب والإتاوات والسلف الإجبارية ، بل أزهقوا من الأرواح مالم يُجْدِ معه تدخل أعضاء الدواوين ولا العلماء ، مما ضاعف من حنق المصريين على الفرنسيين ، وهو ماترك أثراً حاسماً على الحركة القومية الوليدة . وبدهى أن العلماء المثقفين الفاهمين كانوا فى طليعة الناقمين ، وكان العطار بين هؤلاء فى المقدمة . وحسبنا دليلا على غضبة الشعب وعدم انخداعه بوعود نابليون أن الديوان العام انتهى بثورة القاهرة الأولى .

وفى عهد الحملة الفرنسية أيضاً ، ترجم الدستور الفرنسى وأعيد طبعه ثلاث مرات ، وكان العطار يتابع الكتب المترجمة ، فلا شك أنه قرأ هذا الدستور المترجم ووعاه . ولقد كان العطار بعد معنياً بتقدم البلاد حريصاً عليه ، وهو صاحب فكرة إرسال الطهطاوى تلميذه الفذ فى البعثة العلمية إلى فرنسا فى عهد محمد على ، كما كان صاحب فكرة تدوين الطهطاوى لكل ما يرى وما يعن له فى أثناء رحلته مما ، كان ثمرته كتاب « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » . فليس من المغالاة فى شىء أن نستنتج أن وقوف الطهطاوى عند نظام

الحكم الفرنسى ، ونقله من الدستور الفرنسى ، وإطالته الوقوف عند ما أسماه « جوانب العدل » فيه ، إنما يرتد إلى إيحاء أستاذه العطار . ومن هنا يمكن أن نجمل موقف الرجل السياسى فى عهد الحملة الفرنسية ، فى نشاط معاد استوجب نفيه ، ثم تنبهه إلى مزايا الديمقراطية الفرنسية ، وحرصه على أن تنتفع بلاده بها انتفاعاً رسم خطوطه العريضة لتلاميذه وعهد إليهم بموالاته .

* * *

وفى عهد محمد على نجد إشارات متفرقة يمكن بجمعها وتعمقها أن نستدل على موقف العطار السياسى . وأولى هذه الإشارات ، أن الرجل كان صديقاً حميما للجبرتى المؤرخ ، وأنه أسهم معه فى تأليف كتابه « مظهر التقديس » . والمعروف عن الجبرتى أنه كان ينقم على محمد على افتياته على الكيان المصرى والشخصية المصرية ، وإن أعجب بنشاطه وحزمه . يقول فى ذلك : « . . فلو وفقه الله بشىء من العدالة على ما فيه من العزم والكياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه » .

وليس ببعيد أن يكون هذا هو حقيقة موقف العطار نفسه من محمد على وحكمه ، لاسيما أن الرجل كان شديد الغيرة على المصلحة العامة ، شديد الحرص على تشخيص الواقع المحيط به وتغييره .

* * *

أما الإشارة الثانية إلى موقف العطار السياسى فى عهد محمد على ، فنجدها فى الوقائع فى الفترة التى ولى فيها العطار تحرير القسم العربى منها (١٨٢٨ ـ ١٨٣٠ م) . وخلاصة هذه الإشارة أن أحد محررى الوقائع واسمه

عزيز أفندى كان يحرص على أن يعرض الأخبار التى ترد إليه من محمد على عرضاً موجها ، أى أنه كان يعلق عليها برأيه الشخصى ، ولم يرض ذلك محمدا علياً ، فلفت نظر عزيز أفندى مرة ومرة ، وفى الثالثة نحاه نهائياً عن الوقائع ، وبعد ذلك بقليل نجد رئيس التحرير نفسه يعتذر عن كتابته بعض أشياء لم يكن مطلعا عليها فوقع بها الخطأ ، وأن سعادته (محمد على) أمر بأنه لا يكتب شىء إلا بعد الاطلاع على حقيقته ليكون خالياً من السهو والخطأ ، ويشكر المحرر محمداً علياً لتجاوزه عن هذا الأمر ، بل واختياره المحرر عضواً فى المجلس العالى من غير استحقاق .

وهذه الإشارات جميعاً ، لا تدع مجالا للشك فى أن العطار لم يكن راضياً تماماً عن كل ما يدور حوله ، ولكنه كان كيساً اتعظ بما فعل محمد على بزعماء المصريين وعلمائهم المناوئين له ، فلم يلجأ (العطار) إلى أسلوب المجابهة المفتوحة .

والخلاصة أن الشيخ حسن العطار كان له موقف متكامل من مشكلات مجتمعه الثقافية والتعليمية والأدبية والسياسية .

وقد حاول أن يشخص هذا الواقع ويحدد جوانب الضعف فيه ، كما نادى بضرورة تغييره ورسم برنامج هذا التغيير ، ثم أسهم بدوره فى هذا التغيير . وأخيراً أنه عهد بأمانة هذا التغيير ومستقبله إلى تلاميذه ، الذين يعتبر رفاعة الطهطاوى نموذجهم الفذ الذى بلغت حركة العطار على يديه أوجها . وفى كل ما قاله الطهطاوى وما عمله تكاد روح العطار وشخصيته أن تلمس باليد .

محمد أبو الفتح

١٢١٧ — ١٢٩٤ هـ

هو الشيخ محمد أبو الفتح ، مفتى الأسكندرية . وقد ولد فى أوائل القرن الثالث عشر ، وطلب العلم بالأزهر على الشيخ الصاوى وغيره من شيوخ الوقت ، ثم انتقل لرشيد وتزوج بها .

وكان ملازما للشيخ محمد البنا الكبير ، فلما انتقل الشيخ إلى الأسكندرية انتقل المترجم معه وبقى بها وانتخب أمينا لفتواها ، وكان مفتيها إذ ذاك الشيخ الدويرى . ثم لما مات « الدويرى » تولى « البنا » الإفتاء ، فنقل المترجم لمنصب آخر ، ولما مات البنا تولى هو إفتاء الثغر وبقى به إلى أن مات .

وكان له شغف زائد بجمع الكتب واقتناء نفائسها ، حتى اجتمعت له خزانة نفيسة بيعت بعد موته بثمن بخس ، وكان رأى بناته وزوجته إبقاءها فلم يرض ولده ، فذهبت وتفرقت بعد ما عانى أبوه ما عانى فى شرائها واستنساخها .

وكان له ولع أيضا بجمع الساعات ، فجمع منها نوادر وطرفاً بيعت بعد موته أيضا ، ولم يترك شيئاً من الحطام سوى دار بالأسكندرية كان يسكنها فى أواخر أيامه .

وكانت وفاته يوم الاثنين سادس شهر صفر سنة ١٢٩٤ ﻫ ودفن يوم الثلاثاء ، ورثاه الشيخ عبد الرحمن الأبيارى قاضى الأسكندرية بقصيدة مطلعها :

أهذى سيوف الدهر جردها الدهر   أم السنة الشهباء جف لها الزهر

ومن مؤلفاته : كتاب « تبويب الأشباه والنظائر لابن نجيم » .

وشرع فى كتاب آخر فى الفقه لم يكمله .

وكانت له يد طولى فى علم الميقات .

وهو جد صاحبنا[1] العالم الفاضل الشيخ حسن منصور لأمه .

---

(١) كان أحد اصحاب المغفور له العلامة أحمد تيمور باشا — رحمهما الله وأحسن مثوبتهما .

محمد الأشمونى

١٢١٨ — ١٣٢١ هـ

هو الشيخ محمد الأشمونى ... ومعلوم أن أصله من أشمون جريس ، قرية من أعمال المنوفية ، وقد أخبر أنه من نسل أبى مدين التلمسانى . ولد سنة ١٢١٨ هـ وحضر إلى الأزهر فتلقى عن شيوخه : القويسنى ، والبولاقى ، والفضالى ، والأمير ، والباجورى ، والمرصفى وغيرهم . وكان أكثر حضوره على البولاقى والباجورى ، واشتهر بالذكاء وجودة التعليق ، وإتقان التحصيل ، إلى أن تأهل للتدريس ، فدرس الكتب المتداولة بالأزهر صغيرة وكبيرة . وقرأ المطول ، وجمع الجوامع ، وكتب التفسير ، والحديث ، والعقائد وغيرها مرات ، بعذوبة منطق ، وحسن إلقاء . ولم يؤلف كتباً ، وإنما كتب عنه بعض الطلبة تقييدات عن قراءته للعقائد النسفية ، وكذلك قيدوا عنه نحو ثلاثين كراسة حال قراءته لمختصر السعد ، وأخذ عنه كثيرون من كبار علماء الأزهر ، وعمر عمرا طويلا ، حتى ألحق الأجداد بالأحفاد ، وصار جميع من بالأزهر إما تلاميذه أو ممن فى طبقتهم .

وروى أن الشيخ محمد الإنبابى شيخ الأزهر تلقى عنه ، إلا أن الشيخ الإنبابى كان ينكر ذلك . ولم يعقب المترجم لأنه لم يتزوج قط ، وكان القائم بخدمته فى داره أخت له وجارية سوداء ، وعبد اسمه محبوب تبناه وزوجه

من الجارية ، وفتح له حانوتاً بالتربيعة وصيره من التجار . ثم وقف على الثلاثة داره التى كان يسكنها بالباطنية بالقرب من الأزهر .

ولم ينقطع عن التدريس والإفادة إلا قبل موته ببضع سنوات ، لضعف أصابه من الكبر وأبطل حركته . وكانت وفاته ليلة الجمعة رابع ذى القعدة سنة ١٣٢١ هـ ، عن مائة سنة وثلاث سنوات ، وأطلقوا منادين فى الطرق للإنباء بوفاته ، فساروا مثنى رافعين أصواتهم بالنعى ، واجتمع فى صبيحة الوفاة الألوف من صفوف الناس لتشييع جنازته ، قيل إنهم بلغوا نحو أربعين ألفاً ، وحضر أيضا الوزير المنبهى المراكشى وزير الحرب بالمغرب ، وكان ماراً بمصر للحج .

وتقدم شيخ الأزهر السيد على الببلاوى للصلاة عليه بالأزهر ، وتلوا قبيل الصلاة مرثية من نظم الشيخ إبراهيم راضى مطلعها :

لا قلب للإسلام غير حزين فاليوم فيه انهد ركن الدين

ثم خرجوا بالجنازة إلى القرافة ، ودفنوه فى مقبرة الشيخ الإنبابى . وكان رحمه الله أنيس المحضر ، كثير الدعابة والمزاح مع الطلبة ، شديد الورع ، متصفاً بالزهد والتقشف ، وقلة الاحتفال برفاهة العيش ، إذا سار فى الطريق توكأ على عصاه بيد ووضع الأخرى على كتف من يسايره ، ولا سيما بعد علو السن وضعف القوة . حضر مرة احتفالا مما يقام لكسر السد أو المولد النبوى ، ورموا بالسهام النارية كعادتهم ، فتجاوز سهم منها مداه ووقع على الحاضرين ، فأصاب المترجم فى إحدى عينيه وذهب بها ، فرتبت له السلطات راتباً شهرياً علاوة على راتب الأزهر . رحمه الله تعالى .

ابراهيم مرزوق

١٢٢١ — ١٢٨٣ هـ

تلقى إبراهيم بك مرزوق الشاعر العلم بمدرسة الألسن ، وتخرج على ناظرها رفاعه بك رافع الشهير، فقرأ بهذه المدرسة النحو والصرف وباقى علومها وبرع فى الفرنسية . وكان لرفاعة عناية خاصة فى تلقين تلاميذه العربية والعلوم الأدبية ، وتدريبهم على نظم الشعر ، فكان للمترجم حظ من هذه الصناعة ، فنظم الشعر الجيد من المقطعات والقصائد ، اعتنى بجمعها بعده محمد سعيد بك ابن جعفر مظهر باشا سنة ١٢٨٧هـ فى ديوان سماه « الدر البهى المنسوق بديوان إبراهيم بك مرزوق » وطبع بمصر .

ولما أتم المترجم علومه بالمدرسة استخدم فى ديوان كان يقال له « ديوان الهرجلات » وهو خاص ببيع الخيل والماشية التابعة للحكومة . ثم نقل منه ناظراً للقلم الإفرنكى بالضبطية ، وفصل منه مدة عبده باشا ضابط مصر . ثم عاد إليه بعد نحو ثلاث سنوات ، وكان مدة توليه لهذا القلم كثير المعاكسة للإفرنج ، إذا وقع أحدهم فى سجن الضبطية أو كانت له دعوى بها ، قلما كان يسلم من أذاته . حتى ضج منه وكلاء الدول ، وأكثروا من الشكوى ، فلم يكن يثبت عليه شىء عند التحقيق ، والسبب فى ذلك أنه كان يعتمد على إخوانه

ومرؤوسيه بالضبطية على إيصال الأذى إليهم سراً نكاية بهم ، لطغيانهم على الرعية وتدرعهم بدروع الحمايات .

وفى مدة وكالة إسماعيل الخديو نقل المترجم معاوناً بمجلس الأحكام ، ثم لما تولى هذا الخديو على مصر أرسله ناظراً للقلم الإفرنكى بالخرطوم قاعدة بلاد السودان . فبقى إلى أن توفى بها سنة ١٢٨٣ هـ .

وكان مربوع القامة ، أبيض اللون ، قد وخطه الشيب . ومات بعد ما تجاوز الستين . رحمه الله .

محمد عياد الطنطاوى

١٢٢٧ هـ — ١٢٨٠ هـ

١٨١٠ م — ١٨٦٢ م

وقفت له على ترجمة بخط الأديب الأستاذ عبد المعطى السعد ، قال :
هو الشيخ محمد بن سعد ، الملقب بعياد الطنطاوى ، الشافعى ، أحد أفراد الطبقة الأولى الآخذة عن شيخ الإسلام الشيخ إبراهيم الباجورى شيخ الجامع الأزهر المتوفى سنة ١٢٧٦ هـ .

كان رحمه الله من أعيان علماء القرن الثالث عشر ، راسخ القدم فى العلوم العقلية والنقلية ، آخذاً بحظ وافر من الأدب. وله كثير من الشعر الحسن والنثر المستحسن ، وكان المشتغلون بالأدب من علماء الأزهر فى عهده قليلين يعدون على أصابع اليد ، كشيخ الإسلام الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ خليل الرجبي .

وقد ولد المترجم فى طنطا سنة ١٨١٠ م وتعلم فى الجامع الأحمدى بها ، ثم أتم تعليمه فى الأزهر . وله رحمه الله مؤلفات كثيرة تنم على غزارة مادة ودقة نظر ، منها : فى العقائد حاشية على الشرح المسمى « بالتحفة السنية فى العقائد السنية » للعلامة الكبير برهان الدين أبى المعالى إبراهيم السقا على منظومة السيد محمد بليحه ، يقول فى آخرها :

(وحيث طعمت من بليحة ، وشربت من منهل السقا ، فتفكه بها لأنس نفسك علك أن ترق) .

ومنها حاشية على رسالة شيخه العلامة الشيخ إبراهيم الباجورى . يقول فيها مادحاً ومقرظاً ، كما وجدته مكتوباً بخطه تحت طرتها :

إن علم الكلام أفضل علم فيه وصف الإله والرسل يسرد
فإلى هذه الرسالة يمم فهى حازت لما عليك تأكد

ومنها « شرح منظومة الشيخ السلمونى » التزم السجع فى جميع جمله ، يقع فى نحو كراسة . و « حاشية على شرح الشيخ خالد الأزهرى » على متنه المسمى « بالأزهرية » فى علم النحو ، ضمنها تحقيقات جمة . و « حاشية على متن الزنجانى فى الصرف المشهور بمتن العزى » قال فى أولها موريا بالمتن المذكور :

الصرف زين أهله وهو لهم كالكنز
قالوا لما تقرؤه قلت لأجل (العز)

ومنها « منظومة فى البيان نظم فيها متن السمرقندية » وشرح على المنظومة المذكورة ، فى كراستين لطيفتين .

ومنها حاشية جليلة على كتاب « الكافى فى علمى العروض والقوافى » .

وقدر له رحمه الله الذهاب إلى روسيا ، فذهب إليها ، حوالى سنة ١٨٤٠م وعمل مدرساً للغة العربية بمعهد اللغات الشرقية فى بطرسبورج[١] . وظل يعمل

(١) مدينة لينجراد الآن .

هنالك نحو ربع قرن ، إلى أن انتقل إلى رحمة الله سنة ١٨٦٢ م ، بعد أن تخرج على يديه عدد كبير من المستشرقين .

وكانت بينه وبين رفاعه الطهطاوى مراسلات أدبيـة ، وكلاهما من خاصة تلاميذ الشيخ حسن العطار . وقال فى إحدى رسائله إليه :

« أنا مشغول بكيفية معيشة الأوربيين ، وانبساطهم ، وحسن إدارتهم . خصوصاً ريفهم وبيوتهم المحدقة بالبساتين والأنهار ، إلى غير ذلك مما شاهدته قبل بباريز ، إذ بطرسبورج لا تنقص عنها ، بل تفضلها فى أشـياء كاتساع الطرق . أما من جهـة البرد فلم يضرنى جداً ، وإنما ألزمنى ربط منديل فى العنق ، ولبس فروة إذا خرجت ، أما فى البيت فالمداخن المثبتة معدة للإدفاء » .

ومن أهم مؤلفاته كتاب سماه « أحسن النخب ، فى معرفة لسان العرب » وقد ضمنه جمـلا وألفاظاً ومكاتبات وقصصاً وأغانى عامية ، مع ترجمتها إلى الفرنسية . وله مخطوطات عدة موجودة فى مكتبة كلية بطرسبورج .

وقد اصطحب معه إلى روسيا زوجته وابنه ، وبقيا بعده فيها إلى أن توفيا ودفنا مثله بمدافن المسلمين فى بطرسبورج .

ولم تؤثر إقامته الطويلة فى روسيا فى شىء من دينه أو عقيدته ، كما يؤخذ من قوله فى قطعة شعرية أرسلها إلى أحد أصدقائه بمصر :

أنا بين قوم لا أدين بدينهم   أبداً ، ولا يتدينون بدينى

* * *

وقد وقفت على ترجمة أخرى للشيخ محمد الطنطاوى ، فى كتاب تلميذه من المستشرق الروسى أغناطيوس كراتشوفسكى عضو أكاديمية العلوم الروسية ، كتبه فى لينغراد فى ٣٠ تشرين الثانى (أكتوبر) سنة ١٩٢٤ م وهذا نص الكتاب :

« جناب العالم العلامة الفاضل والأستاذ المدقق الكامل[١] .

قد تسلمت فى هذه الأيام الجزء التاسع من مجلة المجمع العلمى العربى فى دمشق ، ورأيت فيه مقالة عن الشيخ الطنطاوى ، جاد بها قلمكم السيال وعلمكم الواسع ، وسررت بها جد السرور لما نشرتم من ذكر هذا الرجل الفاضل الذى خدم الأدب العربى والروسى خدمة تذكر وتشكر . قد طال ما أعلل نفسى بكتابة ترجمة الشيخ ، وقد تراكمت لدىّ المواد ، ولكن لم تساعدنى الظروف حتى الآن بجمعها وترتيبها . أما المستقبل فآت . ولذلك رأيت أن أكتب إليكم ببعض الملاحظات والاستدراكات على مقالتكم اللطيفة ، وأقول :

من أهم المصادر فى هذا الموضوع تاريخ الحياة للشيخ ، المكتوب بقلمه ، وإن لم يكتب منه إلا قطعة صغيرة ، وهى منشورة بأصلها العربى والترجمة الألمانية للعلامة Y. G. Ksscgarten فى مجلة اسمها :

Testochrisftder Dentocben Morginla' rdcsehen Yesselle choft I. V. 482. 282.

---

(١) يقصد المغفور له العلامة المحقق أحمد تيمور باشا رحمه الله .

« والمصدر الثانى لتاريخه لا يقل أهمية عن الأول ، وهو مخطوطاته العديدة الموجودة الآن فى مكتب الكلية البتروغرادية . وهى لا تقل عن مائة وخمسين نسخة يوجد بينها كثير من تأليفات الشيخ كتبت أغلبها بخط يده . ومن مؤلفاته المذكورة فى مقالتكم (ص ٩ ـ ٣٨٨) يوجد فى الكلية « حاشية على الأزهرية » كتبت سنة ١٢٥٣ هـ ، وهى بخط يده (عدد ٨٢٧) . و « نظم التعريف للزنجانى » كتب سنة ١٢٥٥ هـ حسب النسخة الأصلية المؤرخة سنة ١٢٩٥ هـ (عدد ٧٢٦) . وعدد التأليفات غير المذكورة فى مقالتكم ليس بقليل ، ككتاب « منتهى الآراب ، فى الجبر والميراث والحساب » كتب سنة ١٢٩٥ بيده (عدد ٨٢٠) . وكتاب « الحكايات المصرية العامية » بيده (عدد ٧٤٥) . ومسودات لتاريخ العرب ، وترجمة الباب الأول من « كلستان السعدى » بيده (عدد ٨٣٨) وغيرها . وكثير من المخطوطات مع الحواشى والشروح للشيخ ، يذكر فيها وقت قراءته لها أو نسخه . وفى هذا من الفوائد كثير .

والمصدر الثالث لتاريخ حياة الشيخ مشتت ومبعثر بين أيدى الناس والمكاتب ، أعنى مكاتبته مع أصدقائه وتلاميذه . ولم يصل إلى يدى منه غير شىء قليل لا يطفىء غليلا .

وكان من تلاميذه المشهورين : Y.A Mallin الفنلاندى أصلا الذى ساح فى جزيرة العرب وفى بلاد مصر وسورية سنين عديدة ، تحت اسم عبد المولى ؛

وقد طبعت بعض مكاتيب الشيخ إليه مترجمة إلى اللغة الأسوجية، ويوجد غيرها في مكتبة الكلية في عاصمة فنلندا المسماة : « Halsingfors » وقد أحرزت على النسختين منها .

« وما ذكره الأستاذ Hnart من تاريخ موته (ص ٣٩٠) من مقالتكم ، فلا صحة له ، وهو مأخوذ على علاته من كتاب تاريخ الآداب العربية للأستاذ « Brockelmann » الشهير ، وأقرب منه إلى الصواب ما رواه أمين فكرى — مسنداً إلى الأستاذ غوتوالد — فإن الشيخ الطنطاوى توفى إلى رحمة ربه سنة ١٨٦١ م في ٢٩ أكتوبر منها . كذلك لا صحة لما ذكرته مجلة رعمسيس (ص ٣٩١) وهو مأخوذ حرفياً من كتاب الأب لويس شيخو عن تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر (٣ : ٥٩) لأن الشيخ دعى للتدريس في الكلية سنة ١٨٤٠ م وليس سنة ١٨٥٨ م . وكان هو المعلم الأول . وكان نفروتسكى معاوناً له وليس العكس . أما سفره إلى روسية فكان بدعوة من نظارة الخارجية لتدريس العربية في مدرسة الألسن الشرقية التابعة للنظارة المذكورة . أما وقت سفره فليس ببعيد مما استنبطتموه في مقالتكم (ص٣٩١) لأنه دعى إلى الروسية سنة ١٨٤٠ م، وقدم إليها على ما يظهر في هذه السنة . ومما يؤيد ذلك نسخة « شرح سقط الزند » الموجودة بين مخطوطاته (عدد ٨٣٧) . فإنه يذكر في ختامها أنه نسخها سنة ١٢٥٦ وهو في المحجر الصحى بالقسطنطينية .

وكذلك أصبتم فى تعيين وظيفـــة الخواجة بكتى (ص ٣٩٠) فإنه كان ترجماناً : (Agent consulaire) للقنصلية الروسية بالقاهرة .

هذا ما سنح لى تحريره فى هذه الفرصـة ، والمرجو من جنابكم أن تغضوا الأنظار عن هفواتى ، وتقبلوا عذرى على تقصيرى ، فإن العذر عند كرام الناس مقبول) .

عَلِى اللّيثى

١٢٣٦ هـ – ١٣١٣ هـ

كان الشيخ على الليثى – فى ابتداء أمره – مقيما بمسجد الإمام الليثى ، وكان ينزل إلى الأزهر لطلب العلم ويعود للمبيت هناك . وكان كريما على فقره . ثم ورد على مصر الشيخ السنوسىّ الكبير قاصداً الحجّ ، فاتصل به وأخذ عنه الطريق وحجّ معه ، ولما عاد إلى مصر لم يفارقه حتى سافر معه إلى « جغبوب » وأقام هناك مدّة لم يفتأ فيها يطلب العلم ويستفيد . ثم فارقه وعاد إلى مصر ، واتصل بأمّ عباس الأول فجعلته شيخا على مجلس «دلائل الخيرات» عندها . ثم اتصل بالأمير السابق أحمد رفعت ابن إبراهيم باشا الكبير فاعتقد فيه وأطلعه على خزانة كتب عنده فاطلع على ما فيها واستفاد منها . وكان الاعتقاد فيه بسبب سفره إلى جهة المغرب وأخذه علم الزايرجة والأوفاق عن علمائه المشهورين ، وتابعه فى ذلك كثيرون ، لاعتقادهم فيه معرفته هذا العلم .

ولما تولى سعيد حكم مصر أمر عبده باشا ضابط القاهرة بجمع من يأكلون أموال الناس بالباطل بهذه الخزعبلات وما إليها ونفيهم إلى السودان . فسيق معهم الشيخ على الليثى لما علق به من الاتهام بذلك ، فبقى فى السودان إلى أن عفى عنه ، وعاد إلى مصر .

ولما تولى الخديو إسماعيل تلألأ نجم الشيخ على الليثى وبدا سعده

فاتصل به وقربه هو والشيخ عليا أبا النصر وجعلهما نديمين له كنديمى جذيمة وصار لا يصبر عنهما فى مجالس أنسه ، فكانا إذا حضر تلك المجالس أزاحا الكلفة وتبسطا معه فى القول والتنديز ، فكانت لهما فى ذلك من النوادر ما يملأ الأسفار .

وقد بلغ من شغفه بهما أن خصص لهما قاعة بديوانه يجلسان بها كأنهما من المستخدمين فيه ، وحدث أن أمر بكتابة ألواح على باب كل قاعة من الديوان ليعرف من بها كقلم التشريفات وقلم التحريرات ونحوهما ، وسألهما العامل ، ماذا يكتبه على قاعتهما ، فقال له الشيخ الليثى : اكتب عليها (إنما نطعمكم لوجه الله) .

وبسبب تقرب المترجم من الخديو قصده الناس فى الشفاعات عند الكبراء ، ونفع الله به خلقا كثيرين ـ جزاه الله عن مسعاه خير الجزاء .

ولما عزل الخديو إسماعيل ـ وتولى بعده ولده محمد توفيق ، شغف أيضا بالمترجم كوالده وقربه ، وأحله محله من القبول . حتى قامت الثورة العرابية وسافر الخديو إلى الإسكندرية ، فانضم الشيخ على الليثى للعرابيين اضطرارا أو اختياراً . فلما انتهت الثورة العرابية وعاد الخديو للقاهرة لم يؤاخذه وصفح عنه . وقابله المترجم بقصيدة مطلعها :

كل حال لضده يتحول فالزم الصبر إذ عليه المعول

تبرأ فيها من الفتنة ، وأبان عذره فى الانضمام إلى العرابيين ، وزاد بعد ذلك الخديو فى تقريبه وإكرامه . ولا سيما بعد أن بنى قصره بحلوان . وصار يسافر إليه كل أسبوعين فى سفينة بخارية ، فإنه كثيراً ما كان يسافر بالسفينة نفسها لزيارة الشيخ الليثى فى ضيعته بشرق أطفيح حيث يتناول الطعام عنده ويقيم يوما فى ضيافته ، وهو شىء لا يفعله مع غيره .

ولهذا اعتنى المترجم بتلك الضيعة فغرس فيها البساتين والكروم ، وبنى قصراً صغيراً لنزول الخديو وحرمه وحاشيته . ولم يزل هذا شأنه معه حتى مات الخديو ، وتولى بعده ولده عباس فلم يكن للشيخ حظ معه كحظه مع أبيه وجده ، ولذلك جعل أكثر إقامته بتلك الضيعة يشتغل باستغلالها ومطالعة كتبه ، فإذا حضر الى القاهرة نزل بداره التى بجهة باب اللوق فيقيم بها أياماً ثم يعود ، ولم يزل كذلك حتى اعتلت صحته وطال مرضه أشهراً حتى توفاه الله الى رحمته يوم السبت ١٠ من شعبان سنة ١٣١٣ هـ عن سن عالية ، وقد شبع من الأيام وشبعت منه ، ونال من العز والجاه إلى مماته ما لم ينله غيره .

وكان رحمه الله آية فى حسن المجالسة ، محبباً إلى القلوب ، أديباً شاعراً ، حاضر الجواب ، فكه الحديث ، إذا عرفه إنسان تعلق به ، وكره مفارقته — مع أنه كان دميم الصورة أطلس ، ليس فى وجهه إلا شارب خفيف وشعرات على ذقنه .

ولما حضر لمصر السلطان برغش سلطان زنجبار ندبه الخديو إسماعيل لمرافقته ومجالسته ، فلازمه مدة مقامه بالقاهرة ، وأعجب السلطان به إعجاباً شديداً . ثم لما عاد لبلاده صار يتعهده بالرسائل والهدايا من العنبر ونحوه كل سنة فيهدى هو أخصاءه وأصحابه ، وكذلك ما كان ينتج ببساتينه من غرائب الفاكهة وأصناف الأعناب النادرة كان موقوفاً جميعه على الهدايا لا يبيع منه شيئاً .

وكان أدباء مصر وفضلاؤها — يقصدونه فى تلك الضيعة ، فينزلهم على الرحب والسعة ، ويقيمون عنده الأيام والأشهر ، وهو مقبل عليهم بكرم خلقه ولطائفه ومحاضراته المستحسنة ، وقد يقيم الإنسان عنده شهراً أو أكثر وهو يؤنسه كل يوم بحديث جديد لا يعيده .

واقتنى خزانة كتب نفيسة اجتمعت له بالإهداء والشراء والاستنساخ ، وكان يبذل الأثمان العالية فى الكتب النادرة ، فجلبت له من الآفاق وعرفه تجار الكتب والوراقون فخصوه بكل نفيس منها . ثم لما مات اقتسمها ورثته .

ومما وقفنا عليه للشيخ الليثى من الشعر قصيدة رثاء فى محمد سلطان باشا ـ من أعيان الصعيد الذين تقلدوا مناصب فى الدولة آخرها رياسة مجلس شورى القوانين فى عهد الخديو محمد توفيق ـ وكان قد سافر إلى أوربة لمعالجته من علة لم تفد فيها معالجة أطباء مصر ووافاه أجله فى مدينة غراتس ،

بالنمسة، ونقلت جثته إلى القطر المصرى فى أوائل شهر ذى القعدة سنة ١٣٠١ هـ.
وكان مطلع قصيدته :

لا تأمن الدهر واحذره أخا الفطن   فعنصر الدهر مطبوع على الفتن
ياسابحا فى عباب اللهو من عَمَهِ   دع الأمانى واحذر عادى الزمن
دهر تنكر فى حاليه لاثقة   به لداريه فى سرّ وفى علن
بينا نرى المرء فى أُزر الصفا جزلاً   إذ ألبسته المنايا حلة الكفن
يمسى وأزهار روض العيش يانعة   حيناً ويصبح منعياً على ظعن
ذى شيمة الدهر لم يسلم مسالمه   هيهات يرعى ذماماً غير مؤتمن
نرجو وفاه ولوكان الوفىّ لما   أودى بنفس أبى سلطان ذى المنن

ومنها والله أعلم بما يقول :

يالهف نفسى على واف له همم   ببعضها لوتحلى الدهر لم يخن

ومنها :

إنى لأعجب من ساع لغائلة   وكان يرجو شفاء الروح والبدنِ
لكن قضى الله فى إتمام نعمته   بأن يموت شهيداً نازح الوطن
من مثله قام بالأمر العظيم وقد   كان الزمان عبوس الوجه بالفطن

ومنها فى إقامة الخديو مأتمه :

وبعد أن مات إتماماً لنائلة   أحيا مآتمه جرياً على السنن
هذى العناية قد ودّ الحسود له   لوكان أودى ولاقى مثلها وفنى

قل للحسود انتهض واحلل مكانته   خلالك الجو فاقرع هامة القنن
يا شامتا بنعىّ المكرمات فعش   وخذ أمانا بما تهوى من الزمن
هذا وإلا فنح مثلى مساعدة   وانثر فرائد دمع غالى الثمن
ما كل من مات تبكيه الكرام ولا   كل البكاء بكاء الواله الحزن
هذى مساجده هذى مدارسه   هذى منازل أضياف على سنن
لا أكذب الله إنى بت من أسف   لولا يقينى بوشك القرب لم أكن
وقد كفانى رثا شجو يؤرخه   سلطان باشا شهيدا مات ياحزنى

٨٦ — ٤٤١ — ٣٢٠ — ٣٠٤ — ١٥٠

١٣٠١

حيث كانت وفاة سلطان باشا سنة ١٣٠١ هـ ومما يؤثر عن الشيخ الليثى أنه كان له إلمام تام بالرثاء التاريخى ـ على جارى عادة عصره . وفضلا عن أنه كان شاعراً أديبا فلم نقف له على ما دوّنه من الشعر . وأغلب الظن أنه لم يطبع منه ما كان مخطوطاً ضمن مكتبته التى كانت تزخر بنفائس المخطوطات مما جلب إليه إهداء وشراء ونسخا واستنساخاً ، وما بذله فى اقتنائها من المال الكثير حتى اقتسمها من بقى بعده من ورثته ، ولعلها بقيت محبوسة تحت أيديهم لم ينتفع بها أحد .

وبالجملة : فقل أن يوجد مثله ، أو يجتمع لإنسان ما اجتمع له من الورع والتقوى ، خصوصاً فى أواخر أيامه ، رحمه الله رحمة واسعة .

محمد الطنطاوى

١٢٤١ هـ — ١٣٠٦ هـ

وقفت له على ترجمة جمعها الأستاذ العالم السيد عيسى إسكندر المعلوف، قال :

هو الشيخ محمد ابن الشيخ مصطفى ابن الشيخ يوسف ابن الشيخ على الطنطاوى الأزهرى ، ولد فى طنطا سنة ١٢٤١ هـ ، ومات أبوه وعمره أربع سنوات ، وماتت أمه وعمره ست سنين ، وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين على الشيخ محمد الشبراويشى ، ثم دخل جامع السيد البدوى للطلب ، فقرأ على السيد محمد أبى النجا المشهور صاحب الحاشية ، والشيخ عبدالوهاب بركات ، والشيخ على حمزة . وانتفع بهم مدة ، وأجازوه بالإجازة العامة .

ثم سافر مع أخيه الأكبر الى بلاد الروم وبلاد الترك ثم دخل حلب وقرأ على الشيخ أحمد الترمانينى وأجازوه ، ثم رحل الى الشام سنة ١٢٥٥ هـ وقرأ على الشيخ سعيد الحلبى والشيخ عبدالرحمن الطيبى والشيخ عبدالرحمن الكزبرى، وأخذ طريقته النقشبندية على الشيخ محمد الخانى الخالدى ، فانتفع به حتى استخلفه عنه فيها (١) .

---

(١) ملخصة من كتاب «حلية البشر فى تاريخ القرن الثالث عشر» للمرحوم الشيخ عبد الرزاق البيطار علامة دمشق ـ الجزء الثالث ص ٢٨٩ بخط المؤلف .

وعاد إلى مصر سنة ١٢٦٠ هـ، ودخل الجامع الأزهر وانقطع للطلب بهمة وجد واجتهاد، فقرأ على الشيخ إبراهيم الباجورى، والشيخ إبراهيم السقا، والشيخ عليش المغربى، والشيخ مصطفى البلتانى [١]. والشيخ مصطفى المبلط، والشيخ محمد الخضرى، وأكثر قراءته عليه فى العلوم الغريبة كالميقات والفلك والجبر والمقابلة، إلى أن صار إماماً فى العلوم العقلية والنقلية، مع شدة ذكائه وحفظه.

ثم رجع إلى الشام واستوطن دمشق فى محلة الميدان سنة ١٢٦٥ هـ، وجلس فى حجرة جامع سيدنا صهيب الرومى، فأقبل عليه الطلبة، ولم يزل يقرىء الطالبين إلى سنة ١٢٧٨ هـ، ثم دعاه الأمير عبد القادر الجزائرى وعين له معاشاً (راتباً) واستأجر له داراً، وأرسل جميع أولاده للأخذ عنه، مع غيرهم من طلاب العلوم والفنون.

وكان الشيخ الطنطاوى يشتغل إلى ذلك بحساب جداول مما يتعلق بعلم الفلك والميقات والربع المقنطر والمجيب والأسطرلاب، وقد قرأت [٢] عليه جملة رسائل فيها، كما قرأت عليه دروسه فى جامع صهيب. كما كنت فى معيته سنة ١٢٩٠ هـ حينما وقع خلل فى بسيطة منارة جامع بنى أمية، المسماة «بمئذنة

---

(١) هكذا فى النسخة التى بخط المؤلف ولعله نسبة إلى (البلقاء) أو هى تحريف «القانى».

(١) القارىء هو الشيخ عبد الرزاق البيطار مؤلف الكتاب الملخصة منه هذه الترجمة.

العروس » ـ فحسب الشيخ سائر أعمالها ، وجعل لها جداول بعدة الأعمال ورسم غيرها ، ثم أزالها ووضع بسيطته فى مكانها .

« وبالجملة » كان فى كل علم عمدة ، ولكل مشكل عدة . رقيق القلب رحيمة ، سخى الكف كريمه . غير أن دهره قد عانده ، وعاكسه فى آخر أمره وما ساعده . وهذا من دأبه مع أهل الفضائل ، وذوى المآثر والشمائل . إلا أنه كان يقابل ذلك بالتسليم والرضا ، ويعلم أن ذلك مما جرى به القدر والقضا[1] .

ومن نظمه قصيدة فى مديح راشد باشا والى ولاية سورية لأمر اقتضى ذلك قال فيها :

أضحت دمشق ببهجة ومسرة | تزهو على كل البلاد بنضرة

إلى أن قال :

لاتعجبوا والى حماها راشدٌ | بل مرشد والرشد أعلى خلةِ
ومحمدىّ الخلق وهو محمدٌ | ولذاته كلّ القلوب أحبتِ
أحيا بها العدلَ الذى ياطالما | تاقت له كلّ النفوس وحنتِ
والأمن قد عمّ الأنامَ جميعهم | فتقلدوا منه بأوفى منةِ[2]

(١) هذه الفقرة مثال من سجع المؤلف فى تاريخه ، فانه التزمه فى أكثر الكتاب على عادة القدماء وبعض المتأخرين مثل « ابن معصوم » فى (السلافة) « والمحبى » فى « النفحة » « والثعالبى » فى (اليتيمة) ... الخ .
(٢) لم يورد له من الشعر غير هذه القصيدة ، وهى على أسلوب شعر العلماء والفقهاء كما ترى .

وله قصائد كثيرة ، وتقييدات شهيرة . لا يحسن استقصاؤها للخروج عن المطلوب من الاختصار . وكذلك لو أردت أن أذكر عفته ، وتفصيل تعيين الحكومة له مقادير من المعاش لم يقبلها ورعاً وزهداً ، لأدّى المقام بخروج عن المرام .

وفى سنة ١٣٠٥ هـ ، رسم بسيطة[1] فى ميدان دمشق فى جامع الدّقاق المعروف بكريم الدّين — وجعل حسابها على الأفق المرئىّ ، فجاءت أحسن من بسيطة جامع بنى أمية التى كان حسابها على الأفق الحقيقىّ ، وتمّ عملها ورسمها وحفرها ، وصنع مكان فى المنارة لوضعها فيه فى أول « برج الجدى » . فعاجله المرض قبل ذلك ، وتوفى غرة جمادى الأولى سنة ١٣٠٦ هـ ، ودفن فى تربة باب الصغير قرب مدفن سيدنا بلال رضى الله عنه من جهة الغرب .

وبعد موته بقليل وضعت البسيطة فى مكانها ، والأوقات تستفاد منها بغاية الضبط . جزاه الله خيراً ، وأعظم لهُ منةً وأجراً .

---

(١) آلة يعرف بها الوقت كالساعة والمزولة .

محمد العباسى المهدى

١٢٤٣ هـ — ١٣١٥ هـ

هو ابن الشيخ محمد أمين الحنفى ابن الشيخ محمد المهدى الكبير — الشافعى. كان جده المذكور من الأقباط فأسلم على يد الشيخ العلامة محمد الحفنى، وقرأ عليه وعلى أخيه الشيخ يوسف الحفنى وغيرهما حتى صار من كبار العلماء وترشح لرياسة الأزهر بعد الشيخ الشرقاوى ، ولكنها لم تتم له وتولاها الشنوانى . وقد أطال « الجبرتى » فى ترجمته . . . ثم نشأ ولده الشيخ محمد أمين عالماً حنفياً ، وتولى الفتوى بمصر زمنا ، وتوفى سنة ١٢٤٧ هـ .

وولد الشيخ محمد العباسىّ المهدى بالاسكندرية سنة ١٢٤٣ هـ ، فقرأ بها بعض القرآن ، ثم حضر إلى القاهرة سنة ١٢٥٥ هـ ، فأتم حفظه ، واشتغل بالعلم سنة ١٢٥٦ هـ فقرأ على الشيخ إبراهيم السقاء — الشافعى ، والشيخ خليل الرشيدى — الحنفى ، والشيخ البلتانى ، وغيرهم ثم صدر أمر إبراهيم باشا ابن محمد على بتوليته إفتاء الديار المصرية فى منتصف شهر ذى القعدة سنة ١٢٦٤ ، هـ وهو فى نحو الحادية والعشرين من سنيه ، ولم يتأهل بعد لمثل هذا المنصب الكبير .

ويقال إن السبب فى ذلك عارف بك الذى تولى القضاء بمصر ، وكانت له صلة بالشيخ محمد أمين المهدى ، فلما ذهب إبراهيم باشا إلى القسطنطينية

ليتسلم من السلطان مرسوم ولايته على مصر قابله عارف بك — وكان إذ ذاك شيخا للإسلام — وأوصاه خيراً بذرية الشيخ المهدى وأن يولى منهم من يصلح لمنصب أبيه .

فلما عاد إبراهيم لمصر ، بعث فى طلب الشيخ محمد العباسى المهدى ، فصادفوه فى درس الشيخ السقاء يحضر مقدمة مختصر السعد ، ولما قابله أثنى عليه لاشتغاله بالعلم ثم أنبأه بأنه ولاه منصب الفتوى بمصر ، وعزل عنه الشيخ أحمد التميمى الخليلى ، وخلع عليه خلعة هذا المنصب ، ثم عقد له مجلساً بالقلعة حضره حسن باشا المنسترلى ، والشيخ مصطفى العروسى وغيرهما ، فأقروا على إقامة أمين للفتوى يقوم بشئونها حتى يتأهل صاحبها لها ويباشرها بنفسه ، واختاروا له الشيخ خليلا الرشيدى بدل الشيخ على البقلى أمين فتوى التميمى . ونزل المترجم من القلعة بموكب كبير من العلماء والأمراء ، ووفد الناس على داره للتهنئة ، ومدحه الشعراء ، فمن ذلك قول الشيخ محمد شهاب :

عز ياعزة الحمى أن تقاسى ... بمهاة الصريم فيما تقاسى

ومنها قوله :

تبّ مفتى الهوى وتبت يده ... ضل شرعىّ نهجه والسياسى
فدعيه ياعز عز اصطبارى ... إن فتواه فتنة للناس
ولئن قلت أىّ فتوى البرايا ... حكمت بالنصوص دون التباس
وارتضاها الزمان قل لى وأرخ ... قلت : فتوى مَهديه العباسى

وهى قصيدة طويلة ألحق بها هذه الأبيات الثلاثة مشيرا فيها إلى « التميمى » وإلى « الرشيدى » أمين الفتوى الجديد :

قلت لما أن تمّ بدر التميمى	واعتراه نقص الخسوف الشديد
رجع الدرّ بالفتاوى إلى ما	كان فيه من المكان المشيد
فلنعم الرشيد يا ابن أمين	ولنعم الأمين يا ابن الرشيدى

وروى الفاضل محمد أفندى التميمى — فى الترجمة التى جمعها لأبيه الشيخ أحمد التميمى — أن سبب عزله عن الإفتاء أحقاد قديمة كانت فى صدر إبراهيم باشا منه ، بسبب معارضته له فى أمور تخالف الشرع كان يريدها ويعارضه الشيخ فيها ، فلا يجد بداً من الإذعان بسبب إقبال أبيه (محمد على) على الشيخ . فلما آلت ولاية مصر إلى إبراهيم كان أكبر همه عزله عن الإفتاء .

ثم أكب المترجم على الاشتغال بالعلم ، خصوصاً الفقه ، حتى نال منه حظاً وافراً ، وجلس للتدريس بالأزهر لإقراء « الدر المختار » فقرأ منه إلى كتاب الطلاق وأكمل قراءته فى داره . وقرأ « الأشباه والنظائر » فى داره أيضاً . وباشر أمور الفتوى بعفة وأمانة وتدقيق وتحقيق ، واشتهر بين الناس بالحزم والعزم وعدم ممالأة الحكام ، وحسبك وقوفه فى وجه عباس الأول وتعريضه نفسه للتهلكة صيانة لما استودع من أمانة العلم .

وسبب ذلك أن هذا الوالى أراد أن يمتلك جميع ما بيد ذرية جده

محمد على ، مدعياً أنه ورد مصر لا يمتلك شيئاً ، فكل ما خلفه لذريته إنما هو من مال الأمة يجب رده إليها ، ووضعه بيد أمينها المتولى شئونها ، واستفتى المترجم فلم يوافقه وأصر على الامتناع ، ولم يحفل بوعيده وتهديده ، حتى طلبه فجأة إلى بنها فسافر إليها وهو موقن بالهلاك ، وكان معه عند طلبه الشيخ أبو العلا الخلفاوى فسافر معه لمؤانسته ومواساته ، فلما وصلا إلى قصر بنها روجع المترجم فى الفتوى ، فأصر على قوله الأول ، فأمر بهما فأنزلا إلى سفينة بخارية سافرت بهما ليلا فى النيل لنفى المترجم إلى أبى قير ، واعتراه لشدة وجله زحير (١) كاد يودى به ، وهو مع ذلك مصر على قوله، والشيخ أبو العلا يهون عليه الأمر ويؤانسه بالكلام ، إلى أن صدر الأمر بإرجاع السفينة وأنزلا منها وأمرا بالسفر إلى القاهرة . وسلم الله . فكانت هذه الحادثة سبباً لعلو قدر المترجم فى النفوس ، وإعظام الولاة فمن دونهم لشأنه ، وتسبب منها أيضاً إقباله على الشيخ أبى العلا المذكور وسعيه له فى المناصب التى تولاها وعظم بها أمره بعد ذلك .

وفى سنة ١٢٨٧ هـ أراد الخديو إسماعيل عزل الشيخ مصطفى العروسى شيخ الأزهر ، ولكنه خشى الفتنة — لأن العزل لم يقع من قبل لأحد من مشايخ الأزهر ، فأخذ فى جس نبض العلماء وسبر غورهم فى ذلك ، فهون عليه الشيخ حسن العدوى الأمر ، وأوضح له أنه وكيل الخليفة ،

---

(١) استطلاق البطن بشدة .

والوكيل له ما للأصيل . فسر الخديو ، وبادر إلى عزل الشيخ العروسي فى أواخر السنة المذكورة . وكان العدوى يطمع فيها ، وما قال ما قال إلا توطئة لنفسه ، فأخلف الله ظنه ، وصدر أمر الخديو فى منتصف شوال بتوليته الشيخ محمد العباسى المهدى ، والجمع له بين منصب الإفتاء ومنصب شيخ الأزهر . ودعاه الخديو لمقابلته وخلع عليه وأنزله من عنده بالموكب المعتاد . فباشر شئون منصبه بحزم وعزم وتؤدة وتعقل . وكان أول ما صدر منه سعيه لإعادة ما كان لأهل الأزهر من المرتبات الشهرية والسنوية ، ثم استصدر أمراً من الخديو بوضع قانون للتدريس فأجابه إلى ذلك ، ووضع قانون الامتحان ، وكانوا قبل ذلك لا يمتحنون ، بل كان من تأهل للتدريس تصدر له — فى أول درس له يحضره — شيوخه وغيرهم من كبار العلماء ، ويناقشونه ، فإن وجدوه أهلا أقروه وإلا أقاموه .

ولم يزل المترجم سائراً فى طريقه المحمود ملحوظاً بعين التبجيل من الحكام ، وبين الخاص والعام ، حتى ثارت الثورة العرابية المشهورة ، ورأى فيه العرابيون أنه ليس بالرجل الذى يوافقهم ويساعدهم فى مطالبهم ، فكان من جملة ما طلبه عرابى باشا من الخديو لما زحف الجيش على قصر عابدين ، عزل المترجم من الأزهر ، فعزل عنه فى المحرم سنة ١٢٩٩ هـ وتولى بدله الشيخ محمد الإنبابى ، وانفرد هو بالإفتاء . ثم اشتدت الثورة وجاهر العرابيون بطلب عزل الخديو ، وكتبوا قراراً بذلك وقع عليه العلماء والوجهاء ، وامتنع المترجم من التوقيع وقال لحامل القرار : « أنا لا أوقع بيدى ، فإذا كان فى الأمر

غصب فإن خاتمى معى ، خذوه ووقعوا أنتم بأيديكم كما تشاءون » فانحرف عنه العرابيون وبثوا عليه العيون، حتى احتجب فى داره التى على الخليج بالقرب من مدرسة الفخرى المشهورة بجامع البنات . وتحامى الناس زيارته ، وصار لايخرج منها إلا لصلاة الجمعة فى أقرب مسجد إليه .

ولما انتهت الثورة العرابية وعاد الخديو للقاهرة فى ١٢ ذى القعدة من تلك السنة ، ذهب الشيخ مع العلماء للسلام عليه وتهنئته ، فخصه الخديو من دونهم بمزيد من الترحيب والرعاية ، وكان بينهم الشيخ الإنبابى شيخ الأزهر، فلحظ ذلك ، وخشى أن يعزله الخديو ليعيد العباسى ، فاستقال بعد أيام ، وأصدر الخديو أمره يوم الأحد ١٨ ذى القعدة بإعادة المترجم إلى الأزهر ، علاوة على منصب الإفتاء بيده ، وفيما يلى نص ذلك الأمر ، الموجه من الخديو إلى رئيس النظار :

«إنه بناء على استعفاء حضرة الأستاذ الشيخ محمد الإنبابى من وظيفة مشيخة الجامع الأزهر ، ووثوقنا بفضائل وعالمية حضرة الأستاذ الشيخ محمد العباسى المهدى ، قد اقتضت إرادتنا توجيه هذه الوظيفة لعهدته كما كانت قبلا ، علاوة على وظيفة إفتاء السادة الحنفية المتحلى بها من السابق ، وصدر أمرنا للمومى إليه بذلك فى تاريخه . ولزم إصدار هذا لدولتكم إشعاراً بما ذكر» فى ٢ — أكتوبر سنة ١٨٨٢ م الموافق ١٨ ذى القعدة سنة ١٢٩٩ هـ .

وكان بعض علماء الأزهر سعوا لتنصيب الشيخ عبد الهادى نجا الابيارى ،

وكتبوا كتابة بذلك، وأخذوا يوقعون عليها ويطوفون بها على العلماء، ففاجأهم الأمر بإعادة المترجم، وذهب سعيهم وتعبهم أدراج الرياح .

ثم استمر المترجم جامعاً للمنصبين قائماً بشئونهما أتم قيام، حتى كانت سنة ١٣٠٤ هـ وفيها بلغ الخديو أن جماعة من الأعيان والتجار مثل محمد باشا السيوفى وأخيه أحمد باشا يجتمعون للسمر بدار المترجم فى أغلب الليالى، فيتكلمون فى الأمور السياسية، ويظهرون أسفهم من وجود الإنجليز بمصر وموافقة الحكومة لهم فيما يحاولون، وغير ذلك من هذه الشئون . فحنق الخديو وأرسل من يحضرون إليه محمد باشا السيوفى فلم يجدوه بل وجدوا أخاه أحمد باشا، ومضى هذا معهم إلى القصر، فوبخه الخديو توبيخاً شديداً، وقال له : « يخيل لى أنكم تريدون إعادة الثورة العرابية » فتبرأ من ذلك، وحلف أن اجتماعهم لم يكن إلا بقصد السمر والائتناس .

ثم قابل الخديو المترجم فى إحدى المقابلات الاعتيادية فلم يهش، له كعادته، بل قال له وقت الانصراف : « ياحضرة الأستاذ، الأجدر بالإنسان أن يشتغل بأمور نفسه ولا يتدخل فيما لايعنيه ويجمع الجمعيات بداره » . فما كان جواب المترجم إلا أن قال له : « إننى ضعفت عن حمل أثقال الأزهر، وأرجو أن تعفونى منه » . ولم يكن الخديو يتوقع منه هذا الرد، فغضب وقال مستفهما : « ومن الإفتاء أيضاً ؟ »

فقال له : « نعم ومن الإفتاء أيضاً » ... ثم انصرف .

ولم يكن المترجم ممن يغرب عنهم أن مثل هذا السبب لا يدعو إلى الاستقالة،

خصوصاً أن الخديو صرفه بالحسنى مع من اتهم معه ، ولكن كان هناك سبب أقوى أغضب رئيس النظار نوبار باشا الأرمنى ، وذلك لحادثة رفعت عنها دعوى أمام المحاكم الأهلية، واقتضى الأمر طلب كشف وجه إحدى المخدرات للتحقق منها ، فامتنعت عن الإسفار محتجة بعدم جوازه فى الشريعة ، واستفتى المترجم فأفتى بعدم الجواز ، فشكاه رئيس النظار إلى الخديو ، ووصفه له بأنه أصبح عقبة أمام القضاة معارضاً لأحكام القضاء ، ثم طلب عزله فيما يقال — أو يقيله الخديو من الوزارة .

فلما قال الخديو للمترجم ما قال ، تيقن أن المراد عزله فاستقال ، وأمر الخديو يوم الثلاثاء ٣ ربيع الثانى من السنة المذكورة بإعادة الشيخ محمد الإنبابى للأزهر . وإقامة الشيخ محمد البناء للإفتاء . وبقى المترجم بداره التى على الخليج ، واشتغل بإصلاح قسم منها تشعث ، فأعاده إلى رونقه الأول ، وصبغ حيطانه بالأصباغ ، وهو القسم المطل على الخليج ، وصار يمضى وقته بالنظر فى شئونه الخاصة ، والاشتغال بالعلم ، إلى أن أعيد إلى الإفتاء .

وأصيب فى أواخر أيامه بفالج وهو يتوضأ لصلاة الجمعة أبطل حركته ، ثم تعافى قليلا وصار يخرج فى عجلته[١] للتنزه ، وعليه عباءة من الصوف . وأشير عليه بالإقامة بحلوان لجفافها فانتقل إليها ، وأقام بها برهة لم يستفد فيها شيئا ، فعاد لداره بالقاهرة . ووافته منيته فى الساعة الخامسة من ليلة الأربعاء ١٣ رجب سنة ١٣١٥ هـ عن اثنتين وسبعين سنة ، بعد أن لازمه المرض نحو

---

(١) عربة .

أربع سنوات ، فأذن له على المآذن، وحزن الناس لموته حزناً شديداً ،وتكاثرت الجموع على داره لتشييع جنازته ، فقيل إن عدد المشيعين بلغ نحو أربعين ألفا ، والمصلين عليه خمسة آلاف .

ودفن بقرافة المجاورين فى زاوية الأستاذ الحفنى جنب أبيه وجده ، ورثاه كثير من الشعراء جمعت مراثيهم فى رسالة ألفها الشيخ عثمان الموصلى نزيل القاهرة ، وسماها « المراثى الموصلية فى العلماء المصرية » لأنه أضاف إليها مارثى به الشيخ عبد الرحمن الرافعى مفتى الأسكندرية ، والشيخ سليم القلماوى شيخ مسجد القلعة ، والشيخ محمد المغربى ، وكلهم توفوا فى هذه السنة أيضاً .

وكان المترجم رحمه الله رَبعة ، أقرب إلى الطول ، مليح الوجه ، منور الشيبة ، معتدل القامة ، ذا هيبة ووقار . مات عن ثروة طائلة ، وولدين هما : الشيخ عبد الخالق المهدى ، والشيخ أمين ، ماتا بعده واحداً تلو آخر . ولم يؤلف رحمه الله سوى مجموع فتاواه الذى سماه (الفتاوى المهدية فى الوقائع المصرية) طبع بمصر سنة ١٣٠١ هـ فى ثمانية أجزاء كبار . وعاش فى عزة وتبجيل مدة حياته ، وتولى الإفتاء أربعين سنة من سنة ١٢٦٤ هـ إلى سنة ١٣٠٤ هـ لم يعزل فيها ، فلم تحفظ عليه بادرة خطأ أو مخالفة للشرع ، وسبب ذلك أنه تولاه وهو صغير ، والعيون شاخصة إليه ، فكان لا يفتى فتوى إلا بعد المراجعة والتدقيق والتعب الكثير ، فحصلت له بذلك ملكة فيه ، حتى صار معدوم النظير لا يجاريه مجار فى هذا المضمار ، وأضيف إلى ما كان عليه من

التقوى والتشدد فى أمر الدين ، حتى كانت مواقفه أمام الولاة لاتزيده إلا رفعة فى عيونهم ، لعلمهم أنه لا يريد إلا نصرة الحق ، فأحبوه وأغدقوا عليه بالإنعام .

ومن مواقفه غير ماذكرناه أن الخديو إسماعيل أراد مرة أن يستولى على الأوقاف الأهلية ، ويعوض عنها أهلها ما يقوم بمعاشهم ، فاستفتاه فى ذلك ، فتوقف ، وأفتاه بعضهم بالجواز ، فتكدر منه ، وجمع بينه وبين مخالفيه ، فناظرهم وفاز عليهم بعد ما ألفوا رسائل فى الحادثة ، وأكثروا من الجلبة .

ولم يقتصر الولاة على مشاورته فى الأمور الدينية المختصة بمنصبه ، بل كانوا يستشيرونه فى غيرها من معضلات الأمور ، لما عرفوه فيه من سعة المدارك وجودة الرأى ، حتى إن إسماعيل لما عزل عن مصر قال لولده توفيق فيما أوصاه به : احتفظ يابنى بالشيخ المهدى ، فإنه رجل لانظير له .

وبالجملة فمحاسن المترجم كثيرة ، ولم يكن فيه ما يشينه سوى ما كان يرميه به بعض شانئيه من الإمساك والتقتير ، ويضعون عليه النوادر الخارجة عن حد المعقول ، والمعروف عنه — للقاصى والدانى — أن داره كانت مفتوحة للصادر والوارد ، لا تخلو مائدته يوماً عنهم . وحسبنا أنه كان يخرج زكاة أمواله كل سنة ويفرقها على المستحقين ، رحمه الله رحمة واسعة ، وأكثر فى الأمة من أمثاله . وكان حائزا لكسوة التشريف من الدرجة الأولى ، ومنح الوسام العثمانى الأول فى ٢١ صفر سنة ١٣١٠ هـ . هو وشيخ الأزهر الشيخ محمد الانبابى وقاضى القضاة جمال الدين أفندى . وسبب ذلك أن السيد توفيق البكرى نقيب الأشراف سافر فى هذه السنة إلى دار السلطنة ، وتوصل

بمساعدة الشيخ أبى الهدى الصيادى إلى مقابلة السلطان عبد الحميد ، فأنعم عليه بهذا الوسام وبرتبة قضاء عسكر الأناضول . فلما بلغ ذلك مسامع الخديو أحبّ ألا يكون نقيب الأشراف ممتازاً عن كبار الشيوخ ، وأرسل إلى السلطان ملتمساً الإنعام على المفتى وشيخ الأزهر برتبة قضاء عسكر الأناضول ، وعلى القاضى برتبة قضاء عسكر الروملى ، لأنه كان حائزا لرتبة الأناضول ، لكن طلبه لم يصادف قبولا .

وأحيل إلى المترجم قديماً أمر انتقاء القضاة الشرعيين والمفتين الذين يقامون فى ولايات القطر ومراكزه ، فكان يختار ذوى الكفايات ، ويتحرى فيهم النجابة والذكاء والديانة ، ويحامى عنهم لدى الحكام ، ويشد أزرهم . فنال بذلك مقاماً لدى أهل العلم المرشحين لهذه المناصب ، ووجهوا وجوههم شطر داره ، وهو مع ذلك لا يميل مع الهوى فى تنصيبهم ، ولو كان ممن يمد اليد لجمع من هذا الوجه شيئاً كثيراً . ثم رأت الحكومة أن يكون أمر تنصيبهم منوطاً بلجنة تؤلف بنظارة الحقانية برياسة وكيلها إذ ذاك بطرس غالى باشا ، وعرضوا على المترجم أن يكون من أعضاء تلك اللجنة فأبى .

وكان له فى المحاماة عن أهل الأزهر ومساعدتهم القدح المعلى . وتروى عنه مواقف فى ذلك ، منها أن الشيخ مصطفى العروسى مدة توليه على الأزهر استصدر من الخديو إسماعيل أمراً بنفى الشيخ حسن العدوى إلى إسنا ، وكاد ينفذ فيه ، لولا أنه استغاث بالمترجم ، فقام بناصره ، وذهب للخديو مستشفعاً ولجّ وألح حتى عفى عن الشيخ .

أحمد أبو الفرج الدمنهوري

١٢٤٣ — ١٣١٠ هـ

هو الشيخ أحمد أبو الفرج الدمنهوري الشاعر الأديب ، ظريف الجملة والتفصيل، حلو النادرة والفكاهة ، انجذبت إليه النفوس وألفته القلوب على دمامته وغرابة شكله . ولد بدمنهور ونشأ بها فى ضنك ورقة حال ، ولم يكن مشتغلا بالأدب فى أول أمره ، ثم لازم الشيخ محمد الوكيل القبانى أحد أدباء دمنهور المشهورين وعليه تخرج فى النظم ، وصحب أيضا الشيخ حميده الدفراوى ، وهو أديب لكنه لا يبلغ درجة الوكيل ، ولم يحضر المترجم العلم على شيخ ، بل كان يلازم مجلس الوكيل ولا يفارقه ليلا ولا نهارا ، فيكتب عنه كل مايسمعه من شعر ونثر ونادرة ثم يستظهره . أخبرنى ثقة : أنه اجتمع به بدمنهور حوالى سنة ١٢٦٥هـ فرآه شابا نيف على العشرين، مخفوض الجانب ، كثير التواضع ، لا يستنكف من خدمة الوكيل المذكور وحمل المصباح أمامه إذا سار ليلا . ثم نظر المترجم فى كتب الأدب ودواوين الفحول ، وبدأ ينظم الشعر ، فكان يعبث بالبيت والبيتين ، ثم نظم بعد ذلك القصائد والمقطعات ، إلا أنه كان قليل الإجادة ، كثير الخطأ واللحن ، يتكلف التجنيس والتورية ، وأحسن شعره مانظمه فى المجون وضمنه ألفاظ العيّارين والشطار . وكان حضوره إلى القاهرة صحبة الوكيل فأوصله إلى السيد عبد الخالق بن وفا شيخ السادات الوفائية ـ فأعجب بظرفه ومجونه ، وكان ينزل عنده كلما حضر إلى القاهرة ،

وهى إذ ذاك غاصة بالأدباء والأعيان ، وفى النـاس بقية ، فـكانوا يهشون به ويتهادونه إذا حضر ، ويراسلونه إذا غاب ، فحسنت حاله قليلا ، بما كان يناله من هباتهم . ثم اتصل بشاهين باشا كنج فى طنطا لمـا كان مفتشا على الأقاليم سنة ١٢٩٣ هـ فانتظم فى حلبة ندمائه واختص به وواساه وجعله طرفة مجلسه ، وجمع له من أغنياء البلاد مبلغاً وافرا اشترى به عقارا ، ورمم داره بدمنهور ، واجتمع عند شاهين باشا بعبد الله أفندى نديم الشهير وغيره من خاصة أهل الفضل والأدب ، ثم نقل شاهين باشا إلى منصب آخر بالقاهرة ـ فصار المترجم يتردد عليه ويقيم عنده الأيام والأشهر يجتمع فى أثنائها بغيره من الـكبراء وذوى الوجاهة فيهدى إليهم مدائحه ويتحفهم بطرائفه .

وكان على قلة إجادته فى شعره مفتوناً به مبالغاً فى تقريظه وقت إنشاده ، يمزج ذلك بإشارات وحركات تستظرف منه . ولا يكاد يقر لأحد بالتقدم عليه فى النظم . ولعمرى لا أرى عبارة تفى بوصفه ووصف حركاته عند الإنشاد وقيامه وقعوده والتفاته واستدعائه الحاضرين إلى استماعه ، فإنه كان إذا أراد إنشاد قصيدة من نظمه بدأ أولا بتقريظها ، ونبه الحاضرين إلى مواضع الإجادة منها ، فإذا ألقوا إليه بسمعهم أنشد المطلع وسكت هنيهة كالمأخوذ من جودته ، ثم التفت يمنة ويسرة مستطلعاً خبيئة رأيهم فيه ، واستحلفهم بالله وبأنبيائه هل طرق آذانهم مثله فى عمرهم ، وهل تهيأ لشاعر قبله ما تهيأ له من رشاقة المبنى وغرابة المعنى وتناسب الشطرين ، ثم يمضى فى البيتين والثلاثة ويعود إلى الصمت والتفكر ويقول : سبحان المـانح ! كم ترك الأول للآخر ! وأمثال

هذه الجمل التي اشتهرت عنه وصارت من لوازمه ، ثم يمضي في الإنشاد ، فإذا مر بتجنيس أو تورية وثب من موضعه وتمايل طرباً ، ثم نظر للحاضرين وقال لهم : اسمعوا من الفتى العربي اللعوب ، تفّ على المتنبي وسحقا له . أين هـذه السلاسة والسهولة ؟ وهـكذا حتى يتم القصيدة ، فإن رأى من السامعين استحساناً تمادى في غلوائه وأعجب وأطرب ، وربما عارضه بعض من يحضره استجلاباً لطرائفه واستئناساً بمحاورته ، فتصدر عنه النوادر ومحاسن الأجوبة الحـاضرة .

بلغني أنه حضر مرة مجلساً جمع لفيفاً من أهل الأدب ، فأنشدهم قصيدة من نظمه ، وبالغ في استحسانها كعادته ، وأخذ يستطلع طلع آرائهم فيها ، فانتبذ له صديقنا العالم الفاضل والشاعر المجيد الشيخ عبد الرحمن قراعة مداعباً ، وقال له : أخطأت في بيت منها ، فأدخلت حرفا على حرف ، وهو ما لا يجوزه النحاة ! فإما أن تسقطه أو تأتينا بشاهد على صحة قولك .. ووافقه الحاضرون ومالوا معه على المترجم ، فنكس رأسه هنيهة ثم نظر إليهم كالمتعجب وقال : ياليت قومي يعلمون !

وكان كثير الاجتماع بشيخ أدباء العصر الشيخ أحمد أبي البقاء الزرقاني ، فلا يخليه مرة من شعر له ينشده إياه ، ويعرض للشيخ ما يشغله عن الاستماع فيستلفته ويكثر من الإلحاح عليه بترك ما هو فيه والإصاغة إليه ، ويضايقه بذلك مضايقة شديدة ، ولـكن لا يكاد الشيخ يعرض عنـه حتى تصدر منه بادرة ينقلب لها المجلس ضحـكاً ، فـكان يقول فيه : إن أبا الفرج عندي مشكلة من المشاكل ، لا أدري أهو ثقيل أم ظريف ؟!

وكان أول اجتماعى به فى مجلس أحد الأعيان وأنا شاب يافع متعلق بالأدب وأهله ، ولم أكن لقيته من قبل ، بل كنت أسمع به وأشتاق إلى رؤيته ، فرأيت عجباً . رأيت شيخاً قصيراً دميم الوجه قد ذهبت إحدى عينيه ، عليه جبة واسعة الأكمام ، وهو جالس فى زاوية من المكان يملى على شخص حسن الخط دالية من الطويل منصوبة الروى ، جعلها تهنئة للخديو توفيق بقدومه من الإسكندرية ، فكان منه من الوقوف عند كل بيت والإعجاب به على ما تقدم ذكره ما ينهى للالتفات إليه. ثم مر ببيت قافية لفظه (ومعضدا) فوثب من مكانه ونبه الحاضرين إلى أنها : تورية باسم الخليفة «المعتضد بالله» فلم يوافقوه فأعرض عنهم وأقبل على الكاتب يشرح له حسن هذه التورية ، وأنها لم تتهيأ له إلا بعد إعمال الفكر والروية ، حتى أضجره ورمى الدرج من يده ، فغلبنى الضحك واستظرفته وقصدت محادثته ، فقلت : لعل سيدى الأستاذ عارض بهذه القصيدة قصيدة أبى الطيب التى يقول فى مطلعها :

لكل امرئ من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الطعن فى العدا

فسكت ، ثم نظر إلىّ شزراً ولم يزدنى على قوله : تف على المتنبى . فاستغرقت فى الضحك ، وسألت عنه بعض الحاضرين . فخبرنى به ، فكدت أطير سروراً بلقائه ، وأقبلت عليه أمدح القصيدة وأذكر مواضع الإجادة فيها وأستعيدها منه ، فأبرقت أسرته وأقبل علىّ أيما إقبال وأسمعنى بعض مقطعات من شعره ، فقلت له : أما كان الأولى بهذه اللآلى أن تنتظم فى سمط ؟ فقال : نعم ياسيدى

إنى مهتم بذلك ، وسيكون ديواناً مرقصاً . وامتد بنا المجلس ، فرأيت منه ما لو أردت إثباته برمته لطال بنا المقال ! ثم فارقته وأنا أشوق الناس إليه ، وكأنى به أحد أبناء المنجم الذين ذكرهم الثعالبي فى « اليتيمة » ، وأورد فصولا للصاحب بن عباد فى وصفهم .

ومن غريب أمر المترجم أنه كان يستملح منه مايستثقل من غيره ، فقد رووا عن « بشار » : أنه كان يصفر ويصفق ويتفل عند إنشاده ، وعن « البحترى » أنه كان يتقدم ويتأخر ويتلفت إعجاباً بشعره ، وقد عيبا بذلك وعدَّ من سقطاتهما التى نعاها عليهما الناعون ، بخلاف المترجم .

ومن غرائبه أنه كان معجباً بكنيته ، وكثيراً ما كان يتدرج بها إلى الانتساب لمن تكنى بها من الفضلاء المتقدمين ، كأبى الفرج ابن الجوزى ، وأبى الفرج الأصبهانى صاحب الأغانى وغيرهما ، فلا يدع أحداً من المتكنين بها إلا وينتسب إليه ، تارة لهذا وتارة لذاك ، ثم ارتقى درجة فادعى الشرف ولاث على رأسه عمامة خضراء ، ووسع أكمامه ، وسعى حتى جعلوه نقيباً للأشراف بدمنهور .

حدثنى صاحبنا الأديب الفاضل محمد شكرى أفندى المكى . قال : لقيته مرة وكنت علمت بأمر تلك النسب ، وأردت مداعبته فقلت : يا أبا الفرج إن كنيتك تنبئ عن شرف عظيم ، فلعلك من نسل أبى الفرج ابن الجوزى ، فقال : نعم ياسيدى صدقت وأصابت فراستك . ثم لقيته بعد ذلك بأيام

وقد نسى ما دار بيننا فأعدت عليه الحديث وقلت له : إجادتك فى الشعر مع هذه الكنية تدلنى على أنك من نسل أبى الفرج الببغاء ، فقال : أى نعم وهو الواقع . ا هـ . ولا خلاف فى أنه كان يعلم قصد محدثه فى أمر نسبه ، إلا أنه كان يخرجه مخرج الجد ، حتى مع أخص الناس به ، ويغضب ممن ينكر عليه ، فيستظرف منه .

وادعى مرة أنه نال نصيباً وافراً من اللغة بحيث أصبحت لايشذّ عنه شىء من مفرداتها ، وتمادى فى هذه الدعوى وتبجح بها فى المجالس ، وتصدر للإجابة عن كل سؤال فيها يطرح عليه ، فتوالت عليه الأسئلة وهو يجيب عنها خابطاً خبط عشواء لايبالى بمن يحتج عليه بكتب اللغة . وصار الأدباء من أصحابه يرتجلون له ألفاظاً يسألونه عنها فيخترع لها معانى يجيب بها ، وربما أحال تخرصاً على كتب لغوية يعينها ، ونظم له بعضهم بيتاً — كبيت الخنفشار — وسأله عن معناه فى جمع كبير من الأدباء — وهو :

وبخرنق الأقيال عاثت فالتثت ورقاء تعترض الأكام بشيظم

فقال : نعم ! هذا بيت لعنترة ، ذكره له صاحب الأغانى وهو يصف به حمامة ، والخرنق : شىء يشبه نسج العنكبوت وليس به ، يكون بين أغصان الأشجار ، فيقول : إن هذه الحمامة عاشت بين الأقيال أى : الأشجار الكبيرة ، فالتثت قدماها بالخرنق أى اشتبكت به ، وأما الشيظم . . . وأراد أن يفسره ، فقطعته أصوات الضحك من جوانب المجلس .

وبالجملة فقد كان خفيف الروح ، محبباً إلى القلوب ، أديباً ظريفاً ، حاضر الجواب ، حلو النادرة . وكانت وفاته فجأة بدمنهور فى ثانى ليلة من شهر ربيع الثانى سنة ١٣١٠ هـ بعد أن صلى العشاء ، وكان آخر قوله : إنا لله وإنا إليه راجعون ، فشق نعيه على من عرفه ، وشيع جنازته الألوف . تغمده الله برحمته .

زين المرصفي

١٢٤٤ — ١٣٠٠ هـ

هو الشيخ زين المرصفي الشافعي من طبقة الشيخ عبد الرحمن الشربيني والشيخ سليم البشري ، إلا أن الشيخ سليما أكبر منهما سنا ، حضر إلى الأزهر ، وقرأ على كبار الشيوخ به حتى برع وتأهل للتدريس ، ثم جعله الخديو إسماعيل معلماً لولده حسين كامل ، وبسبب مخالطته له ولمن حوله ألم ببعض اللغات ، وسافر مع الأمير حسين إلى القسطنطينية ، وكانت أسواقها لم تزل آهلة بالكتب العربية ، فاقتنى هناك كتباً نفيسة غريبة عن أهل الأزهر . فصار ينقل منها في تآليفه نقولا يغرب بها عليهم .

ثم استخدم بالمدارس وترقى إلى أن صار كبير المفتشين بها . ولم يزل بهذا المنصب حتى توفاه الله يوم الأربعاء الخامس من جمادى الأولى سنة ١٣٠٠هـ ، فشيع جنازته لفيف من العلماء وجمع كبير من الناس ، وأمر ناظر المعارف(١) فسار فيها من كل مدرسة فريق من تلاميذها ، وأناب عنه نائباً حضرها .

ولما بلغوا به الجامع الأزهر للصلاة عليه ، وقف الشيخ حمزة فتح الله فأبنه ورثاه ببيتين من نظمه ، هما :

---

(١) وزير التربية والتعليم — الآن .

سقى الله من صوب الرضا أعظماً هوى
بها ركن بيت العلم إذ دكه الحَيْنُ
فلا غرو إن أضحت وجوه علومنا
مشوّهة ، فاليوم فارقها «زين»

رحمه الله رحمة واسعة .

وفى مقدمة شرح أحمد (بك) الحسينى لكتاب الأم للإمام الشافعى الذى سماه بمرشد الأنام، لبرأم الإمام، ما نصه : « زين المرصفى كان عالماً فاضلا أخذ عن علماء وقته ، وجدّ واجتهد حتى صار من أكابر العلماء . وكان ذهب مع الرسالة المصرية إلى بلاد فرنسا زمن الخديو إسماعيل ، وكان يجيد اللغة الفرنساوية ، وله كتابات فى المنطق والحكمة . وكانت وفاته سنة ١٣٠٠هـ » .

حسن عبد الباسط الحوىّ

١٢٤٥ — ١٣٠٠ هـ

كان حسن أفندى عبد الباسط الحُوَىّ خلاسى اللون يشبه الحبشى، وبوجهه أثر جُدرى. كان أديباً شاعراً هجّاء خبيث اللسان مجيداً، إلا أنه مقل. استخدم بالإسكندرية - فكان رئيس قلم فى الضبطية حوالى سنة ١٢٨٥ هـ، وبقى بها إلى سنة ١٢٩٠ هـ وكان بها إذ ذاك مصطفى صبحى (باشا) الشاعر المشهور، فكان يجتمع به من بها من الأدباء والشعراء فيسمرون معاً ويحيون الليالى بالمذاكرة وإنشاد الشعر، واتفقوا على تسمية مجلسهم بالمِربَد، وألّا يقبلوا به أحداً إلا إذا ارتضوا به جميعاً — فكان المترجم ممن رضوا به أن يكون من شعراء «المربد». (١)

وكانت تمر عليهم ليال يقترحون فيها ارتجال الشعر، ويعينون عدد الأبيات والوقت الذى يجب نظمها فيه، فكان أحدهم إذا تعذرت عليه قافية وأعجله الوقت ارتجل كلمة لا معنى لها أو فى معنى لا يوافق السياق وتمم بها البيت، فاجتمعت لهم من ذلك ألفاظ غريبة مضحكة سموها بالألفاظ المربدية!

ثم تنقلت الحال بالمترجم، فاستخدم معاونا بمديرية الشرقية. ثم فصل

(١) المربد: من أسماء أسواق العرب القديمة، مثل: عكاظ.

فضاق به العيش وفتح حانوتاً بالزقازيق للصيدلة القديمة المسماة الآن بالعطارة ، وكان أمره بها عجباً ، فإنه اقتنى كتباً مثل مفردات الطب وقانون ابن سينا ، وصار إذا طلب منه أحدهم بيع عقار من العقاقير سأله عن سبب حاجته إليه وقام إلى تلك الكتب فاستخرج له منها مزاياه ، وما يداوى به من العلل . وبقى مدة على ذلك حتى ، توفاه الله بعد سنة ١٣٠٠ هـ

ومن شعره يمدح محمداً فتح الباب أفندى كبير كتاب ديوان البحر :

رأيت العلا ترتاد[1] بعلا لنفسها

وقد خطبتها قبل ذاك الأوائل

فقمنا سراعاً قاصدين لخدرها

عساها بنا ترضى ويُجْلى التواصل

فلما رأتنا واقفين ببابها

أشارت « لفتح الباب » منها الأنامل

وكان رحمه الله على خبث لسانه ، طرفة من الطرف ، وأعجوبة من العجائب ، فى حسن المنادمة وحضور الذهن وسرعة الجواب .

---

(١) نصطفى أو نختار .

رآه مرة بعضهم وهو مسافر إلى الزقازيق فى القطار ، ومعه جراب يحمله بيده ، فقال له مداعباً : أظن هذا جراب الحاوى — أى : المشعبذ .

فقال : لا ياسيدى ، هذا جراب الحُوَىّ !

رضوان محمد المخللاتى

١٢٥٠ هـ — ١٣١١ هـ

هو الأستاذ الحجة الثقة فى عصره ، شيخنا العلامة الجليل الشيخ رضوان ابن محمد بن سليمان المكنى بأبى عيد المعروف بالمخللاتى ، الشافعى المذهب . ولد بالقاهرة فى حدود سنة ١٢٥٠ هـ — ١٨٣٤ م . وبعد أن حفظ القرآن الكريم وجوّده تلقى علومه بالجامع الأزهر على علماء عصره ، ثم تخصص فى دراسة علوم القرآن « القراءات والرسم » فنبغ فيهما نبوغاً عظيماً ، وأنتج فيهما مؤلفات قيمة دلت على سعة علمه ووفرة اطلاعه ، حتى شهد له بالتفرد علماء عصره ، وعلى رأسهم شيخ القراء الشيخ محمد المتولى .

وقد أجازه فى سنة ١٢٧٧ هـ — ١٨٦٠ م ، صديقه ومعاصره الشيخ محمد عبده السرسىّ ، وكان من أجلة علماء الأزهر ، وعنهما تلقى علم القراءات خلق كثير ، ويقول فى إجازته له :

« ولما جاد الزمان بحبيبنا أعزّ الإخوان فى الله تعالى ، الشيخ رضوان ابن محمد بن سليمان ، الشهير بأبى عيد .. جاء وقرأ علىّ ختمة كاملة من أولها إلى آخرها ، عن طريق الشاطبية والدرة معاً ، بالتحرير والتجويد ، على أتم بيان وأكمل عنوان ، واستجازنى فأجزته بأن يقرأ ويقرىء فى أى مكان حل » .

ويقرظ الشيخ محمد المتولى شيخ القراء أول مؤلفاته : (فتح المقفلات) بقوله :

« ... أما بعد فقد أطلعت على هذا التصنيف البديع ، اللطيف الصنيع ، فوجدته فى غاية الضبط والإتقان ، ونهاية النفاسة والإحسان [شمساً فى الاقتدا] وبدراً فى الاهتدا ، فياله من عروس يفوح شذاه ، ويلوح سناه ، قد تجلى فيه بدر المعانى فى أصداف المبانى ، جعله الله خالصاً لوجهه الكريم ، وغفر لمن تلقاه بقلب سليم . وأوجب لمؤلفه رضوانه ، ووفقه للخير وأعانه . قاله بلسانه ، ورضيه بجنانه ، ذو التقصير الكلى ، محمد المتولى ، عفى عنه آمين . »

وكذلك قرظ كتابه (إرشاد القراء والكاتبين ، إلى معرفة رسم الكتاب المبين) ومما جاء فيه :

« ... أما بعد — فقد سمعت هذا الكتاب الرائق ، والسفر البليغ الفائق ، فوجدته فى بابه آية ، قد بلغ من جادة الإفادة الغاية . قد نظم مؤلفه فيه شمل المتفرقات ، بعد التفرق والشتات . ونبه على عجيب أوضاع الرسوم ، وبين فيه ما لأنواع الضبط من الرقوم ، يتعين على قراء القرآن الكريم مطالعته ، ويتأكد على كتاب المصاحف مدارسته ومراجعته . ويحتاج إليه من يريد التحرى والضبط ، حيث لم يقع له نظير فى علم الخط . كيف لا ومتعلقه أحد أركان القرآن ، وأهم ما تدعو إليه ضرورة المقرى على ممر الزمان . فياله من كتاب أينعت أثماره ، وسطعت بين سطوره أنواره . أوضح فيه مؤلفه خفايا الرسوم بأفصح إيضاح ، وفتح من أبواب رقوم الضبط لكل ضابط مطلوبه

بدون مفتاح . به أمن كتاب المصاحف من الزّلل ، وحفظوا إذ صاروا بسببه في جُنةٍ من طوارق الخلل .

(ففي كلّ لفظ منه روض من المنى

وفي كلّ سطر منه عقدٌ من الدرّ)

جعله الله مقبولا لديه ، وسبباً للفوز يوم العرض عليه . قاله بلسانه ، ورضيه بجنانه ، ذو التقصير الكلى ، محمد الشهير بالمتولى » .

وكذلك قرظ كتابه (شفاء الصدور) بقوله :

« ... أما بعد فقد أطلعت على هذا الكتاب المسمى : « شفاء الصدور بذكر قراءات الأئمة السبعة البدور » فوجدته صريح المبانى ، صحيح المعانى . مفيداً فى فنه ، فريداً فى شأنه . على جودة من التسهيل والتقريب ، وغاية من التحرير والتهذيب ، سيما وقد تضمن كتاب « حرز الأمانى » ليقبل على من تلقاه بوجه التهانى ، جعله الله مقبولا لديه ، وأثاب مؤلفه رضوانه يوم العرض عليه . آمين » .

وقرظ الشيخ حسن الجريسى الملقب بالديب كتابه : « إرشاد القراء والكاتبين ، إلى معرفة رسم الكتاب المبين » ، كما قرظه أيضاً العالم الجليل السيد محمد عوض الدمياطى تقريظات تعبر عن تقديرهما لهذا المؤلف .

وكان لنبوغ الشيخ رضوان فى علمى القراءات والرسم أثر فى تصويب

المصاحف وتحقيق نشرها ، فأشرف على طبع مصحف وضع له مقدمة ، نشره الشيخ أبوزيد سنة ١٣٠٨هـ ١٨٩٠م . ويعتبر من أضبط المصاحف . وقد تلقى عليه كثيرون ، واستفادوا من علمه وأجازهم ، وقد وقفت على إجازة منه إلى تلميذه الشيخ محمد البدرى .

ولم يكن نبوغ المترجم مقصوراً على علوم القرآن ، بل نبغ فى العلوم الشرعية والعقلية والعربية والأدب ، فدرس النحو فى مدرسة حافظ باشا ، وتلمذنا عليه ، فأخذنا عنه العلوم العربية والفنون الأدبية ، وكان رحمه الله يفتخر بالأخذ عنه . كما تتلمذ عليه من أولاد شقيقتنا المغفور لها السيدة عائشة : محمود وإسماعيل .

وتولى الخطابة فى مسجد جوهر المعينى القريب من داره بغيط العدة ، وخطب احتساباً فى مسجد سلطان شاه ، وكان يلقى درساً فى مسجد الأمير حسين ويخطب فيه الجمعة أحياناً .

وقد بارك الله فى حياته ، فأنتج إنتاجاً علمياً فى مختلف العلوم ، كما نقل الكثير من المؤلفات بخطه ، وكتب نسخاً من مؤلفاته أودعت المكتبات العامة ، فضلا عن نسخه الخاصة .

انتقل إلى رحمة الله تعالى فى يوم الجمعة ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣١١ هـ ودفن فى جبانة باب الوزير بالقرب من الضريح المعروف بمحمد بن الحنفية ، وترك مجموعة من المؤلفات القيمة مازالت مخطوطة ، وهى :

١ — كتاب فتح المقفلات ، لما تضمنه نظم الحرز والدرة من القراءات ، أوله : الحمد لله الذى أودع كتابه العزيز كنوز معانى العلوم . فرغ من تأليفه فى الخامس والعشرين من شهر ذى الحجة سنة ١٢٨٦ هـ . وهو مؤلف كبير فى ٢٢٤ ورقة مسطرة ٢١ سطراً . ويقول فى ختام الكتاب : « يقول مشيد مبانيه ، ومحرر ألفاظه ومعانيه ، هذا آخر ما يسره الله سبحانه وتعالى من جمع هذا الكتاب المستطاب ، الصافى ورده لأولى الألباب . فلقد أعملت الفكرة فى تنقيحه ، وبذلت الجهد فى تصحيحه ، حسبما تلقيت عن أشياخى السادة الكرام ، مع مراجعة نفائس النفوس من الرغبات . والمرجو ممن طالع فيه فاطلع على هفوة أو زلة ألا يبادر قبل التحقق بالإنكار ، فذلك أمرٌ لم يسلم معه من كان مثله .

(والعذر عند خيار الناس مقبول

واللطف من شيم السادات مأمول)

والكريم من يقبل العثرات ، ويعفو عن السيئات ، خصوصاً من مثلى البائس الفقير ، فإن ذهنى كليل وسهوى كثير ، وأى لسان من الأنواع البشرية — ماعدا الحضرات النبوية — مصون عن الغلط ، أو أىّ مؤلف ألف بين العالمين حتى قيل من جميعهم ما أخطأ قط .

وإذا كنت أيها الأخ تعلم أن ذلك أمر جائز عليك ، وهذا المؤلف شىء قد ساقه الله بلا مشقة عليك إليك ، فاحمد الله مولاك ، وقابل بالجميل

واعذر أخاك . واشكر للناس ، فمن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، ومن نظر إلى عيب أخيه ونسى عيب نفسه فقد عميت عيناه . ثم خذ الدر من الصدف ، وانتهز الفرص فإنها صدف . وانظر إلى القول دون القائل ، وإلاّ فليس ذلك تحته طائل . ولا تأخذك العزة استكباراً ، ولا تحملك الأنفة على الإعراض استحقاراً لصاحبه واستصغاراً . بل انظر نظر مستخبر مستبصر ، فإن رأيت ما يسرك فاقبل وأقبل وإلا فأدبر . والحمد لله على ما يوليه حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه».

وبهذا الختام الملىء بالتواضع والاعتزاز ختم الكثير من مؤلفاته . ومنهـا :

٢ ـــ كتاب شفاء الصدور ، بذكر قراءات الأئمة السبعة البدور . فرغ من تأليفه سنة ١٢٩١ هـ ـــ ١٨٧٤ م .

٣ ـــ أرجوزة فى التوحيد، فرغ من تأليفها سنة ١٢٩٣ هـ ـــ ١٨٧٦ م .

٤ ـــ انتشاق النفحات المسكية ، من طى تخميس البردة الشريفة المحمدية . فرغ من نظمها سنة ١٢٩٤ هـ ـــ ١٨٧٧ م .

٥ ـــ انتشاق الروائح المسكية ، من طى تخميس القصيدة النونية السويجعية ـــ للإمام اللودعى عبد الرحيم البرعى فرغ من نظمها سنة ١٢٩٤ هـ ـــ ١٨٧٧ م .

٦ ـــ كتاب إرشاد القراء والكاتبين إلى معرفة رسم الكتاب المبين فى ١٩٠

ورقة مسطرة ٢١ سطراً . فرغ من تأليفه سنة ١٢٩٦ هـ — ١٨٧٩ م .
أوله : الحمد لله الذى رسم فى صحائف الأوقات خطوط لطائف الإتحاف ...

٧ — القول الوجيز ، فى فواصل الكتاب العزيز . أوله : الحمد لله الواحد لا من قلة وعدّ ، الأحد فما له من كيفيةٍ ولاحد . فرغ من تأليفه سنة ١٢٩٧ هـ ١٨٨٠ م . وعدد أوراقه ١٠٦ مسطرة ٢١ سطراً .

٨ — الإفاضة الربانية ، بشرح ألفاظ البردة المحمدية . فرغ من تأليفه سنة ١٣٠٥ هـ — ١٨٨٧ م . أوله : حمداً لمن أطلع أزهار الأسرار فى رياض الأفكار بتسبيح الأشواق ، وأسجع بلابل الأيك فى البكور والآصال بتحميد العشاق ، جل شأنه منَّ على أهل المحبة والوداد ، باقتفاء آثار أشرف العباد، محمد صفوة الخلق ... وهو شرح كبير فى ٢٠٠ ورقة مسطرة ٢١ سطراً .

٩ — رسالة فيما رواه ورش فى موضوع « آلآن » من طريق «حرز الأمانى » أولها : حمداً لمن أنزل القرآن نوراً ... فرغ من تأليفها سنة ١٣٠٨ هـ — ١٨٩٠ م .

١٠ — مقدمة مصحف ، طبع سنة ١٣٠٧ هـ — ١٨٩٠ م .

١١ — ديوان خطب منبرية (الكوكب السائر ، فيما يتعلق بخطب المنابر) .

١٢ — اللؤلؤ المنظوم، فيما يلزم من الشروط فى حق الإمام والمأموم . وهى رسالة فى شرح منظومة له فيما يتعلق بالمأموم والإمام . فى ٣٠ ورقة مسطرة ١٥ سطراً ، فرغ من تأليفها فى شهر المحرم سنة ١٣٠٨ هـ

ولما توفى(١) رحمه الله رثاه أحد الفضلاء بهذه الأبيات :

مالعروض الدمع فاض هاطلا يجرى دما على الخدود نازلا
أظنّ فى مصر قضى إمامها نحباً ، وجدّ للكريم راحلا
وذاك رضوان النجيب المنتقى من بالقران زيَّن المحافلا
فكم تآليف له .. بفنه منها سقى القراء عذباً سائلا
وكم لطه صاغ أغلى مِدَح كبردة ألبسها غلائلا
حين لمولاه على الطهر سرى وبات ضيفاً للكريم آملا
رحمة ربى نظّمت تاريخه رضوان للجنان جدّ نائلا

٨٣ ٧ ١٦٤ ١٠٥٧

١٣١١ ﻫ

(١) لما عنيت الحكومة بطبع المصحف الكريم فى سنة ١٣٤٢ ﻫ بإشراف نخبة من العلماء كان اعتمادها فى ضبطه على مؤلفيه : (١) إرشاد القراء والكاتبين (٢) القول الوجيز فى فواصل الكتاب العزيز .

حسن الطويل

١٢٥٠ هـ — ١٣١٥ هـ

هو شيخنا الإمام العلامة حسن بن أحمد بن على ، شيخ الشيوخ وأستاذ الأستاذين ، وأحد من تفرد فى مصر بالبراعة فى المعقول والمنقول . أتقن العلوم العديدة مع الزهد الصحيح والورع وعلو النفس والتأدب بآداب الشرع والتمسك بالكمالات . ولد ـ كما سمعت من تلميذه الخاص الشيخ أحمد أبى خطوة ـ بقرية منية شهالة ، إحدى قرى المنوفية حوالى سنة ١٢٥٠ هـ . وذكر الشيخ بشير الظافر فى كتابه «اليواقيت الثمينة ، فى أعيان مذهب عالم المدينة» أنه ولد سنة ١٢٥٦ هـ .

وتربى بهذه القرية ، فقرأ القرآن الكريم وحفظه ، ثم انتقل إلى طنطا وهو صغير ، فاشتغل بتجويد القرآن وحفظ المتون بالمسجد الأحمدى نحو سنتين أو ثلاث . ثم حضر للقاهرة واشتغل بطلب العلم بالجامع الأزهر ، فقرأ على شيوخ العصر مثل الشيخ محمد عليش المالكى ، والشيخ حسن العدوى الحمزاوى ، والشيخ إبراهيم السقا ، والشيخ محمد الأشمونى ، والشيخ محمد الإنبابى ، والشيخ أحمد شرف الدين المرصفى . فظهرت عليه النجابة ، وابتدأ فى حضور « السعد » . وكان من دأبه فى أول أمره مماكسة الشيوخ فى الدروس بكثرة

الأسئلة والمناقشات . حتى حدث ما اضطره إلى الانقطاع عن الأزهر . وسبب ذلك أن أبناء العمد وأقاربهم طلبوا للدخول في الجندية بقانون وضع لذلك فى عهد سعيد والى مصر سابقاً . ولما كان المترجم من أقارب بعض مشايخ قريته ، طُلب وجند ، وبقى مواظباً على الصلوات والأوراد ، وكان الوالى يكره من الجند من يصلى . . .

وحدث أن المترجم جاءه من شيخه الشيخ أحمد شرف الدين المرصفى كتاب فيه استغاثة يأمره بتلاوتها عقب كل صلاة ، رجاء أن تفرّج كربه وتخلصه من الجندية ، فوقع الكتاب فى أيديهم ، وعدوه لذلك مذنباً ، وكان عقاب المذنبين عندهم إهمال تعليمهم الفنون العسكرية وتشغيلهم فى السكك الحديدية وما أشبهها من الأعمال الشاقة ، فكان المترجم يشتغل فى هذه الأعمال بهمة زائدة تأديباً لنفسه ، لأنه ظن ما وقع له عقاباً على جراءته على مشايخه ، وكان سعيد باشا يلقب المطيعين من الجند بالفراعنة ، والعاصين المذنبين بالنماردة ، فغضب مرة على النماردة وأمر بطردهم من الجيش ، فخرجوا منه ، إلا أنهم بقوا تابعين ، وهم ما كانوا يسمونهم « بالعساكر الإمدادية » وخرج المترجم معهم ، فأقام بقريته مدة .

وكان قبل ذلك يجتمع مع الشيخ خالد أحد مشايخ الطرق ، فرأى أن يسافر إليه ، فسافر إلى بلدته المسماة بالسريرية من أعمال «منية ابن الخصيب[1]»

---

(١) محافظة المنيا الآن .

ولزمه بضعة أشهر عكف فيها على الاشتغال بالعلم والطرق الصوفية .

ثم طلب إلى الجندية مرة ثانية ، فذهب إليه أبوه ليحضره ، من عند الشيخ خالد ، وحاول هذا منعه فلم يرض ، بل عاد مع أبيه إلى قريته ، وتبين أنهم أهملوا طلبه ، فحمد الله .

وأمره والده بالبقاء معه فى القرية ، وحظر عليه أن يعود إلى الصعيد ، فضاق المترجم بهذا الأمر ، وخرج من القرية بغير علم أبيه وهو لا يملك شيئاً ، وقصد القاهرة ماشياً ، يبيت فى أية بلدة تصادفه ، حتى وصل .

وذهب إلى الأزهر ، فصادف الشيخ محمد السقارى فى طريقه ، فلما رأى المترجم أسرع إليه وهش له ، وأخبره أنه يطلبه من مدة ، ثم أنزله بداره ، وحلف أن يبقى بها شهراً لا يتكلف شيئاً من عنده . وكان مراد السقارى أن ينظم قصيدة يمدح بها أحد الأمراء ، فنظمها له ، وأخذ السقارى عليها أربعين ديناراً جائزة .

ولما انقضى الشهر حف الله المترجم بعنايته ، فطلبه الشيخ حسن العدوى لتصحيح البخارى ، وكان قد شرع فى طبعه ، فانتفع بأجر التصحيح . ثم طلب إلى ديوان الجهادية لتصحيح ما يطبع به ، فقابل هناك أحمد عبيد بك رئيس الترجمة ، وامتحنه فأعجب به ، وكاد يطير فرحاً ، وقال عنه : « هذا جوهرة خفيت علينا » واستخدمه للتصحيح بالديوان ، وسعى له حتى محوا اسمه من الجيش ، حتى لايعاد طلبه .

وفى هذه المدة عاد المترجم لطلب العلم والاشتغال به ، مع القيام بالتصحيح بالديوان ، حتى شهد له شيوخه بالتأهيل للتدريس ، فدرس بالأزهر . وكان أول درس قرأه فى شوال سنة ١٢٨٣ هـ وابتدأ فيه بالقراءة فى الأزهرية . ولم يقتصر رحمه الله على العلوم المتداولة بالأزهر ، بل بحث ونقب ، واجتمع بالشيخ محمد أكرم الأفغانى فتلقى عنه العلوم الحكمية ، وبرع فيها ، وتلقى عن تلميذه خلاصة الحساب لبهاء الدين العاملى ، ونظر فى الهندسة والجبر وسائر العلوم الرياضية ، وقرأ التاريخ قراءة إمعان وتدبر ، وطالع كتب اللغة والأدب ، ونظم الشعر السهل ، وكتب الترسل البديع ، وكان لا يسمع عن أحد يعرف علماً إلا سعى إليه ليتلقاه عنه كائناً من كان ،حتى صار نسيج وحده ، وقريع دهره فى سائر العلوم ، مع بعد النظر فى السياسة ، وسعة العقل ، وسلامة العقيدة ، وشدة الإنكار على البدع المستحدثات فى الدين .

وقد قرأ عليه فى الأزهر كثيرون من علمائه المشهورين . فكان الشيخ الأجل أحمد أبو خطوه ، والشيخ الإمام محمد عبده ، والسيد أحمد الشريف ، وإبراهيم (بك) اللقانى ، والشيخ محمد راضى البولينى ـ فى الطبقة الأولى من تلاميذه .

ثم قرأت عليه طبقة ثانية منها الشيخ عبد الرحمن فودة ، والشيخ محمد الغرينى ، والشيخ عبد الرحمن قراعة . وقرأ عليه أيضاً الشيخ محمد بخيت ، والشيخ داغر ، والشيخ محمد المغربى ، والشيخ أحمد الزرقانى ، وغيرهم ممن لا يحصون ، واختص به الشيخ أحمد أبو خطوة ، والشيخ

راضى البولينى ، والشيخ عبد الرحمن فوده ، والشيخ عبد الرحمن قراعة . فكانوا يقرأون عليه فى داره دروساً غير الدروس الأزهرية ، وصحبوه ولازموه ، فانتفعوا به فى دينهم وأخلاقهم ، فوق انتفاعهم بعلمه .

ثم نقل إلى نظارة المعارف ، وعين للتفتيش فيها . ولما مات الشيخ ز ى المرصفى مفتشها الأول سنة ١٣٠٠ هـ وأقيم بدله الشيخ حمزه فتح الله المفتش الثانى جعل المترجم مفتشاً ثانياً . ثم نقل مدرساً بمدرسة دار العلوم . فعم الانتفاع به وتخرج عليه أحسن من نراهم الآن[١] من الأساتذة المتخرجين فى هذه المدرسة ، كالشيخ الفاضل حسن منصور ، والشيخ محمد المهدى ، والشيخ محمد الخضرى ، والشيخ عبد الوهاب النجار .

وبقى فى هذه المدرسة إلى سنة ١٣١٧ هـ وكانوا قد شرعوا فى الامتحان قبل الاجازة المدرسية كالعادة ، فلما كانت ليلة السبت ١٧ صفر سهر كعادته ، ثم ذهب لداره معافى ليس به شىء ، واستيقظ فتوضأ وصلى الصبح ، ثم طلب الإفطار والقهوة ، وأخذ غفوة كان فيها القضاء المحتوم ، فلم تشرق شمس ذلك اليوم إلا والنعاة ينعونه ، والمؤذنون يؤذنون على المآذن كالعادة فى موت كبار العلماء ، وأم داره شيخ الأزهر الشيخ عبد الرحمن الشربينى ، والشيخ محمد عبده المفتى ، وجميع العلماء والفضلاء ، وكبار نظارة المعارف ، وتلاميذه من الأزهر ودار العلوم ، وشيعت جنازته تشييعاً سنياً ، فصلوا عليه فى الأزهر ودفنوه بمقابر المجاورين . رحمه الله وغفر له عدد حسناته .

(١) أى فى عهد المؤلف المغفور له العلامة أحمد تيمور باشا رحمه الله

وكان من عادته الخروج إلى الريف كل خميس ترويحا للنفس ، فكان يذهب إلى الأميرية من ضواحى القاهرة عند تلميذه الشيخ عبد الرحمن فوده ، فيقضى عنده الخميس والجمعة ويعود يوم السبت ، فلما عرفتُه صار يذهب للأميرية بعض الأخمسة ويسافر فى بعضها إلى ضيعتنا التى بقويسنا ، أو إلى حلوان حينما نسكن بها شتاء ، فكنت أقضى معه هذين اليومين فى مطالعة واشتغال ، حتى فى حالة المشى والتنزه كنت أحمل الكتاب معى وأسمعه فيه ، فيقرر لى المسائل ونحن سائران .

وكان رحمه الله سني العقيدة ، صوفى المشرب ، لايحيد عن الشرع قيد إصبع ، آخذاً بمذهب الإمام ابن تيمية فى مسألة الاستغاثة بالقبور والاستشفاء بالموتى ، منكراً على المبتدعة أشد إنكار . آية من آيات الله فى معرفة التفسير وحل مشكلات الكتاب المبين ، متضلعاً من الحديث ، متحصناً بالشريعة فى كل علم يقرؤه من كلام أو حكمة أو تصوف أو رياضيات أو طبيعيات . وخص باستحضار الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فى الاستشهاد بها على حل المشكلات الدينية ، فكان أمره فى ذلك عجباً ، وشأنه فيه مستغربا — ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ومع انحراف علماء الأزهر عنه ، لإنكاره عليهم بدعهم وما درجوا عليه ، فإنهم كانوا مقرين بفضله ، وكثيراً ما كانوا يحتاجون إليه فى معرفة أسرار الشريعة ، وحل مشكلاتها ، والرد على الطاعنين عليها من أرباب النحل الأخرى أو المرتدين .

أما أخلاقه فزهد غريب ، وعلو نفس عن الدنايا ، وبعد عن الرياء ، وتواضع مع كل إنسان ، وسذاجة فى المطعم والملبس والمسكن . لاينفق على نفسه من مرتبه إلا القليل ، ويتصدق بالباقى فى الخفاء ، فلما مات قام الصراخ فى دور كثيرة يسكنها فقراء وأرامل ، كان يعولهم كل شهر بما فضل من نفقته ، وما علم بهم أحد قبل موته ، حتى أقرب الناس إليه ، وأخصهم به .

وكان كثير الاشتغال بأمور المسلمين ، دائم الهموم لما أصابهم من التأخر فى مشارق الأرض ومغاربها ، منتظراً فرجاً يأتيهم ، ولطفاً من الله يحفهم ، فتقوم فيهم دولة شعارها الدين ، تقوى على جمع شملهم . ولذلك لما قام المهدى بالسودان ، وانتصر انتصاراته المشهورة ، واستولى على البلاد السودانية ، أحسن المترجم فيه الظن ، وقام بنصرته بقلبه ولسانه ، وبلغ الإنجليز ذلك ، فسيروا وراءه عيناً يخبرهم بحركاته وسكناته ، وكاد يقع فيما لا تحمد عقباه ، لو لا أن سلمه الله .

ولمداومة اشتغاله بالإقراء وتربية النفوس لم يؤلف تأليفاً — غير أن نظارة المعارف لما كلفت كل مدرس أن يجمع ما يلقيه من الدروس ، وكان يدرس التفسير بمدرسة دار العلوم[1] شرع فى جمع ذلك فى كتاب سماه «عنوان البيان» لم يطبع منه غير المقدمة — سنة ١٣١٦ هـ أى قبل وفاته بسنة .

---

(١) كلية دار العلوم (الآن)

ومن غريب المصادفات أنه زارنى[1] قبل وفاته بيومين فى ليلة مقمرة فجلسنا فى صحن الدار نلعب الشطرنج ، وكان مولعاً به مع قلة إجادته فيه ، فقال لى عندما أراد الذهاب : نحن الآن فى الامتحان ، وقد قربت الإجازة ، وصدرى ضيق فى هذه الأيام من الناس ، ونفسى تجنح للعزلة . فهل تعرف لى مكاناً أقضى فيه بعض أيام بعيداً عنهم ؟ فقلت : ياسيدى ، إذا انتهى الامتحان فالأوفق أن نسافر معاً إلى ضيعتنا التى بقويسنا فنخلو فيها بكتاب نقرؤه ، فقال : نعم الرأى هذا ، وسأستصحب معى ولدى حسناً ليشترك معنا فى القراءة . ثم لم يمض يومان حتى نقله الله إلى جواره ، ويسر له العزلة ولكن فى دار قراره ، فأصبت فيه مصيبة لم أصبها فى بعيد ولا قريب ، لما كان له علىّ من الفضل ، ولو لم يكن له علىّ سوى تصحيح العقيدة وتأديبى بآداب الحنيفية السمحة لكفى .

أما سبب اجتماعى به وقراءتى عليه فإنى كنت خرجت من المدارس بعد تلقى ما يتلقى بها من العلوم المعروفة وأنا فى سن العشرين . وقد علق بالعقيدة شىء من آثار التربية بهذه المدارس ، إلا أنى كنت مولعاً من الصغر بالإسلام ومحاسنه ، والمطالعة فى السيرة النبوية ، ومناقب الأصحاب والخلفاء الراشدين ، فكان ينشرح صدرى لأشياء ، وينقبض من أشياء تعرض لى فيها شبهات ، ثم كنت أعرض ما يظهر لى من مكارم الشريعة ومقاصدها على ما عليه الناس من البدع والمحدثات التى تمسكوا بها وجعلوها من الأصول الدينية ، فأجد

---

(١) أى زار المغفور له العلامة أحمد تيمور باشا .

التناقض والتصادم ، فصرت أتردد على كثير من كبار علماء الأزهر وغيرهم ، لعلى أجد عندهم مفرجاً ، فأراهم أحرص من العامة على هذه الخزعبلات ، حتى كدت أحكم بأنها من الدين ، وأن الأمر دائر بين شيئين ، فإما أن يكون الدين دين خرافات وخزعبلات تنفر منها الطباع السليمة ، وإما أن يكون ما نراه حقاً ، ولكن يمنعنا من قبوله إلحاد تأصل فى النفس . حتى أرشدنى بعض الأصحاب للمترجم ، فأخذت فى السؤال عنه من أهل العلم ، فكانوا ينفرونني منه ، حتى بالغ بعضهم — عامله الله بما يستحق — ورماه بالزندقة . فقلت : إذا كنت لم أجد طلبتى عند من تسمونهم بالصلاح والورع ، فلعلى أصيبها عند الزنادقة . ثم سعيت فى الاجتماع به ، وسألته القراءة عليه والاهتداء بهديه ، فقرأت عليه العلوم العربية والمنطق ، وأعدت عليه الصرف بتوسع ، وعلوم البلاغة . ثم قرأت طرفاً من الحكمة فى شرح الدوانى على هيا كل النور للسهروردى ، وشرح « رسالة الزوراء » وغيرهما . ولما رآنى مجداً فى التحصيل ، قرر لى درساً ثانياً بعد العشاء كنا نقرأ فيه كتب الأدب ونحوها . وأنا فى كل هذه المدة أستوضح منه ما أشكل علىّ فيحله لى ، فكان اجتماعى به ومصاحبتى إياه من أكبر نعم الله علىّ فى دينى .

وكثيراً ما كان يغضب منى ويؤنبنى إذا رأى منى تهاوناً فى الصلاة . فعليه رحمة الله تعالى .

مُصطفى السَّفطى

١٢٥٠ — ١٣٢٧ هـ

الشيخ مصطفى السفطى ابن مصطفى الفاكهانى السفطى ابن على السفطى ابن أحمد شلبي ، نسبة إلى سفط القطايا .

ولد بمصر القاهرة حوالى سنة ١٢٥٠ هـ وأرسل إلى المكتب فى السابعة من سنيه ، ثم تنقل من مكتب لآخر حتى حفظ القرآن الكريم ، واشتغل بتجويده فى الأزهر ، ثم شرع فى طلب العلم على شيوخ عصره ، فقرأ الكفراوى على أحد العلماء المبتدئين فى التدريس ، فكان يحفظ العبارات ولايفقه لها معنى . ولما أعيا عليه أمره ، وتعذر عليه إعراب أمثلة من غير هذا الكتاب أعاد قراءته ولكنه لم يستفد شيئاً . وكان بجوار داره دار السيد أحمد البقلى أحد المدرسين بالمدارس ، وله ولد أراد أن يقرأ القرآن مع المترجم ، فشكا المترجم له من تعسر النحو عليه ، فأشار عليه بشراء متن الآجرومية وأمره أن يحفظه ، ثم شرع فى إعرابه له على الطريقة الأزهرية فلم يستفد شيئاً أيضاً ، وشكا من ذلك للشيخ محمد الدمنهورى فأمره بترك طلب النحو كلِّيَّة ، حتى ينسى ما علق بذهنه منه ، ففعل واقتصر على الفقه ، فحضر ابن قاسم على الشيخ البيجورى ، وكان يتفهمه بخلاف النحو ، فمالت نفسه إليه فحضره مرة ثانية على الشيخ فتوح البجيرمى، ثم مرة ثالثة على الشيخ عبد الرحمن

القبانى أحد تلاميذ الشيخ فتوح المذكور ، وكان يطالعه لإخوانه المبتدئين .

ثم قرأ الكتب المتداولة بالأزهر ، ولم تفتر نفسه عن طلب النحو على ما لاقاه فيه من الصعوبة ، فصار يتردد على الشيخ محمد الدمنهورى ومعه متن الآجرومية فقط ، وصار الشيخ يقول له : اقرأ هذه الجملة ، ثم تفهم معناها بنفسك ولا تنظر لأقوال الشرح ، فيفعل ـ فتارة كان يخطىء وتارة يصيب . وسهل عليه فهم هذا العلم بهذه الطريقة . وكان أحد أصحابه مبتلى بمثل ما ابتلى به . وأخبره أن عند على أفندى العروسىّ شرحاً للرملى على الآجرومية فاستعاراه منه وقرآه معاً ، فكانا يفهمان ما فيه فهماً جيداً .

ثم اجتمع المترجم بإنسان كفيف البصر اسمه الشيخ على الفيومى له باع فى العربية ، فقرأ عليه مع صاحبه كتاب الشيخ خالد والأزهرية والقطر وابن عقيل . ثم أعاد المترجم القطر على الشيخ الشبينى بالأزهر ، وقرأ الخطيب على الشيخ على الأشمونى عم الشيخ محمد الأشمونى الشهير . وقرأ التحرير والمنهج على الشيخ مصطفى المبلط ، وهو آخر حضوره فى الفقه .

ثم قرأ علوم البلاغة بالأزهر ، وقرأ العروض مع إعادة البيان بالمطالعة مع بعض تلاميذ رفاعه (بك) كقدرى (باشا) وإبراهيم (بك) مرزوق .

وبعد ذلك انتخب مدرساً بالمدرسة التجهيزية سنة ١٢٩٠ ﻫ فى أول نظارة رياض (باشا) على المعارف . وكانوا إذ ذاك يقرأون بها الأنموذج للزمخشرى فى النحو ، ثم كلف بتأليف رسالة فى الصرف ففعل ، وقرأها للتلاميذ نحو ثلاث

سنوات ، ثم اتفق مع بعض المدرسين على تأليف رسائل فى البلاغة والصرف، بتوسع أبسط من الرسالة الأولى ، وقرأ بها سنوات .

ثم أمر بقراءة العروض والقوافى فى المدارس ، فاستحسن رسالة أبى الجيش وأقرأها . ثم وضع رسالة فى العروض والقوافى أتم بها ما أراده أبو الجيش ، ولكن وقع ما منعه من تقديمها للمدارس ، ثم كلف بوضع رسالة فى علم الرسم فوضع رسالته « عنوان النجابة فى قواعد الكتابة » وقرئت بالمدارس .

ونقل بعد ذلك للمدرسة الابتدائية المسماة « بالمبتديان » وكان ذلك سنة ١٣٠٦ ﻫ فألف بها رسالة بالاشتراك مع غيره فى المترادفات . ثم نقل إلى المدرسة السنية الخاصة بتعليم البنات فبقى بها سنتين ألف فيها رسالته « محاسن الأعمال » ولما عرضت على المجلس العالى بنظارة المعارف استحسنها أعضاؤه جداً وقالوا : الأولى أن تكون بيد المعلمات لا بيد المتعلمات .

ثم أخذت قوته فى الوهن ، وبصره فى الضعف ، لكبر السن . فعرض استقالته على النظارة ، مبيناً السبب ، فأحيل على الكشف الطبي ، ثم أحيل على المعاش .

وله من التآليف غير ما تقدم ، رسالة فى الصرف اسمها : « قرة الطرف » أوسع من المتقدمة ، وأخرى فى النحو وهى : « منحة الوهاب فى قواعد الإعراب » وهى نظم . ومن شعره :

الحمد لله لا فقر يذم ولا غنى يغر فلا حزنٌ ولا فرحُ

وليس لى مطمع فى النـاس يلجئنى

للذمّ والمدح إن ضنُّوا وإن سمحُوا

وأســأل الله حاجاتى فيمنحــنى

من فضـله فـوق ما أهوى وأقترحُ

ولـــه :

قـــد يسر الله أسباب المعاش لنـا

بالعقل ، والرزق موقوف عـلى القسم

ليعـلم العبـد أن الله يرزق من

يشاء بالفضـــل ، لا بالسعى والهمم

فيطلب الـرزق بالأسبـاب معتمداً

على الذى أوجـد الأشياء من عـدم

ولا يخـاف ولا يرجـو ســواه ولا

يحيـد عن منهـــج الأحكام والحـكم

وكان رحمه الله طيب الخلق ، حسن المعاشرة ، اعتكف فى داره بعد فصله من المدارس وعكف على الاشتغال بالعبادة ومذاكرة العلم مع من يسمر معهم من إخوانه وأخلائه أو استقلالا بنفسه . وكان فى مبتدأ أمره مولعاً بالسماع وتشبث بتعلم الموسيقى ، فلازم الشيخ محمداً شهاب الدين الشاعر المشهور، وكان

متقناً لهـا ، فأخذها عنه وأتقنها . ولـكثرة مطالعته لـكتب الأدب صارت له ملـكة أدبية ومعرفة بجيد الشعر ونقده .

ثم ما زال على هذه الحالة المحمودة حتى أرهقه الـكبر ، وضعف عن المشي ، فلزم داره ، لا يخرج إلا لصلاة الجمعة فى أقرب مسجد إليه ، ومع ذلك فلا يبلغه إلا بمشقة زائدة . وتوفاه الله إلى رحمته فى يوم الثلاثاء ٢١ رمضان سنة ١٣٢٧ هـ .

أحمد الرفاعي (١)

١٢٥٠ هـ — ١٣٢٥ هـ

اشتغل الشيخ أحمد الرفاعي بالحضور في الأزهر على مشايخ وقته، حتى تأهل للتدريس، فدرس الكتب المتداولة، وقرأ عليه كثيرون من كبار علمائه — كالشيخ محمد عبده والشيخ محمد بخيت، والشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوي، والشيخ محمد حسنين العدوي، والشيخ محمد النجدي الشرقاوي، وغيرهم. وقد أصبح في أواخر أيامه وليس في الأزهر إلا من هم من تلاميذه أو في طبقتهم، إلا الشيخ عبد الرحمن الشربيني والشيخ سليم البشري.

وكان من عادته ألا يقطع الإقراء طول السنة، ولا يسامح في أوقات المسامحات، ولا يقعده عن الاشتغال بالتدريس إلا المرض، فقرأ الكتب المتداولة مراراً، ومهر فيها بسبب كثرة اشتغاله، حتى صار المستعصي منها عنده بمنزلة السهل عند غيره. وأتقن فن التجويد فجعل شيخاً على المقارئ مدة طويلة.

ولما أقيم الشيخ حسونة النواوي شيخاً على الأزهر في المرة الأولى، ولم يجد له إقبالا من علمائه، صاحبه المترجم وتحبب إليه، ولازمه في غدواته

---

(١) مكتوب في الهامش بخط المؤلف: وله ترجمة في «اليواقيت الثمينة» للبشير. اهـ.

وروحاته . ثم لما انحرف الخديو السابق عباس بن توفيق عن الإمام الشيخ محمد عبده مفتى مصر والعضو بمجلس إدارة الأزهر ، وأراد كف يده عنه ، ساعده المترجم على ذلك وأخذ فى معاكسة الشيخ وتدبير المكايد له ، وتنفير الأزهريين منه ، وتقرب من الخديو ، وأكثر من الترداد على قصر القبة ومداخلة الحاشية ، حتى حظى عنده ، وأقبل عليه إقبالا عظيماً ، فلما عزل الخديو الشيخ سليم البشرى عن الأزهر فى ٢ ذى الحجة سنة ١٣٢٠ ه وأراد إرجاع الشيخ حسونه النواوى أو تنصيب الشيخ محمد بخيت ولم يرض النظار ، رشح المترجم واستدعاه وأعلمه بانتخابه له ، فعاد إلى داره جذلا وأشاع الأمر ، وهيأ السُّكَّر لشرب المهنئين ، والرمل الأصفر لفرشه بصحن الدار ، وكاد الأمر يتم له لولا أن بعض مبغضيه من المقربين للخديو صرفه عن توليته ، وذكر عنه هنات ، الله أعلم بها ، فعدل الخديو عن تنصيبه ، والتمس لنفسه مخرجاً من وعده الذى وعده به ، فأعمل بعض المقربين الحيلة ، واستدعوه بحضرة الخديو وسألوه عن قبوله التولية ، فقال لهم :

نعم ولانى مولاى الخديو وقبلت .

فأخذوا يذكرون صعوبة مراس أهل الأزهر ، والمشاق التى يعانيها شيخهم لإخضاعهم ، ولحوا له أنهم لايظنونه يقوى عليهم . فقال : ومن أهل الأزهر ؟ أنا أدوسهم بقدمى .

فقالوا : إنك ستكون مع الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان

العضوين بمجلس الإدارة ، فهل ترضى بأن يشاركاك فى الإدارة ؟ وكيف يكون شأنك معهما ؟

فقال : كلا ، لا أرضى أن يشاركانى ، بل أشترط لقبول التولية عزلها ، وهما عندى كافران لايوثق بهما !

فاستغرق الخديو فى الضحك وقال : شرطك لا يمكن تنفيذه ، ونحن نريحك من رياسة الأزهر ، ونعوضك عنها بشىء نجريه عليك من الأوقاف . فأسقط فى يده ، ورضى مرغما . ثم صرفوه .

ثم وقعت منه فى أواخر أيامه زلة . قيل إنه تصرف فى وقف بغير وجه شرعى ، ولكن الله لطف به ، فلم يقع له بسبب ذلك غير فصله من المقارىء ، وكثرت غمومه وهمومه لما لاكته الألسنة فى هذه المسألة ، فانقطع عن التدريس لمرض أصابه ، إلى أن توفى بعد ظهر يوم الاثنين ١٨ صفر سنة ١٣٢٥ هـ ودفن يوم الثلاثاء ، وأذنوا له على المآذن كالعادة فى موت كبار العلماء ، وقد بلغ من السن نحو خمس وسبعين سنة . وكان قصيراً دحداحاً خفيف الحركة ، رحمه الله وتجاوز عنه .

وله من المؤلفات : حاشيته على شرح لامية الأفعال لابن مالك ، طبعت بمصر .

علي محمد الببلاوي

١٢٥١ هـ — ١٣٢٣ هـ

هو السيد علي بن محمد بن أحمد المالكي الحسني الإدريسي ، من قرية ببلاو ، التابعة لعمل ديروط الشريف من أعمال مديرية أسيوط ، ولد بها في شهر رجب سنة ١٢٥١ هـ ، ونشأ بها لحفظ القرآن ومبادىء العلوم ، وحضر للأزهر سنة ١٢٦٩ هـ فقرأ به على شيوخ وقته كالشيخ محمد عليش ، والشيخ منصور كساب ، والسيد محمد الصاوي ، والشيخ علي مرزوق ، والشيخ إبراهيم السنجلفي ، والشيخ أحمد الإسماعيلي ، والشيخ محمد الإنبابي ، والشيخ علي بن خليل الأسيوطي ، وكان له به نوع اختصاص في الحضور ، وصحب مدة حضوره الشيخ حسونة النواوي ، فكانا يسكنان معاً ، ويحضران معاً الدروس إلا في درس الفقه ، فإن المترجم كان مالكياً والشيخ حسونه النواوي حنفياً .

ولم يزل يجد ويجتهد حتى تأهل للتدريس ، فدرس بالأزهر والمسجد الحسيني الكتب المتداولة ، وفي سنة ١٢٨٠ هـ سافر للحجاز فحج . ثم استخدم بدار الكتب بالقاهرة مغيراً ، حتى كانت الثورة العرابية ، واتجهت الأنظار لتنصيب المصريين في المناصب الكبيرة ، فساعده صديقه ومريده محمود سامي باشا البارودي على إقامته ناظراً على هذه الدار سنة ١٢٩٩ هـ فتمت له نظارتها بعد ما سعى كثيرون لها فلم يوفقوا .

ثم لما هدأت الأمور ، وانتهت الثورة ، كان المترجم يتوقع القبض عليه كما فعل بكثيرين، للعلم بأنه من صنائع البارودى ، ولـكن الخديو السابق توفيق رأى الاكتفاء بفصله من دار الـكتب وتعيينه خطيباً فى المسجد الحسينى ، ثم جعل شيخاً لخدمة هذا المسجد فى ثانى صفر سنة ١٣١١ ﻫ

ولما غضب الخديو على السيد محمد توفيق البـكرى نقيب الأشراف وشيخ الطوائف الصوفية وأمره بالاستقالة من النقابة فاستقال ، سعى للمترجم صديقه ورفيقه فى الحضور الشيخ حسونة النواوى وكان إذ ذاك رئيساً لمجلس إدارة الأزهر قبيل إقامته شيخاً عليه ، فأمر الخديو بتعيين المترجم نقيباً للأشراف فى ٦ شوال سنة ١٣١٢ . فاعتنى بضبط مدخولها وجدد من أوقافها ست دور بناها بجهة الحلمية ، وصار يصرف الاستحقاقات فى أوقاتها ، وسئل فى رياسة الخدمة بالمسجد الحسينى ، فقال : إن كانت النقابة تمنعنى من خدمة سيدنا الحسين لا أقبلها . فأبقى كما كان .

وأقام المترجم فى النقابة نحو ثمانى سنوات يجدد معالمها ، ويحيى ما درس منها ، حتى نقل منها شيخاً للأزهر . وكان سبب ذلك أن الخديو انحرف عن شيخ الأزهر الشيخ سليم البشرى ، وانتهى الأمر باستقالته يوم الأحد ٢ ذى الحجة سنة ١٣٢٠ ﻫ . وأراد الخديو إعادة الشيخ حسونة النواوى أو تنصيب الشيخ محمد بخيت المطيعى فلم يوافق النظار على ذلك ، فرشح الشيخ أحمد الرفاعى المالـكى وأعلمه بذلك ، وكادت تتم له لولا عوارض اعترضت ، ثم سعى الشيخ على يوسف صاحب صحيفة المؤيد ومن أكبر المقربين من

الخديو للشيخ المهدى ابن العلامة محمد المهدى العباسى ، فرد عليه بأنه لا يصلح لخموله وعدم توليته أموراً قبل الآن . فأجاب بأنه وإن كان كذلك فهو من بيت علم وغنى ، تربى فى نعمة فلا تطمح نفسه لشىء مما فى الأيدى ، وتدربه على الأمور قريب مدرك . فرضى الخديو به ، ولكن النظار لم يوافقوه عليه الأمور نقمها عليه ناظر الحقانية مدة ما أقامه عضواً بالمجلس الحسبى ، فحار الخديو وحنق ، وطلب دفتر أسماء العلماء فوقع نظره على اسم المترجم فارتضاه وجنح إلى توليته ، ولم يكن خطر على بال أحد ، وساعد الشيخ على يوسف على ذلك ليتمكن من ردّ السيد محمد توفيق البكرى إلى النقابة ، فتم له الأمر ورضى به النظار ، وأعيد البكرى إلى النقابة مضافة إلى ما بيده من رياسة الطرق الصوفية ، وصدر الأمر فى ٢ ذى الحجة بإقالة الشيخ سليم من الأزهر وتنصيب المترجم — فلما ذهب لشكر الخديو كالعادة استصحب معه ولده الأصغر السيد محمود ، والتمس إقامته شيخاً على المسجد الحسينى بدله كما أقيم أخوه الأكبر السيد محمد قبله خطيباً له ، فقبل ملتمسه ، وأجيبت رغبته .

وكان الخديو فى ذلك الحين منحرفاً عن الشيخ محمد عبده مفتى مصر والعضو بمجلس إدارة الأزهر وصاحب الكلمة العليا فيه ، فكان يظن أن المترجم يوافقه فى معاكسة الشيخ ومعارضته وعرقلة مساعيه ، فأخطأ ظنه ، لأن المترجم مال للشيخ كل الميل ، ووافقه فى كل مشروع ، واتحد به واندرج فيه ، حتى لم يكن له من الرياسة غير رسومها ، والكلمة كلمة المفتى .

ولما سئل فى ذلك ، اعتذر بأن الرجل لا يريد غير الإصلاح ، فلا يرى وجهاً

لمعارضته . فكان ذلك سبباً لميل الخديو عنه — بعد إقباله عليه .

ولما اعتزم الإمام محمد عبده نفض يده من الأزهر ، رأى المترجم أن الأمور لا تجرى على مرغوبه ، فاستقال من الأزهر يوم الثلاثاء ٩ المحرم سنة ١٣٢٣ هـ فأقيل يوم السبت ١٢ منه ، وأقيم بدله الشيخ عبد الرحمن الشربيني الشافعي ، واستقال أيضاً المفتى من مجلس الإدارة مرغماً .

وأقام المترجم بعد ذلك بداره التى بجهة المناصرة ، بعد أن رتب له الخديو خمسة وعشرين ديناراً مصرياً من الأوقاف الخيرية تصرف له كل شهر ، وظل مواظباً على تلاوة القرآن كعادته ، مقبلا على العبادة ، حتى ازداد به المرض سنة ١٣٢٣ هـ ، وتوفاه الله فى غروب يوم الجمعة الثالث من ذى القعدة من تلك السنة ، فشيعت جنازته بعد عصر يوم السبت ، وصلى عليه بالمسجد الحسينى وطيف به حول المقام كوصيته ، ثم دفن بقرافة المجاورين فى بستان العلماء . رحمه الله رحمة واسعة .

وله من المؤلفات رسالة اسمها : « الأنوار الحسينية ، على رسالة المسلسل الأميرية » ورسالة فيما يتعلق بليلة النصف من شعبان ، لولده السيد محمود تعليق عليها سماه : « عروس العرفان ، فى الحث على ترك البدع وشوائب النقصان ، على الرساله الببلاوية المتعلقة بليلة النصف من شعبان » .

حسونة النواوى

١٢٥٥ هـ — ١٣٤٣ هـ

ولد الشيخ حسونة بن عبد الله النواوى سنة ١٢٥٥ هـ ، فى قرية «نواى» التابعة لملوى من أعمال أسيوط ، ولما ترعرع حضر إلى الأزهر ، وتلقى به العلم على شيوخ وقته . وكان حضوره الفقه الحنفى على الشيخ عبد الرحمن البحراوى ، والمعقول على الشيخ محمد الإنبابى ، والشيخ على بن خليل الأسيوطى .

ثم تولى التدريس فى الأزهر ، وأحيل عليه تدريس الفقه بدار العلوم ومدرسة الإدارة التى سميت بعد ذلك بمدرسة الحقوق[1] ، مع درس آخر بمسجد محمد على بالقلعة . فكان له من مجموع وظائف هذه الدروس ما حسن به حاله .

وألف فى أثناء ذلك كتابه : « سلم المسترشدين » فى الفقه الحنفى لتلاميذ مدرسة الإدارة . وقد سطع نجمه وتألق ، وأصبح علماً خفاقاً يهتدى به الحائرون .

وحينما بدأ إصلاح نظام الأزهر وإدخال بعض العلوم الحديثة فيه كالرياضيات وتقويم البلدان والتاريخ وغيرهم ، يسعى الإمام الشيخ محمد عبده ،

---

(١) كلية الحقوق الآن .

ثم تأليف مجلس لإدارته ، مع إبقاء الشيخ محمد الإنبابى شيخاً له ، واختير الشيخ حسونة رئيساً لهذا المجلس ، بعد أن رشحه لذلك بعض كبار رجال الحكومة ممن سبق لهم التلقى عليه بمدرسة الإدارة . فأخذ فى إدارة أمور الأزهر حتى انحصرت فيه كلياتها وجزئياتها . ولم يصبر الشيخ محمد الإنبابى على ذلك ، واعتلت صحته ، فاستقال فى ٢٥ ذى الحجة سنة ١٣١٢ هـ وأقيل فى ثانى المحرم ١٣١٣ هـ .

وكانت تولية الشيخ حسونة مكانه ضد رغبة العلماء الأزهريين ، إذ كانوا يرون أن فيهم من هم أكبر سناً ، وأكثر علماً ، وأحق بالرياسة عليهم منه ، ولأنه جاء مؤيداً لتدريس الحساب والهندسة والجبر وتقويم البلدان وما إليها فى الأزهر ، وكانوا ينفرون منها بدعوى أنها علوم مستحدثة ، وما هى إلا علوم قديمة اشتغل بها المسلمون وألفوا فيها . وكانت تدرس بالأزهر قبل انحطاطه . وإنما نفروا منها لبعد عهدهم بها ، ولظنهم أنها من علوم الأفرنج ، وأنها ما أدخلت فى الأزهر إلا للقضاء على العلوم الشرعية أو تقليل الرغبة فيها .

كذلك كان من أسباب ضيق الأزهريين بتولية الشيخ حسونة شيخاً للأزهر ، أنه تولى خلفاً للشيخ الإنبابى المشهود له بالعلم والفضل والتقوى بين الخاصة والعامة . وقد أشاع بعض الحاقدين أن الشيخ حسونة مطبوع على الشدة والجفاء فى مخاطبة الناس ومعاملتهم ، وأنه بعد التولية داخله شىء من الزهو والخيلاء ، كما أشاعوا أنه ممالئ للإنجليز على هدم مكانة الأزهر بإدخال العلوم الجديدة فيه .

وفى عهد توليته على الأزهر ، وقعت حادثة الوباء التى امتنع فيها الطلبة بإغراء بعض متهوريهم عن الإذعان لأوامر الحكومة ، واعتصموا بالأزهر ، وقاوموا رجال الشرطة ورموهم بالأحجار ، حتى أصيب محمد ماهر (باشا) محافظ القاهرة بحجر أدمى وجهه ، فأحيط بهم ، ورموا بالرصاص ، فجرح بعضهم ، ثم قبض على زعمائهم ، وحكم على بعضهم بالسجن ، وعلى البعض الآخر بالنفى ، وأغلق رواق الشوام لأن حركة التمرد بدأت منه .

وانتهز هذه الفرصة أعداء الشيخ النواوى وانتصروا للطلبة ، وأخذوا يرمون الشيخ بالضعف والتهاون عن الدفاع عن حرمة المسجد والمحاماة عن أهله ، فرد الله كيدهم فى نحورهم .

ولما توفى الشيخ محمد المهدى العباسى سنة ١٣١٥ هـ ، أضيف منصب الإفتاء الذى كان يشغله إلى الشيخ النواوى بجانب رياسة الأزهر .

واستمر الشيخ النواوى جامعاً للمنصبين ، حتى وقع الخلاف الكبير أواخر سنة ١٣١٦ هـ بشأن إصلاح المحاكم الشرعية ، وعرض على مجلس شورى القوانين اقتراح بندب قاضيين من مستشارى محكمة الاستئناف الأهلية ليشاركا قضاة المحكمة الشرعية العليا فى الحكم ، فوقف الشيخ حسونة ضد ذلك الاقتراح ، وجرت مناقشة بين الشيخ ورئيس النظار مصطفى فهمى (باشا) انتهت بأن غادر الشيخ المجلس مغضباً محتجاً .

وأكبر الناس موقف الشيخ ، ولاسيما بعد أن سرى إلى الأذهان أن

الحكومة تريد هدم الشريعة بذلك المشروع ، ولكن النظار أحفظهم ما واجه به الشيخ رئيسهم ، وحرك ذلك ما كان فى صدورهم منه يوم أرادوا منع الحج احتجاجاً بالوباء ، واستفتوه ليجعلوا فتواه عصاً يتوكأون عليها كلما أرادوا منع الحج ، وظنوا أنه يوافقهم ، لكنه أخلف ظنهم ، وأفتى بعدم جواز المنع ، فلما كانت حادثته مع رئيس النظار ، شكوه إلى الخديو وطلبوا عزله .

وحاول الخديو حمل الشيخ على قبول الاقتراح بعد تعديله وتغيير ما يراه مخالفاً الشرع منه ، فأصر على الامتناع وقال : « إن المحكمة الشرعية العليا قائمة مقام المفتى فى أكثر أحكامها ، ومهما يكن من التغيير فى الاقتراح فإنه لا يخرجه عن مخالفته للشرع — لأن شرط تولية المفتى مفقود فى قضاة الاستئناف » .

وتألم الخديو من الشدة فى كلام الشيخ ، فمال لرأى نظاره فيه ، ثم أصدر أمره يوم السبت ٢٤ المحرم سنة ١٣١٧ هـ بعزل الشيخ عن رياسة الأزهر والإفتاء . وإقامة ابن عمه الشيخ عبد الرحمن القطب النواوى شيخاً على الأزهر ، والشيخ محمد عبده المستشار بالاستئناف الأهلى مفتياً .

ولما أذيع الأمر كثرت وفود العلماء والوجهاء على دار المترجم . وانطلقت الألسنة بمدحه والثناء عليه ، وتعلقت به القلوب ، وأقبل الناس عليه أى إقبال . وتحققوا بطلان ما اتهمه به خصومه .

والحقيقة أن الشيخ لم يعهد عليه ما يشين دينه ولا دنياه . بل عرف بالعفة وعلو الهمة ونقاء اليد . ولولا جفاء كان يبدو بعض الأحيان فى منطقه ، وشدة فيه يراها بعض الناس غلظة ، ويعدها البعض شهامة ، لحفظ ناموس العلم ، خصوصاً مع الكبراء الذين أفسدهم تملق علماء السوء ، وحملهم على الاستهانة بهذه الطائفة .

ولم يزل المترجم معتكفاً فى داره ، مقبلا على شأنه ، حتى انتقل إلى دار ابنتها بجهة القبة . ولم يقم ابن عمه فى الأزهر طويلا ، بل توفى فجأة بعد نحو شهر من ولايته سنة ١٣١٧ ﻫ . فولى على الأزهر الشيخ سليم مطر البشرى المالكى ، ثم استقال فأقيل يوم الأحد ٢ ذى الحجة سنة ١٣٢٠ ﻫ . وأراد الخديو إعادة المترجم أو تولية الشيخ محمد بخيت ، فلم يوافق النظار ، ثم تولى على الأزهر الشيخ على بن محمد الببلاوى المالكى نقيب الأشراف ، واستقال يوم الثلاثاء ٩ المحرم سنة ١٣٢٣ ﻫ ، فأقيل يوم السبت ١٢ منه . وفى اليوم التالى عين الشيخ عبد الرحمن الشربينى الشافعى شيخاً للأزهر ، ثم استقال فأقيل يوم الأربعاء ١٦ ذى الحجة سنة ١٣٢٤ ﻫ ورتب له ١٥ دينارا مصرياً فى الشهر من الأوقاف الخيرية ليكمل مرتبه ٢٥ ديناراً . وفى اليوم نفسه أعيد الشيخ حسونة النواوى شيخاً على الأزهر ، ولكنه لم يمكث فى المنصب طويلا ، بسبب اختلال الأحوال فى الأزهر ، فاستقال سنة ١٣٢٧ ﻫ . وأعيد إلى الأزهر الشيخ سليم البشرى ، ولزم المترجم داره بالقبة يزوره محبوه ويزورهم حتى آخر حياته . وكان خلال توليته الأولى قد عين عضواً دائماً

غير قابل للعزل بمجلس شورى القوانين ، ولهذا بقى فى المجلس بعد عزله من الأزهر والإفتاء ، حتى ألغى المجلس واستعيض عنه بالجمعية التشريعية سنة ١٣٣٢ هـ

وقد أصيب الشيخ فى أواخر أيامه بأمراض ووهن فى القوى وضعف فى النظر ، وانتقل إلى رحمة مولاه صباح يوم الأحد ٢٤ من شوال سنة ١٣٤٣ هـ ودفن بقرافة المجاورين .

عبد الله نديم

١٢٦١ هـ - ١٣١٤ هـ

هو : عبد الله نديم أفندى بن مصباح بن إبراهيم ، الأديب الألمعىّ ، والخطيب المفوّه ، نادرة عصره ، وأعجوبة دهره .

ولد أبوه ببلدة « الطيبة » بالشرقية فى شهر ذى الحجة سنة ١٢٢٤ هـ ثم انتقل إلى ثغر الإسكندرية ، فكان فى مبتدأ أمره نجاراً للسفن بدار الصناعة، ثم اتخذ له مخبزاً لصنع الخبز ، ومات بالقاهرة فى ٤ رجب سنة ١٣١٠ هـ .

وولد المترجم بالثغر المذكور فى عاشر ذى الحجة سنة ١٢٦١هـ و نشأ فى قلة من العيش ، ومالت نفسه إلى الأدب فاشتغل به واسترشد من أهله ، وطالع كتبه ، وحضر دروس الشيوخ بمسجد الشيخ إبراهيم . وكان قليل الاعتناء بالطلب ، غير مواظب على الدرس ، إلا أن الله وهبه ملكة عجيبة وذكاء مفرطاً ، فبرع فى الفنون الأدبية ، وكتب وترسل ونظم الشعر والزجل ، وطارح الإخوان ، وناظر الأقران . ثم بدا له أن يتعلم صناعة للكسب ، فتعلم فن الإشارات البرقية ، واستخدم فى مكتب البرق ببنها العسل ، ثم نقل إلى مكتب القصر العالى بالقاهرة ، وبقى به مدة عرف فيها كثيراً من أدباء القاهرة وشعرائها ، مثل : محمود سامى البارودى ، ومحمود صفوت الساعاتى ، والشيخ أحمد وهبى . ثم غضب عليه « خليل أغا » أغا القصر ، وكان فى سطوة لم يبلغها

كافور الأخشيدى ، فأمر بضربه وفصله ، فضاقت به الحيل ، ورقت حاله ، حتى توصل إلى الشيخ أبى سعدة عمدة « بداوى » فى الدقهلية ، وأقام عنده يقرىء أولاده ، ثم تشاحنا وافترقا على بغضاء . واتصل بالسيد محمود الغرقاوى ، أحد أعيان التجار بالمنصورة ، فأحسن منزله ، وفتح له حانوتا لبيع المناديل وما أشبهها . فكانت نهاية أمره أن بدد المكسب ورأس المال ، وجعل يجوب البلاد وافداً على أكابرها ، فيكرمون وفادته ويهشون لمقدمه ، لما رزق من طلاقة اللسان ، وخفة الروح ، وسرعة الخاطر فى النظم والنثر ، فيطوف مايطوف ، ثم يأوى إلى دار الغرقاوى بالمنصورة .

ثم عاد إلى طنطا سنة ١٢٩٣ هـ واتصل بشاهين (باشا) كنج مفتش الوجه البحرى إذ ذاك . ولاتصاله به سبب لا بأس من ذكره ، وهو : أن الباشا المذكور كان بينه وبين الشيخ محمد الجندى أحد العلماء بالمسجد الأحمدى صحبة وتزاور . وكان الشيخ يعرف غلاما حلاقا حسن الصوت ، فأمره مرة أن يغنى بحضرة الباشا ، فغنى بقول المترجم :

سلوهُ عن الأرواح فهى ملاعبه ... وكفوا إذا سلّ المهند حاجبهْ

وعودوا إذا نامت أراقم شعره ... وولوا إذا دبت إليكم عقاربهْ

ولا تذكروا الأشباح بالله عنده ... فلو أتلف الأرواح من ذا يطالبه؟

أراه بعينى والدموع تكاتبه ... ويحجب عنى والفؤاد يراقبهْ

إلى أن قال :

ولو أن طرفى أرسل الدمع مرة   سفيراً لقلبي ما توالت كتائبه

وكان كثيرا ما يتغنى بها ، فطرب الباشا طرباً شديداً ، واستظرف قائل الأبيات ، وتمنى رؤيته ، فأرسلوا له بالحضور ، فلما حضر إلى طندتا (١) وواجهه ، استقبح صورته ، إلا أنه أعجبه ظرفه وأدبه ، ومال إليه ، فاتخذه نديماً لايمل ، ورفيقاً حيث حل . فلما استقرت به النوى وملأ يده من الباشا ، استعداه على أبى سعده الذى كان يقرىء أطفاله ، وادعى أنه أخر له ثلاثين ديناراً من أجرة التعليم ، فأمر الباشا بإشخاصه إلى طنطا . وألزمه أن يدفع للمترجم مائة . فدفعها عن يد وهو صاغر .

وكان مجلس شاهين باشا محط رحال الأدباء ، ومنتجع الشعراء والندماء ، لايخلو من مطارحات أدبية ، ومساجلات شعرية ، وللمترجم بينهم المقام الأعلى ، والقدح المعلى . وحسبك ما وقع له من طائفة (الأدباتية) ، وهم مشهورون بالقطر المصرى ـ يستجدون الناس فى الطرق بإنشاد الأزجال والضرب على الطبل ، وأغلب أزجالهم مرتجلة فى مقتضى الحال . فكان للمترجم معهم يوم مشهود ، ذكره فى مجلة الأستاذ ، ومنها نقلناه . قال :

« اتفق لى أنى كنت بمولد سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه سنة ١٢٩٤ هجرية ، وكان معى السيد على أبو النصر ، والشيخ رمضان حلاوة ،

---

(١) هو الاسم الأصيل لمدينة « طنطا »

والسيد محمد قاسم ، والشيخ أحمد أبو الفرج الدمنهورى . فجلسنا على قهوة الصباغ نتفرج على أديب (١) وقف يناظر آخر . فلما فطن أحدهما لانتقادنا عليهما لفت أخاه إلينا وخصانا بالكلام ، فأخذا يمدحاننا واحداً فواحداً ، إلى أن جاء دورهما إلىّ ، فقال أحدهما يخاطبنى :

انعم بقرشك ياجسندى   والا اكسنا امال يا أفندى
إلا انا وحياتك عندى   بقى لى شهرين طول جوعان

فقلت على سبيل المزح معه :

أما الفلوس أنا مديشى   وانت تقول لى مامشيشى
يطلع علىّ حشيشى   أقوم أملص لك لودان

ثم أخذنا نتبادل الكلام نحو ساعة ، حتى غلبا عندما فرغ محفوظهما ، فلما قمنا وتوجهنا إلى منزل المرحوم شاهين باشا ، وكنا نازلين عنده جميعاً ، أخبره السيد على أبو النصر بما كان منى مع الأديبين ، فلما أصبحنا استدعى شاهين باشا شيخ الأدباتيه وطلب منه أن يستحضر أمهر من عنده ، ووعده أن يعطيهم ألف قرش إن غلبونى ، فان غلبتهم ضرب كل واحد منهم عشرين كرباجاً . فرضى بذلك . واستحضر الشيخ داود ، والحاج إسماعيل ، الشهيرين بعمل الزجل وإنشاده ارتجالا فى أى غرض ، واستحضر معهما ستة من أشهر الحفظة المقتدرين على الارتجال أيضاً ، وعقد الباشا لذلك مجلساً أمام بيته

(١) يقصد أنه واحد من طائفة « الأدباتية »

بطنطا ، وأجلسنى بينه وبين المرحوم جعفر (باشا) مظهر . وقد وقف الناس ألوفا ، والعساكر تدفعهم عنا ، ثم ابتدأ الشيخ فقال :

أول كلامى حمـد الله ثم الصلاة على الهادى
ماذا تريد يا عبـد الله قـدام أميرنا وأسيادى

فقلت :

أنا أريـد أحمـد ربى بعد الصلاة على المختار
وان كنت تطمع فى أدبى أسمعك حسن الأشعار

فقال :

دعنـا من الأدب المشهور وادخل بنا باب الدعكه
ندخل على اسيادنا بسرور ونغنم الخير والبركه

فقلت :

هيا احتكم فى البحر وشوف فن النديم ولا فنك
دلوقت تسمع يا متحوف أحسن أدب وحياة دقنك

فقال : هات مدح فى الحضرة على قد :

تعمل عمايلك يامنصان يا ابـو الشفيفه العسليه
ياصاحب الحجل الرنان ودى الأمـور الحيليـة

ماذا تريد من دى الولهان قل لى واسعف
أحسن أنا من خمر الحان قصدى أرشف
وإن كنت تسمح يا ابو الخير يبقى الوصال (الدوا) ليه

فقلت :

المجلس العالى محمود فيه الأماره والأعيان
واليوم دايوم بابن مشهود خلعت عليه حلة إحسان
شاهين باشا فيه موجود حظه أزهر
أما المدير هذا المسعود جعفر مظهر
فإنه فى الناس ممدود من ضمن أرباب العرفان

فقال :

القصد منك يا نديمنا تعمل زجل هيله بيله
إلا انت دلوقت غريمنا قصدى احدفك بالقلقيله

فقلت :

انت صغار لسه نونو وفى الزجل منتش مجدع
اتبع نديم تلقى فنونو تأتيك من المعنى الأبدع

وبعد أن دار الكلام بينى وبينه فى كثير من هذا الوزن، قام الشيخ داود وقال :

قصدى اقول كلام — يحكى لضمات الزهور — هات اشجنا بنظام من فن « كان وكان »

ادخل بنا لمعان — كالبكر من خلف الستور — فى قلب متحلى
فى النظم بالإتقان

فقلت :

اسمع كلام نديم — من طيه كل السرور — واعقل نصيحة خبير
يدعوك للعرفان

لاتستخف بخصم — لو كان من أوهى الطيور — واصفح فكل صفوح
يعلو على الأعيان

واخش اللئيم دواما — فاللؤم داع للشرور — واحفظ مودة حر
فى عهده ماخان

هذى نصيحة حر — إن قلت زانت للنحور — والفكر فكر ذكى
لايعرف النسيان

فأعرض عن « كان وكان » عجزاً منه . وقال : هات فخرا على قد :

يا صبا نجدٍ ورامه هجت للمشتاقِ وجدا
كل صب فى غرامه ما اشتكى فى الليل سهدا
والهوى أحرق ضرامه كل أحشائى وقلبى

فقلت :

فخر مثلى فى بيانه والغبى يفخر بماله

والأدب أحسن صفاتى فالذكى حسنه كماله
كل قول المرء يفنى غير محمود المآثر

(دور)

قد كان لى سعد السعود خدام لما التقينا فى الطريق
وقلت بالحاجب أروح قدام وانت ورايا ياصديق
فصرت أنظر للقوام بالقام وعادل القد الرشيق
حتى ملكت الروح واروحاه لو يرجع اليوم ينظر

(دور)

قال المدلع عاشقى : ما الحال ؟ جفنى جرح منك الفؤاد
كم من شجى مثلك سباه الحال حتى غدا خصم الرقاد
قلت ارحموا من فى التصابى مال عن كل أبواب الرشاد
قال إن ترم منى الوصال وصفاه هات اليمين الأكبر

ثم طلبت منه أن يأتى باليمين من هذا الوزن ، فوقف ، فقصدت الحاج إسماعيل ، فوقف . فطلبت من الستة ، فوقفوا ، فقال المرحوم شاهين باشا : نحسبها لك واحدة .

ثم قال الشيخ : هات غزلا بمعنى بديع على قدّ :

أهيف رشقنى بقوام — مثل المران — والوجد عذبنى بناره

فقلت له : أقول تحميلة ، وتقولون أخرى من جنسها . فقال : هات . فقلت :

يا اهل الصبابه ياعشاق — سلوا المشتاق — فالعشق ماله غير أهله

فوقف الجميع ، ولم يستطع واحد منهم الدخول معى فى هذا المضيق . فقلت ومشيت إلى آخر الأدوار الآتية :

أشكو إليكم أحزانى بل هجرانى من أهيف صادنى نبله
أهيف بنظره فى خده خدنى عبده وجت سقامى تشهد له
وادمعى نزلت تجرى تنظر صدرى رأت فؤادى بيرقص له
قالت لو اتلفت عيونى قال : سيبونى سيد الملاح يعرف شغله
ما يعرف العشق الأجلاف يا اهل الإنصاف ما للعذول يكثر عذله
عاقل رأى مجنون يشرب حتى يطرب فراح شعوره مع عقله

إلى أن قلت :

لما رآه سلب الألباب خاف الأسباب وراح يعضعض فى نعله
وصرت وحدى متهنى أفضل اغنى للحب إن شخشخ حجله
أرعى النجوم والنار تكوى قلبى المشوى والوجد كتفنى بحبله
قد بعت روحى للفتان من غير أثمان وبعت ملكى من أجله
كيف الخلاص والقلب كسير والصب أسير والجفن يجرحنى بنصله

ثم قلت :

يقول لى يا مسكين مالك بين حالك عمى يكون عندى حله
فقلت ياسيدى عبدك من نار خدك حرق اللهيب جسمه كله
أخذت حبيب قلبي النخوه بعد القسوة وجه يغازلنى بدله
خطر ولكن فى قلبى بهجة لبى وجاد لمسكينو بوصله
من فرحتى هرولت ابكى من غيرما اشكى والدمع من كترو بلّه
حركت قلبه للرحمه من دى الفحمه فجاد بياسمينو وفله
فقلت : أحييت الفانى يا إنسانى الله يجازيك من فضله
وكل ما يرجو العاشق غير الفاسق والسر لا يحسن نقله

وإلى هنا صفق الباشا والحاضرون ، ثم عدنا للزجل المعتاد بما يطول ذكره ، فإن الشيخ رمضان كتب من زجل هذا المجلس خمسة كراريس ، وكله محفوظ عندنا لم يضع منه شيء موقد استمرت المناظرة ثلاث ساعات » .

*
* *

ولقد سألت بعض من حضر هذا المجلس عما كتبه المترجم ، فأنكره . وأخبرنى أنه تغالى فيما كتب ، وذكر أناساً لم يكونوا حاضريه .
والله تعالى أعلم .

ثم اتصل المترجم بالتترنجلى (بك) فجمله وكيلا على ضياعه ، ثم لحق بالإسكندرية مسقط رأسه ، والمنبت غرسه ، وكان منه ما ستقصه عليك .

تلك خلاصة ترجمته فى أول أمره ، ومبتدأ خبره . وكان القطر المصرى فى أثناء ذلك فى اضطراب ، وهرج ومرج ، من اختلال الأحوال ، وفساد الحكام ، واعتلاء الإفرنج على الأهلين ، وقد سئم الناس حكم الخديو إسماعيل وتمنوا زوال دولته . . .

فلما وفد المترجم على الثغر رأى لفيفاً من الشباب ألفوا جمعية « مصر الفتاة » يتآمرون فيها سراً ، خوفاً من بطش الخديو . فعرف منهم البعض ، واشتغل بالكتابة فى صحف الأخبار ، فأعجب الكتاب بمقالاته ، واقتدوا به فى تحسين الإنشاء ، وكان سقيماً منحطا فى ذلك العهد . ثم سعى مع جمع من الأدباء ، فألفوا جمعية سموها « الجمعية الخيرية الإسلامية » سنة ١٢٩٦ هـ آخر سنى إسماعيل فى الحكم ، وجعلوه مدير مدرستها . ثم عزل الخديو وتولى ابنه توفيق . ففرح الناس وظنوا انفراج الأزمة — وجد المترجم واجتهد فى إنجاح مسعاه فى الجمعية ، حتى حمل الخديو على زيارة مدرستها ، فزارها يوم امتحان تلاميذها ، وجعلها تحت رعاية ولى عهده عباس . وفتحت لهم أبواب المدرسة البحرية ليدرسوا بها ، وقررت الحكومة مائتين وخمسين ديناراً فى السنة مساعدة لهم .

وطفق المترجم يؤلف القلوب ، ويحض الأهلين على الاتحاد بالمقالات والخطب ، ينفثها قلمه ولسانه ، وألف قصة سماها : « الوطن وطالع التوفيق » وأخرى سماها : « العرب » شرح فيهما ما كانت عليه حالة القطر وما طرأ عليه ، ثم مثلهما هو وتلاميذه بأحد ملاعب الثغر بحضور الخديو ، فكان

لها تأثير كبير فى النفوس ، واشتهر المترجم ، وعلا كعبه ، ولهج الناس بذكره .

ثم طرأ فساد على الجمعية نسبوه إليه فانفصل منها . وكان قد شرع فى إنشاء صحيفة سماها : « التنكيت والتبكيت » مزج فيها الهزل بالجد . وظهر أول عدد منها فى ٨ رجب سنة ١٢٩٨ هـ ، وظهر فى أثناء ذلك وميض الثورة العرابية من خَلل الرماد ، فوافقت هوى فى نفس المترجم ، وضمه قادتها إليهم ، وشدوا أزرهم به ، فملأ صحيفته بمحامدهم ، ودعا إلى القيام بناصرهم ، وخطب الخطب المهيجة ، ونظم القصائد الحماسية ، وندب الوطن ورثاه ، وحض على الاجتماع والتكاتف ونبذ أضاليل الأفرنج ، فأثرت قالته فى النفوس ، وأشربتها القلوب .

وانتسب المترجم إلى الإمام الحسن السبط ، رضى الله عنه. وإن كان بعض من عرفوه ينكرونها . ثم أوقف صحيفته بعد أن ظهر منها ثمانية عشر عدداً ، آخرها تاريخه ٢٣ ذى القعدة سنة ١٢٩٨ هـ وكانت أسبوعية تظهر يوم الأحد ، وانتقل إلى القاهرة وهى جذوة من نار ، وغير اسم صحيفته بأمر من عرابى كبير الثوار ، فسماها : « الطائف » تيمناً باسم بلدة بالحجاز مشهورة ، وتفاؤلا بأنها تطوف المسكونة كما جابتها جوائب « أحمد فارس » . واسترسل المترجم مع رجال الثورة حتى صار جُذَيلها المحكك ، وعُذَيقها المرجب ، ولقبوه بخطيب الحزب الوطنى ، وقام سراة القطر وأعيانه يعقدون المجتمعات ويولمون الولائم للعرابيين ، ويدعون المترجم للخطابة ، وكانت له بها المواقف المشهودة، والأيام المعدودة ، حتى قامت الحرب بالإسكندرية بين الانكليز والمصريين يوم

الثلاثاء ٢٥ شعبان ١٢٩٩ هـ فسافر إليها مع جماعة من رؤساء الجند وبات بها ليلة ، ولحق بعرابى وقد رجع إلى كفر الدوار ، ثم انتقل معه إلى التل الكبير وهو ينشىء صحيفة « الطائف » بالمعسكر ، فيضمنها أخبار الانتصار ، ويحشوها بما فيه تهدئة للأفكار ، حتى وقعت الوقعة الكبرى على المصريين بالتل الكبير ، فجاء مع عرابى وعلى الروبى إلى القاهرة يوم الأربعاء ٢٩ شوال من السنة المذكورة ، واتفقوا على إرساله إلى الإسكندرية بكتاب يطلبون به مطلبا من الخديو ، فسافر به يوم الخميس ، ولما وصل إلى كفر الدوار بلغه القبض على زعماء الثورة ودخول الإنكليز القاهرة . فعاد إليها ليلا ، وبقى فى داره بجهة العشماوى إلى الصباح ، وخرج مع والده وخادمه فركبوا عجلة وقصدوا بها بولاق ، ورآه شاهين فؤاد المفتش بالمصرف العقارى وهو من مماليك القصر السابقين ، فظنه غير مطلوب ، ولولا ذلك لقبض عليه . وودعه أبوه عند وصوله إلى بولاق واختفى مع خادمه تسعة أعوام لايهتدى لمكانه ، حتى أعيا الحكومة أمره ، فجعلت ألف دينار لمن يرشد إليه ، وبثت عليه العيون فلم يظفروا بطائل . وأعيتهم الحيل ، فحكم عليه بالنفى من القطر المصرى مدة حياته ، ويئس أصحابه من وجوده ، وأشيع القبض عليه وخنقه أو موته حتف أنفه أو هربه إلى بلاد الإفرنج ، ولا غرو إذا عد اختفاؤه من الأمور الغريبة فأمره غريب من أوله —

وكان حين ودع أباه ببولاق قصد دار صديق له يدعى الشيخ مصطفى فأقام بها أياما ، ثم غير زيه فلبس ثوبا من الصوف الأحمر (زعبوطاً) واعتم بعمامة حمراء وسدل على عينيه منديلا ، وأخفى شاربه ، وأعفى لحيته ، فتغيرت هيئته ،

ونزل مع خادمه فى سفينة قاصدة «بنها» ومنها إلى «منية الغرقى» بقرب طلخا، وقصد الشيخ شحاته القصبى من مشايخ الطريقة الصاوية كان أخذ عليه العهد، وكان مشهوراً بالصلاح والتقوى، فلم يعرفه لتغير شكله. فجلس هنيهة حتى انصرف من فى المجلس، فعرّفه حاله، وأقام عنده ثلاثا، ثم أشار عليه الشيخ بالانتقال معتذراً بكثرة الواردين، فتحول إلى دار أحد الدراويش الموثوق بهم، فآواه شهراً ثم قصد بلدة أخرى، وطوحت به الطوائح ولاقى الأهوال.

وحدث أنه نزل مرة عند قوم فأخفوه فى قاعة مظلمة يتوصل إليها من سرداب طويل شديد الظلمة، ترشح أرضها بالماء لانخفاضها وقربها من خليج مار بجانب تلك البلدة، وكان لايتمكن من الكتابة والمطالعة إلا على مصباح صغير من زيت الحجر وهو الغاز أو الجاز كثير الدخان، فقاسى الشدائد بهذا المكان تسعة أشهر. ولما خرج منه كاد لايبصر الطريق لما غشى عينيه. وكان كلما حل أو ارتحل يغير اسمه وحليته، فتارة يبخر لحيته بالكبريت حتى تبيض، ويخضبها بالحناء أخرى، وغير اسم خادمه حسين فسماه صالحاً. وظنه الناس شيخاً من الصلحاء، حتى لقى مرة بعض من يخشاه وحادثه فستره الله وشمله بعنايته حتى فارقه. ثم ألقت به يد الأقدار إلى بلدة «العتوة القبلية» فى الغربية، فاختفى عند عمدتها الشيخ محمد الهمشرى فأكرم مثواه، وأقام فى داره ثلاث سنوات ونيفا، تزوج فيها وولدت له بنت. وماتت ولم يشعر به أحد، وزوج خادمه حسينا بأخت زوجته. ثم مات فى أثنائها رب الدار، وكان شهماً ذا مروءة كبيرة، وله امرأة مثله شهامة ومروءة، فاستخضرت أكبر

أولادها ، وأعلمته أن ضيفهم المختفى عندهم هو «عبد الله نديم» طريد الحكومة ، وسألته : هل يطمع فى الجُعْل ويسلمه ؟ أو يكون كأبيه فى حفظ الجار وحماية الذمار ؟ ! فاهتز الولد لقولها ، وأبى إلا أن يقتدى بأبيه فى الكرم . ولعمرى إن ما آتته تلك الأسرة من مكارم الأخلاق وعلو الهمة لمما يندر مثله فى هذا الزمن .

وتنقل من بلدة إلى أخرى ، وماتت زوجته ، فذهب إلى القرشية نزيلا عند أحمد (باشا) المنشاوى ، فكان يجتمع به صديقه القديم الأديب محمد أفندى التميمى وغيره ، وتزوج هناك ببنت مصطفى مِق من أهل المحلة الكبرى ، إلا أنه لم يحمد المقام ، فانتقل إلى دار التميمى فى شهر ذى العقدة سنة ١٣٠٥ هـ فأقام بها شهراً ، ثم سافر إلى « الدلجمون » فى البحيرة فلم يمكث بها غير أسبوع . وعاد إلى الغربية ، وقصد « البكاتوش » فكان يقيم تارة عند عمدتها الشيخ إبراهيم حرفوش ، وينتقل تارة إلى دار جاره أحمد جوده ، وكان رجلا قوى الجنان ، لا يبالى بظلام الليل أنَّى سار فيه . فصار يصحب المترجم إذا أراد الانتقال فى الليل الحالك ، ويتجشم معه أضيق المسالك . وجعل المترجم إقامته بين « البكاتوش » و « شباس الشهداء » ، ينزل فيها عند « محمد معبد » الحلاق ، فيلاقى عنده من الكرم والمروءة مالقيه إبراهيم بن المهدى عند ذلك الحلاق المشهور مدة اختفائه من المأمون . ولم يزل كذلك حتى انتقل عند صديقه وصديقنا الأديب الكامل الشاعر الناثر محمد شكرى المكى كاتب المركز بدسوق الذى أخبرنى قائلا : بينما أنا بالمركز يوماً إذ دخل علىّ الشيخ إبراهيم حرفوش عمدة البكاتوش ،

فسلم وجلس ، ولمحت منه أنه يريد أن يسر إلىّ أمراً ، فترقب خلوّ المكان ، ثم أخبرني أن شخصاً عنده مشتاق إلىّ ، وهو صديق لى لم يرنى منذ ثمانى سنوات فاستخبرته عنه فانصرف ولم يخبرنى به . ثم صار يتردد علىّ بعد ذلك يذاكرنى فى هذا الصديق ولا يبوح باسمه ، حتى وثق منى ، فأخبرنى أنه مختف واسمه «عبد الله» . فقلت : لعله عبد الله نديم ؟ فقال : نعم . فكتبت له بيتين من نظمى ، وسألته توصيلهما إليه ، وهما :

ولقد نذرت إذا لقيتك سالماً لأقبلنّ مواطىءَ الأقدام
ولأثنينّ على مجاياكَ التى حثت على التحرير والإقدام

فذهب بهما ، وعاد لى بعد يومين بقصيدة من نظم المترجم بخطه عدتها مائة بيت من البحر والقافية ، يتشوّق فيها إلىّ ويذكر ما لاقاه أيام الثورة والاختفاء ، ويتمنى لو فرج الله عنه فيفعل كيت وكيت ، وكأنه نسى نفسه وما هو فيه من الضيق . فكتبت له أبياتاً أطلب الاجتماع به . وبعد أسبوع حضر لى إبراهيم حرفوش ومعه ورقة بخط المترجم يطلبنى فيها إليه يوم الجمعة بشباس الشهداء ، فذهبت فى الميعاد ، فوجدت محمد معبد الحلاق ينتظرنى ، فذهب بى إلى داره وهى دار صغيرة على تل ، وقد أنزلوا المترجم فى مكان عالٍ لا سلم له ، فصعدت إليه على سلم من الخشب رفعوه بعد صعودى ، فلما التقينا ووقعت العين على العين تعانقنا طويلا ، وأدركتنى عليه شفقة ، فقبلت يده ، ثم جلسنا نتحادث فى القديم والحديث ، وأطلعنى على كتبه التى ألفها

مدة الاختفاء ، منها : بديعية له شرحها شرحاً لطيفاً لم يكمله ، وثلاثة دواوين من نظمه ، وجزء من « كان ويكون » ثم فارقته وقت العصر .

* * *

وانتقل المترجم عند صديقه المذكور بزوجته وكتبه ، مدعياً أنه : ابن عمه أتاه زائراً من الحجاز ، وسمى نفسه علياً اليمنى ، فمكث نحو ستة أشهر . ثم انتقل بمفرده إلى شباس الشهداء ، ولحقت به زوجته بعد عشرين يوما . ثم أعادها بعد خمسة وعشرين يوماً إلى دار شكرى (أفندى) بدسوق ، ولحقها فمكثا ستة أشهر أخرى ، ثم عاد إلى البكاتوش عند أحمد جوده ، وكانت زوجته هذه تسىء إليه وتغاضبه ، فجمعت عليه مع ضيق الاختفاء سوء معاشرة الأهل ، حتى ضاق ذرعه منها مرة ، وهم بإظهار نفسه للحكومة ، ثم تراجع وأصلح أمره معها ، ولكمته مرة على فمه فكادت تسقط ثنيتيه من الفك الأدنى ، فربطهما بخيط من الحرير . وكان خادمه حسين مختفياً مع زوجته ببلدة الجميزة التابعة لمركز السنطة ، فطلبت زوجة المترجم الذهاب إليه فأذن لها ، فلما استقرت عنده تشاحنت مع زوجته ، وكاد الأمر ينفضح ، فأسرع الخادم لسيده بالبكاتوش مستغيثاً ، فانتقل المترجم إلى الجميزة وأصلح بينهما ، وبقى هناك نحو شهرين فاستأنس وطاب له المقام ، وعرفه عمدة البلدة فتغاضى عنه ، وكتم أمره ، فكان يخرج للتنزه على غير عادته فى الاختفاء ، فيلتف عليه العمدة وبعض أناس من البلدة ، وهو يقرأ لهم ويعظهم ويسامرهم وهم مبتهجون به .

وكان يتردد على البلدة رجل يقال له « حسن الفرارجى » كان منتظماً

فى العسكر ، ثم استخدم جاسوساً سرياً ، فلما بصر بالمترجم أنكر حاله لما رآه عليه من سيما الاختفاء ، ورجح أنه « عبد الله نديم » ، فكتب إلى الديوان الخديوى ينبئهم بوجود رجل من العرابيين مختف بالجيزة ، وأسرع إلى ديوان الداخلية فأوضح لهم أمره ، فأعطوه ورقة بحليته ، فلما تحقق منه أخبرهم به ، فأمروا بالقبض عليه ، وحضر من طنطا محمد أفندى فريد وكيل الحكمدار ومعه نفرٌ من الشرطة ستروا ملابسهم بثياب أخرى ، فأحاط بعضهم بالبلدة متفرقين ، وصعد وكيل الحكمدار مع الآخرين على تل مشرف على أفنية الدور ، وأحس المترجم بتلك الحركة ، فأوجس فى نفسه خيفة ، وأراد الانتقال إلى دار أخرى ، فأخذ عَيْبَته على كتفه وصعد على سطح المكان ، فأبصره الذين على التل ، فصاحوا وصوبوا بنادقهم عليه ، وأمروه بالنزول فنزل ، ثم أحاطوا بالدار ، وطرقوا الباب طرقاً عنيفاً ، وأيقن المترجم أنه مأخوذ لامحالة ، ففتحه لهم ، وواجههم متجلداً ، فسأله محمد أفندى فريد عن اسمه فقال له : « سبحان الله ! أتجهل اسمى وأنت مأمور بالقبض علىّ ، أنا عبد الله نديم ، ذو الذنب العظيم ، سلمت أمرى لله » . فقبضوا عليه هو وخادمه ، وأعماهم الله عن كتبه وأوراقه ، ولولا ذلك لأصابه شرٌ عظيم بسبب أهاجيه فى الخديو وأسرته ، وكان القبض عليه فى ٢٩ صفر سنة ١٣٠٩ ، ولم ينل الواشى به شيئاً من الجُعل لفوات الأجل المضروب للمكافأة . ثم استاقوهما إلى المركز ، وسألوه عن اختفى عندهم ، فلم يقر بأحد ، وسألوا خادمه وضربوه ، فأقر بالبعض ، ونقلوهما إلى طنطا ، فسجنا

بعض أيام ، ووكيل النيابة يوالى سؤالها ، وانتهى الأمر بعفو الخديو عنه وعمن آواه ، ونفيه خارج القطر ، فاختار يافا ثغر القدس الشريف ، ووصل إليها فى غروب يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول ، ونزل عند السيد على (أفندى) أبى المواهب مفتيها ، ولما دخل داره وعرفه بنفسه، قام واعتنقه ، وضحك وبكى . فأقام عنده شهراً ، ثم اتخذ له داراً ، وعرفه أعيانها وفضلاؤها ، وأكرموه وواسوه ، جزاهم الله خيراً . ثم رحل رحلته إلى نابلس وسبطيه وقلقيلا وغيرها من البلاد الفلسطينية . واجتمع بطائفة السامرة واطلع على كتبهم ومعتقداتهم كما رأيته بخطه فى كتاب أرسله لأحد أصدقائه فى مستهل رمضان من تلك السنة ، ولم يزل مقيماً بيافا حتى مات الخديو توفيق ، وتولى ولده عباس فى جمادى الثانيــة ، فعفــا عنه وأباح له العــود إلى مصر ، قال فى آخــر ذلك الــكتاب : «عزمنا على الحضور بعدالعيد إن شاء الله تعالى ، فإن موسم سيدناموسى الكليم يعمل فى نصف شوال ، ولا أحضر حتى أزوره مرة ثانية ، فإنه صاحب الأمر بالعفو عنى ، وإن كان الظاهر خلافه ، وذلك أنى عند دخولى حضرته الشريفة أنشدته فى الحال :

رجــوتك يا كليم الله حاجا   أرجيها وقــد حققت فضلك
فقل لى مثلما لك قَبْلُ أوحى   إلهُ الخلق : قد أوتيت سؤلك

فرأيته ليلا يقول لى : قم روِّح . ثلاثا ».

* * *

ولما عاد إلى مصر استوطن القــاهرة ، وأنشأ مجلة « الأستاذ » فى شهر صفر سنة ١٣١٠ ، فبرزت موشحة ببديع مقالاته ، وغرر أزجاله وموشحاته .

وبدت الوحشة فى أثناء ذلك بين الخديو والإنكليز ، وكان ما كان من عزل صنيعتهم مصطفى فهمى كبير الوزراء ، ومما كستهم فيما يريدون . فقام المترجم يستنهض الهمم ، ويحض على مؤزارة الخديو ونبذ طاعة سواه ، وكتب فى ذلك المقالات الطويلة « بالأستاذ » ، حتى أحفظ الإنكليز ، وخشوا من اتساع الخرق لمكانته السابقة فى النفوس ، وانتهزها حساده فرصة فسعوا بما سعوا ، ولفقوا له ما لفقوا ، فأوقفوا مجلته فى شهر ذى القعدة من السنة المذكورة ، وأعادوه إلى يافا منفيا ، بعد أن أعطوه أربعمائة دينار ، وأجروا عليه خمسة وعشرين كل شهر ، واشترطوا ألا يكتب بشأن مصر كلمة ، ولم ينفعه الخديو لقصر يده .

فلما استقر المترجم بيافا لم يسلم من السعاية به لدى السلطان ، فأمر بإبعاده ، فعاد إلى إسكندرية متحيراً ، وقد لفظته البلاد لفظ النواة ، فسعى له الغازى مختار (باشا) ومساعده حتى قبله السلطان عبد الحميد بدار السلطنة ، واستخدمه فى ديوان المعارف ، ووظف له خمسة وأربعين ديناراً مجيديا فى الشهر ، فأمضى بها بقية أيامه شريداً عن وطنه ، بعيداً عن أهله وخلانه ، حتى اشتدت عليه علة السل ، فاتى حمامه فى الرابع من شهر جمادى الأولى سنة ١٣١٤ رحمه الله .

ودفن بمقبرة يحيي أفندى فى بشكطاش ، وضاعت مؤلفاته ودواوينه ، ولم يظهر منها إلا جزء من « كان ويكون » كان يطبعه ذيلا للأستاذ ، وكتاب آخر نسبوه إليه اسمه « المسامير » محشو بالهجو القبيح فى الشيخ أبى الهدى الصيادى نزيل دار السلطنة .

* * *

ومن تأمل بعين الاتعاظ فى تقلب الأحوال بالمترجم وما ذاقه من حلو الزمان ومره ، وقاساه مدة الاختفاء ، ثم النفى حتى مات غريباً طريداً ، حق له العجب ، وعرف كيف يعبث الزمان بأهل الفضل من بنيه .

ونشأ المترجم فقيراً كما قدمنا ، وعاش فى قلة ، فإن أصاب شيئاً بدّده بالإسراف . وكان فى أول أمره يرتدى الملابس الأفرنجية الملونة . فلما ظهر بعد الاختفاء لبس الجبة والقفطان ، واعتم بعمامة خضراء إشارة إلى الشرف . وكان شهى الحديث حلو الفكاهة ، إذا أوجز ود المحدث أنه لم يوجز . لقيته مرة فى آخر إقامته بمصر ، فرأيت رجلا فى ذكاء إياس ، وفصاحة سحبان ، وقبح الجاحظ . أما شعره فأقل من نثره ، ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الغاية القصوى فى عصرنا هذا . وقد انتخب أخوه عبد الفتاح أفندى جملة صالحة من مقالاته ، جمعها فى كتاب سماه : « سلافة النديم » فارجع إليه إن شئت .

ومن مختار شعره قوله من قصيدة لم نعثر منها إلا على هذا القدر :

سيوفُ الثنا تصدا ومِقولى الغمدُ
ومن سارَ فى نعمى تكفله الحمدُ

ومنها :

ومن عجب الأيام شهم أخو حجا
يعارضه غمر ويفحمه وغد

ومن غرر الأخلاق أن تهدر الدما
لتحفظ أعراضٌ تكفلها المجدُ

ويقال إنه نظمها بحضرة شاهين باشا تبكيتا لمن زعم قصور الشعراء

عن معارضة أبى الطيب المتنبى فى قوله :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى
عدواً له ما من صداقته بد

ومن شعره قوله أيام اختفائه ، وكتب بها إلى صديق له يسليه على نازلة نزلت به :

ياصاحبى دع عنك قول الهازل
واسمع نصيحة عارفٍ بالحاصل

اجهل تجد صفو الزمان فإنه
من قسمة الفدم الغبى الجاهل

ودع التعقل بالتغفل يستقم
أمر المعاش لحظه للغافل

وارض البلادة تغتنم من بابها
مالاً وجاهاً بعد ذكرٍ خامل

وإذا أبيت سوى العلوم فلا تضق
بحروب دهرٍ لايميل لفاضل

قلب تواريخ الألى سبقوا تجد
دنياك ماقيدت بغير الباطل

تجد الأفاضل فى الزوايا كلهم
حال الحياة وبعدها بمحافل

العلمُ سترٌ كالسحاب به ترى
شمسَ الحقيقة خلفَ ذاكَ الحائلِ

هل أبصرت عيناكَ ديواناً به
مدح البليغ جميل سعدِ حافلِ

إنْ قلتَ : إيْ فاذكرْ لنا من نالهُ
أو : لا .. فعِشْ كالناسِ فى ذا الساحلِ

ضدانِ لاتلقاهما فى واحدِ
مالُ الغبيِّ وحكمةٌ للكاملِ

ثم ذيلها بنثر أضربنا عن ذكره .

ومن شعره ما ضمنه كتاباً كتبه مدة اختفائه لأحد أصدقائه :

وبعدُ فهذا شرحُ حالة غائب
عليه من اللطفِ الخفىَ ستورُ

تدورُ به الأهوالُ حول مدارها
فيصبرُ والقلبُ الرضىُّ صبورُ

عسى فرَجٌ يأتى به الله إنهُ
على فرجى دونَ الأنام قديرُ

* * *

محمد عبده

١٢٦٦ — ١٣٢٣ هـ

[كان الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى مقدمة العلماء الذين اصطفاهم المغفور له أحمد تيمور باشا لتلقى العلم والمعرفة عنهم . وقد سجل التاريخ أن الإمام محمد عبده كان يتخذ من دار تيمور (باشا) فى درب سعادة ندوة يلقى فيها دروسه على صفوة من العلماء والأدباء النابهين وغيرهم .

وقد عثرت لجنة نشر المؤلفات التيمورية بين مخلفات المغفور له أحمد تيمور (باشا) على جذاذات عدة تضمنت الكثير من سيرة الإمام وأعماله ، رأت نشر موجزها التالى فى هذا الكتاب]

ولد الإمام محمد عبده ونشأ فى قرية صغيرة بعيدة عن المدائن ، وهى قرية محلة نصر بمركز شبراخيت بالبحيرة .

وكان والده من أهل الطبائع السليمة والأخلاق القويمة . أما أمه فكانت من قرية « حصة شبشير » بمركز طنطا ، تنتمى إلى بيت من بيوتها المعروفة ، يعرف ببيت آل عثمان .

ويقول الإمام محمد عبده رحمه الله — فيما كتبه من تاريخ حياته : « كنت أعتقد أن والدى أعظم رجل فى القرية ، وكل من فيها دونه ، وهو بذلك أعظم رجل فى الدنيا ، فإن الدنيا لم تكن أوسع عندى من محلة نصر .

وكان ينزل عنده بعض الحكام ولاينزلون فى بيت العمدة ، مع أنه أغنى وأكثر دوراً وأرضين . ونشأ فىّ بذلك الاعتقاد بأن الكرامة وعلو المنزلة لايتعلقان بالثروة وكثرة المال . وكنت أعقل من صغرى ما كان عليه والدى من ثباته فى عزيمته ، وشدته فى المعاملة ، وقسوته على من يعاديه . وأخذت عنه ماعدا القسوة . أما والدتى فكانت منزلتها بين نساء القرية لاتنزل عن مكانة والدى ، وكانت ترحم المساكين وتعطف على الفقراء ، وتعد ذلك مجداً وطاعة لله وحمداً » .

شب الأستاذ على قدم أبيه محباً للفروسية والرماية والسباحة ، حتى شهر بذلك بين أترابه فى القرى المجاورة .

بعد تعلمه القراءة والكتابة بمنزل والده بلغ العاشرة من عمره سنة (١٢٧٦ هـ — ١٨٥٩ م) فانتقل إلى دار حافظ للقرآن لم يكن بالقرية غيره ، فقرأ الكتاب المجيد أول مرة واستظهره بعد ذلك فى عامين . ويظهر لمن رأى خط الإمام ، وهو لطيف من غير أن يكون جميلا ، أن معلمه الأول كان على شىء من النظام والمهارة فى كتابته .

وفى سنة ١٢٧٩ هـ — ١٨٦٢ م ذهب إلى الجامع الأحمدى بطنطا ليجوّد القرآن ، وكان هناك أخوه لأمه الشيخ مجاهد ، الذى يقال إنه كان قارئاً مجيداً وصل إلى أن صار شيخاً للمقارىء بطنطا .

أتم الشيخ فنون التجويد فى نحو سنتين على الوجه الأكمل ، ولم تنفر فطرته السليمة من أساليب هذا التعليم فى الجامع الأحمدى ، المشهور بتعليم

القرآن وفنون القراءات منذ زمان . وكان رحمه الله من أحفظ الناس للقرآن ، وأجودهم فى تلاوته نغمة ، وأحسنهم ترتيلا .

وفى سنة ١٢٨١ هـ — ١٨٦٤ م — جلس فى دروس العلم فى المسجد الأحمدى . قال الأستاذ فى الترجمة التى كتبها لنفسه : « وقضيت سنة ونصفاً لا أفهم شيئاً لرداءة طريقة التعليم . . . فأدركنى اليأس من النجاح ، وهربت من الدرس، واختفيت عند أخوالى مدة ثلاثة أشهر ، ثم عثر علىّ أخى وأخذنى إلى المسجد الأحمدى ، وأراد إكراهى على طلب العلم ، فأبيت وقلت له : قد أيقنت ألا نجاح لى فى طلب العلم ، ولم يبق علىّ إلا أن أعود إلى بلدى ، وأشتغل بملاحظة الزراعة ، كما يشتغل الكثير من أقاربى . وانتهى الجدل بتغلبى عليه ، وأخذتُ ما كان لى من ثياب ومتاع ورجعت إلى محلة نصر ، على نيّة ألا أعود إلى طلب العلم . وتزوجت فى سنة ١٢٨٢ هـ ١٨٦٥ م — على هذه النية » .

قال الأستاذ بعد ذلك : « فهذا أول أثر وجدته فى نفسى من طريقة التعليم فى طنطا ، وهى بعينها طريقته فى الأزهر ، وهو الأثر الذى يجده خمسة وتسعون فى المائة ممن لا يساعدهم القدر بصحبة من لا يلتزمون هذا السبيل فى التعليم ، غير أن الأغلب من الطلبة الذين لا يفهمون ، تغشهم أنفسهم ، فيظنون أنهم فهموا شيئاً ، فيستمرون على الطلب ، إلى أن يبلغوا سن الرجال ، وهم فى أحلام الأطفال . ثم يبتلى بهم الناس ، وتصاب بهم العامة ، فتعظم بهم الرزية ، لأنهم يزيدون الجاهل جهالة ، ويضللون من توجد عنده داعية الاسترشاد ،

ويؤذوى بدعاويهم من يكون على شيء من العلم ، ويحولون بينه وبين نفع الناس بعلمه » .

وبعد أن تزوج الفتى الهارب من طلب العلم ، قهره والده على الرجوع إلى طنطا ، فهرب فى الطريق إلى بلدة « كنيسة أورين » من قرى مركز شبراخيت ، وغالب سكانها من خؤولة أبيه ، وصادف فى مهربه من داوى نفرته ، وسهل عليه من طلب العلم ما وجده عسيراً ، إذ اتصل بالشيخ درويش خضر ، أحد أخوال أبيه ، وهو رجل سبقت له أسفار إلى صحراء ليبيا ، ووصل إلى طرابلس الغرب ، وجلس إلى السيد محمد المدنى والد الشيخ ظافر ، وتعلم عنه شيئاً من العلم ، وأخذ عنه الطريقة الشاذلية ، وكان يحفظ بعض كتب الحديث ، ويجيد حفظ القرآن وفهمه ، ثم رجع من أسفاره إلى قريته ، واشتغل بالزراعة .

ووصف الأستاذ الأثر الذى وجده فى نفسه من صحبة الشيخ درويش خضر ، فقال :

« رأيتنى أطير بنفسى فى عالم آخر غير العالم الذى كنت أعهده ، واتسع لى ما كان ضيقاً ، وصغر عندى من الدنيا ما كان كبيراً ، وعظم عندى من أمر العرفان والنزوع بالنفس إلى جانب القدس ما كان صغيراً . وتفرقت عنى هموم النفس ، إلا هماً واحداً ، هو أن أكون كامل المعرفة ، كامل أدب النفس » .

وبعد أن قضى الشاب فى « كنيسة أورين » خمسة وعشرين يوماً ، ذهب إلى طنطا فى شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٨٢ هـ — أكتوبر سنة ١٨٦٥ م ، مشروح الصدر لطلب العلم ، مقبلا عليه ببركة إرشاد الشيخ دوريش .

وإذا كانت التربية الحديثة تدعو إلى تهذيب الذوق بفنون الجمال ، فإن التربية الصوفية تدعو إلى تلطيف السرّ بأنواع الرياضة ، كالعبادة المشفوعة بالفكرة ، والألحان المستخدمة لقوى النفس . هذه التعاليم من شأنها أن تربى الوجدان ، وتلطف السر ، وتكمل النفس وتزينها . ولاجرم أنه كان صوفى الأخلاق .

قضى الإمام نحو أربع سنين فى بداية تكوينه الفكرى بالجامع الأحمدى بطنطا — نسبة إلى السيد أحمد البدوى ، أشهر أولياء القطر المصرى . وقد نبهت هذه السنوات عقله إلى البدع الدينية وعملها فى العقول والأخلاق ، بيدأنها مست أيضاً بعض الجوانب من نفسه ، فتركت فى منازعها المتسامية إلى الكمال والفهم موطن تأثر . قال الأستاذ فيما كتبه من تاريخ حياته : « وفى يوم من شهر رجب من تلك السنة (١٢٨٢ هـ) كنت أطالع بين الطلبة وأقرر لهم « معانى شرح الزرقانى » فرأيت أمامى شخصا يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجاذيب ، فلما رفعت رأسى إليه قال مامعناه : ما أحلى حلواء مصر البيضاء ! فقلت له : وأين الحلوى التى معك ؟ فقال : سبحان الله ! من جَدَّ وَجَدَ . ثم انصرف . فعددت ذلك القول إلهاماً ساقه الله إلىّ ، ليحملنى على طلب العلم فى مصر دون طنطا .

ذهب المجاور الشيخ محمد عبده بتصوفه إلى الأزهر فى شوال سنة ١٢٨٢هـ فبراير سنة ١٨٦٦ م قبل ست سنوات من وضع الشيخ المهدى العباسى شيخ الأزهر أول قانون للتدريس فيه . وأراد الجيل العلمى الجديد فى ذلك العهد أن

يعرب كتبا أوربية مكتوبة فى الغالب بلسان فرنسى . ولم يجد من المصطلحات القديمة متسعاً ، فوضع عبارات محدثة ، وأوجد أسلوباً جديداً لم يرض عنه الأزهريون ، ومنذ يومئذ دخل إلى الأزهر التنازع بين القديم والجديد .

أما الروح السائدة فى التعليم الأزهرى فكانت على ماوصفها بعض علماء الفرنجة فى قوله : « ولئن كانت أنماط التعليم والبحث فى الأزهر تختلف عما هو مستعمل فى الغرب الآن اختلافاً أساسياً ، فهى لاتختلف فى شىء عن الأنماط التى كانت عندنا قديماً » ، وفى قوله : « أثر العلوم النقلية فى قهر العقول الذى أخذ فى التلاشى عندنا منذ قرون لايزال فى عنفوان سطوته فى الجامعات الإسلامية » .

وليس الغرض من العلم عند أهل الأزهر - يومئذ - هو البحث للتحقيق والمقارنة والتمحيص ، ولكنه النقل الصحيح لما ترك الأقدمون .

والمفروض أن الأجيال متراجعة إلى الانحطاط ، والأجيال الحاضرة والمقبلة تتصل بعصر النبى صلى الله عليه وسلم من خلف إلى سلف ، وأن الأئمة المجتهدين بعداء فى عصور ذاهبة فى أعماق الماضى ، لا يستطيع الحاضر أن يدرك غبارها .

ونسارع إلى بيان أن أستاذنا صرح فى تفسير سورة « العصر » بفساد ما عليه الناس من ذمّ عصورهم ، ونسبة ما شاءوا من الخير إلى ما كان قبلهم من العصور ، كما صرح فى كثير أقواله من وكتاباته بعيب التعليم الأزهرى ومناهجه .

هذا وكان فى الأزهر نفسه تدافع بين الشرعيين والصوفية ، فأولئك كانوا يرون فى الخروج عن العلوم النقلية المتداولة فى الأزهر تمرداً على الدين ، وهؤلاء كانون يطمحون إلى أنواع من المعارف التى لها مساس بالتصوف .

ودليل هذا التدافع ماذكره الصوفى الأزهرى الشيخ حسن رضوان المتوفى سنة ١٣١٠ هـ - ١٨٩٢ م فى منظومته المسماة «روض القلوب المستطاب». وقد كان للشيخ المذكور مريدون بين علماء الأزهر وطلابه ، منهم الشيخ حسن الطويل والشيخ محمد البسيونى وهما من أساتذة الشيخ محمد عبده . ومنهم الشيخ محمد عبده نفسه ، وجماعة من إخوانه . وبذلك يظهر أن الشيخ حينما جاء إلى الأزهر انضم إلى حزب التصوف، وهو أقل الحزبين جموداً ، وأقلهما نفرة من الجديد .

كان الأستاذ متصوفاً مدة الدراسة مع شيوخه وزملائه ، متصوفاً فى أيام المسامحات ، مع خال أبيه الشيخ درويش خضر ، حتى انطبع تفكيره بنوع من الخيال الصوفى ، الذاهب فى الروحانيات إلى ما يجاوز مدى الفهم أحياناً .

انساق بعض الأساتذة فى الأزهر إلى دراسة الفلسفة الإسلامية بحكم نزوعه إلى التصوف الإسلامى الذى صار متأثرا بمذاهب الفلسفة ، وخصوصاً مذهب أرسطو الذى يعتبر إماماً لفلاسفة العرب . كما انساق بعضهم أيضاً إلى مدارسة الأدب باعتباره من الفنون الجميلة . وقد كان الشيخ حسن الطويل والشيخ محمد البسيونى من أساتذة الشيخ محمد عبده ، فهو كان متصلا بالحركة الصوفية المخلوطة بالفلسفة ، وكان متصلا بالحركة الأدبية . على أنه لم يبعد كل

البعد عن المحافظين على القديم ، فحضر دروس زعمائهم المشهورين كالشيخ عليش والشيخ رفاعى والشيخ الجيزاوى والشيخ الطرابلسى والشيخ البحراوى .

ولما حضر إلى مصر السيد جمال الدين الأفغانى — فى سنة ١٢٨٨ هـ ١٨٧١ م صاحبه الأستاذ الشيخ محمد عبده ، يحضر دروسه ، ويلازم مجالسه التى كانت مجالس حكمة وعلم . وكان يومئذ فتى متأثرة عواطف قلبه الفتىّ بمنازع التصوف ، ورياضاته ومواجده . وكان يتلقى علوم الأزهر على أنماطها المعروفة ، شاعراً بأن وراءها كمالاً علميا لا يجده فيما حوله . . وكان السيد الأفغانى وحده قادراً على تخليص الشيخ محمد عبده من خموله الصوفى ، وتخليصه من الحيرة فى التماس الكمال العلمى ، إذ كان السيد جمال الدين الأفغانى ، الكبير بمواهبه الفطرية ، وبسعة علمه ، وحسن نظام فكره ، وسمو مطامحه ، وعلو نفسه القوية ، المشتعلة حياةً وعزماً ، والمملوء بالحوادث الجلى والآلام ، قد صاحبه الشيخ محمد عبده تلميذاً وصديقاً منذ سنة ١٢٨٨ — ١٢٩٦ هـ (١٨٧١ — ١٨٧٩ م).
وبعد سنتين من صحبة الشيخ محمد عبده للسيد جمال الدين ظهر لنا ذلك الشاب المتصوف الذى كان ينطلق فى القول على وجل إذا سأله العامة عن شىء من أمر دينهم فى تلك المجامع التى كان يقوده إليها خال أبيه الشيخ درويش ، مؤلفا جريئاً يكتب رسالة سنة ١٢٩٠ هـ — ١٨٧٣ م وفيها الكثير من المذاهب الفلسفية والصوفية .

وفى سنة ١٢٩٢ هـ — ١٨٧٥ م — ألف الشيخ محمد عبده حاشيته على شرح الجلال الدوانى للعقائد العضدية . ولم يكن يومئذ قد جاوز السادسة

والعشرين من عمره ولكنه ظهر فيها محيطا بمذاهب المتكلمين والفلاسفة المتصوفة إحاطة فهم ونقد، وقد ضمنها توضيحاً لمختلف المذاهب فى الإلهيات والنبوات .

وأول ما نشر على الناس من آثاره هو ما كتبه فى جريدة « الأهرام » لبداية نشأتها سنة ١٢٩٣ هـ ١٨٧٦ م وهى فصول سامية المنزع مشتملة على أصول الدعوة الإصلاحية التى صرف حياته فى سبيلها . وقد استرعت تلك الفصول نظر الناس إلى ذلك الفتى الناهض إلى السابعة والعشرين من عمره نهضة المصلحين الكبار ، عاقلاً جريئاً .

وفى سنة ١٢٩٤ هـ ١٨٧٧ م . نال الشيخ محمد عبده الشهادة العالمية الأزهرية من الدرجة الثانية ، وهو ابن ثمان وعشرين سنة .

وأخذ يدرس كتب المنطق والكلام المشوب بالفلسفة فى الجامع الأزهر ويدرس فى داره لبعض المجاورين كتاب « تهذيب الأخلاق » لابن مسكويه ، وكتاب التحفة الأدبية فى تاريخ تمدن الممالك الأوربية ، تأليف الوزير فرانسوجيزو ، وتعريب الخواجة نعمة الله الخورى .

وفى أواخر سنة ١٢٩٥ هـ — ١٨٧٩ م نفى من مصر بمساعى الإنجليز السيد جمال الدين الأفغانى الذى كان عمله السياسى شجى فى حلق ممثل إنجلترا بمقدار ما كان تجديده لدرس الفلسفيات غيظاً للجامدين من أهل الأزهر . وعزل الشيخ محمد عبده من مدرسة دار العلوم ومدرسة الألسن ، وأمر بأن يقيم فى قريته « محلة نصر » لايفارقها أبداً إلى بلد آخر .

فى أوائل حكم الخديو توفيق حصلت هذه الحادثة ، وكان الوزير الكبير رياض (باشا) خارج القطر — وهو الذى قد زين للسيد جمال الدين المقام فى مصر وأمده بالمعونة ليستعين بها على تربية شباب مصلح . وإذا كان الوزير الكبير قد عجز عن ردّ مافات من نفى السيد الأفغانى ، فما كان ليفوته أن ينتفع بتلاميذه ، وما كان ليترك خليفة السيد جمال الدين منفياً فى قرية من قرى البحيرة ، محرما عليه أن يخرج منها ، فاستصدر له عفواً من الخديو سنة ١٢٩٧ ﻫ (١٨٨٠م) وعينه محرراً فى الجريدة الرسمية ، ثم جعله فى آخر السنة رئيس تحريرها .

ولقد نهض الشيخ محمد عبده بحركة إصلاح هيأت له مساعدة رياض وسائلها ، وأعانه عليها خيرة تلاميذ السيد جمال الدين الذين كانوا يشتغلون معه فى تحرير الجريدة الرسمية . إلا أن صلة الأستاذ بالأزهر قد انقطعت يومئذ ، فلم يعد معلماً يريد أن يصلح طرق التعليم فيه ، ويرشد أهله إلى العلوم الجديدة ، ولكنه أصبح صحافياً يحاول الإصلاح الاجتماعى والسياسى على مبادئ الحرية والعدالة والشورى .

ألم الشيخ رئيس تحرير الجريدة الرسمية « الوقائع المصرية » فى فصوله الكبيرة الفائدة القوية الروح بوجوه الإصلاح التى كانت تنبعث عزيمته إليها . فدعا إلى التعاون على الخير ، وحبذ فكرة الحرية ورفع المظالم عن الأهالى . وعاب على الشعب كسله ، ونادى بإصلاح التعليم والتربية فى المدارس ، وحمل على الرشوة وأهلها ، وبين أن الحق للقانون لا للقوة ، وذم إسراف

الأهالى وتمسكهم بظواهر المدنية مع الغفلة عن وسائل المدنية الصحيحة ، وعالج إصلاح منتدياتنا وإصلاح بيوتنا . وذكر رأيه فى خطأ العقلاء الذين يريدون الرقى طفرة ووثوباً .

ثم تعرض الأستاذ لنوع من الإصلاح الدينى ، شغف به فى أدوار حياته الإصلاحية كلها : ذلك هو تطهير الإسلام من البدع التى شوهت شعائره وجنت عليه . وهذه المقالات تجمع مبادئه الوطنية ، ومذاهبه فى الحرية ، وطريقه فى الإصلاح .

كان الشيخ وطنيا يرى أن خير أوجه الإصلاح للوطن هو تحقيق وحدته ليمتنع الخلاف والنزاع فيه . على أنه نصير للمبادىء التى تدعو إلى المحافظة العامة على دعائم السلام والإخاء بين الناس . وهو داع إلى الحرية ، حرية العمل ، ورفع سوط القسوة غير القانونية ، بحيث لا يسخر أحد فى عمل من الأعمال إلا فيما يعود بالمنفعة العامة على البلاد . أما سبيل الأستاذ فى الإصلاح ، فهى سبيل التدريج ، يريد أن يحفظ للأمة عوائدها الكلية المقررة فى عقول أفرادها . ثم يطلب بعض تحسينات فيها لاتبعد عنها بالمرة ، فإذا اعتادوها طلب منهم ما هو أرقى بالتدريج ، حتى لايمضى زمن طويل إلا وقد انخلعوا عن عاداتهم وأفكارهم المنحطة إلى ما هو أرقى من حيث لايشعرون .

وتأثر الشيخ بمبادىء أستاذه ، ومع ذلك كان لمذاهبه الإصلاحية استقلال يجعل لها شخصية وحدها . ولقد كان حين توليه تحرير الجريدة حديث عهد بصحبة أستاذه ، حديث عهد بالتخرج على يديه . . وكانت له على هذا سبيل

فى الإصلاح ليست من كل وجه سبيل السيد جمال الدين — إذ كان السيد مشتعل الحماسة ، يريد أن يلهب النفوس فيؤجج نارها . ثم يصوغ من ضعفها قوة ، ومن ذلها عزا . كان يرى أن الثورات هى سبيل الإصلاح الاجتماعى والسياسى . أما الشيخ محمد عبده أيام تحرير الجريدة الرسمية فكان معلما مصلحاً يطلب الأناة فى دفع الأمم إلى الرقى ، ليعلمها ويهذبها أولا ، ثم يسوقها برفق إلى ما علمت .

ولقد كانت له وهو رئيس لتحرير الجريدة الرسمية يدٌ عاملة فى حركة الأفكار ، ولم يكن ممن يدعون إلى الإصلاح من طريق الثورة عندما هبت أعاصير الثورة العرابية ، ولما أن رآها قائمة لنصرة أغراض هى مبادئه ومبادىء أستاذه اتصل بها ، وألقى فى نارها حطباً ، وقد حوكم مع زعمائها ، وحكم عليه بالنفى ثلاث سنين وثلاثة أشهر . فسافر رحمه الله إلى سورية فى حدود سنة ١٢٩٩ هـ ١٨٨٣ م وأقام فيها سنة ، وسافر إلى أوربا على موعد بينه وبين أستاذه وصديقه السيد جمال الدين ، فأقام فيها عشرة أشهر معظمها فى باريس ، وهناك أصدرا معا جريدة « العروة الوثقى » التى كان السيد الأفغانى مدير سياستها والشيخ محمد عبده محررها الأول .

وكانا ألفا جمعية من مسلمى الهند ومصر والمغرب وسورية ، غرضها السعى فى جمع كلمة المسلمين ، وإيقاظهم من رقادهم ، وإعلامهم بالأخطاء المحدقة بهم وإرشادهم إلى طريق مقاومتها . إلا أنه فى آخر سنة ١٣٠١ هـ — ١٨٨٤ م احتجبت الجريدة بعد ثمانية أشهر لقيت فيها كل مصادرة فى الهند ومصر .

وأخفق حلم السيد جمال الدين الأفغانى بإنشاء دولة إسلامية تنهض بالشرق نهوضا يزاحم الغرب بالمناكب، ويحد من عدوانه.

ثم سافر الأستاذ إلى تونس، فأقام فيها أياماً. وسافر إلى بلاد أخرى متنكراً لتوثيق عقود العروة الوثقى السرية. وألقى عصا السير بعد ذلك إلى بيروت. فأقبل عليه أهل العلم والفضل من جميع الملل والطوائف. وكانت داره مدرسة يؤمها الأذكياء وعشاق المعارف والآداب، وقد وصلته روابط وُدٍّ بمحى الدين بك حماده، فتزوج بنت أخى هذا الصديق بعد وفاة زوجته الأولى.

وفى أوائل سنة ١٣٠٣ هـ — ١٨٨٥ م. دُعى للتدريس فى المدرسة السلطانية لإحياء اللغة والدين فيها. وكان يشتغل مع التدريس بالتأليف والكتابة. وقد ألّف «رسالة التوحيد» هناك، ونقل إلى العربية رسالة «الردّ على الدهريين» التى كتبها السيد جمال الدين باللغة الفارسية، وشرح كتاب «نهج البلاغة» و «مقامات بديع الزمان الهمذانى».

وعاد الأستاذ فى سنة ١٣٠٦ هـ — ١٨٨٨ م. من منفاه، ولكن الخديو توفيق خشى أن يربى له تلاميذ على أفكاره ومنازعه، فلم يرض بتعيينه معلماً — كما كان يشتهى — بل عينه قاضيا بمحكمة بنها الأهلية، ومنها انتقل إلى محكمة الزقازيق، فمحكمة عابدين.

وفى سنة ١٣٠٨ هـ — ١٨٩٠ م عين مستشاراً بمحكمة الاستئناف الأهلية.

وفى سنة ١٣١٢ هـ — ١٨٩٤ م جعلته الحكومة المصرية عضواً فى مجلس إدارة الأزهر ، وهو أول مجلس أسس بسعيه ليكون رسول الإصلاح .

ولست بقين من المحرم سنة ١٣١٧ هـ (٣ يونية ١٨٩٩ م) عين مفتيا للديار المصرية . وفى هذه السنة عينها جعلته الحكومة عضواً فى مجلس شورى القوانين .

كان عند الأستاذ ميل إلى تعلم لغة أجنبية ، فلم تدع له الحوادث متسعا . لكن تعلم لغة أجنبية كان أمنية من أمانيه لم تزل تعالجها همته الكبيرة حتى بلغتها . تعلم اللغة الفرنسية بعد أن عاد إلى مصر واشتغل بالقضاء ، وهو ابن أربع وأربعين سنة ، وأحكمها قراءة وكتابة وحديثا ، كما ذكره أكثر من ترجموا له — وكان رحمه الله يقول : « من لم يعرف لغة من لغات العلم الأوربية فلا يعد عالماً فى هذا العصر » .

وقد سافر إلى أوربا عدة مرات ، واستفاد من سياحاته ومن مطالعاته لكتب الغربيين فى الفنون المختلفة ، وظهر أثر ذلك فى أفكاره وكتاباته ودعواته الإصلاحية .

أقام الأستاذ فى القضاء الأهلى حوالى عشر سنين ، ظهرت فيها كمالاته الأخلاقية والعلمية . وانصرف فى أثنائها إلى درس اللغة الفرنسية والمطالعة ، والقيام بأعباء منصبه . وتلك كانت مدة تجمع لوثبة الإصلاح التى بدأت يوم دخوله مجلس إدارة الأزهر فتعيينه مفتياً للديار المصرية .

فى ذلك العهد أزهر نشاط الأستاذ فى الإصلاح الدينى والعلمى والاجتماعى ،

ووصل الشيخ محمد عبده — كما يقول قاسم بك أمين فى تأبينه —: « إلى مقام الإمام بأوسع معناه ، مقام مكنه من أن يمسك بيده زمام أمة، ويحركها نحو الخطة التى رسمها ، ويسوقها فى طريق المستقبل الذى هيأه لها » .

وظل الأستاذ الإمام يجاهد فى سبيل الإصلاح والرقى ، غير منهزم أمام جمود الجامدين ، وظلم الظالمين ، وكيد الكائدين ، حتى ذهب إلى ربه يوم ٨ جمادى الأولى سنة ١٣٢٣ هـ — ١١ يولية سنة ١٩٠٥ م رحمه الله تعالى .

وقد كتب الشيخ محمد عبده بقلمه فى ترجمته لنفسه ، ملخصاً سيرته وأعماله بقوله : « ارتفع صوتى بالدعوة إلى أمرين عظيمين : الأول تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة ، قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ، واعتباره من موازين العقل البشرى ، التى وضعها الله لترد من شططه ، وتقلل من خلطه وخبطه ، لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الإنسانى ، وأنه على هذا الوجه يعد صديقاً للعلم باعثاً على البحث فى أسرار الكون ، داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة ، مطالباً بالتعويل عليها فى آداب النفس وإصلاح العمل . وكل هذا أعده أمراً واحداً ، وقد خالفت فى الدعوة إليه رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة : طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم ، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو فى ناحيتهم .

وأما الأمر الثانى : فهو إصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير ، سواء كان ذلك فى المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها . أو فيما

تنشره الجرائد على الكافة منشأ أو مترجماً من لغات أخرى . أو فى المراسلات بين الناس . وكانت أساليب الكتابة فى مصر تنحصر فى نوعين كلاهما يمجه الذوق ، وتنكره لغة العرب .

وهناك أمر آخر ، كنت من دعاته والناس جميعاً فى عمى عنه ، وبعد عن تعقله ، ولكنه هو الركن الذى تقوم عليه حياتهم الاجتماعية . وما أصابهم الوهن والضعف والذل إلا بخلو مجتمعهم منه ، وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة . .
نعم كنت ممن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها ، وهى هذه الأمة التى لم يخطر لها هذا الخاطر على بال ، من مدة تزيد على عشرين قرناً .

دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته ، هو من البشر الذين يخطئون ، وتغلبهم شهواتهم ، وأنه لا يرده عن خطئه ولا يقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول والفعل .

جهرنا بهذا القول ، والاستبداد فى عنفوانه ، والظلم قابض على صولجانه ، ويد الظالم من حديد ، والناس عبيدٌ له وأى عبيد .

نعم إننى فى كل ذلك لم أكن الإمام المتبع ، ولا الرئيس المطاع ، غير أنى كنت روح الدعوة ، وهى لا تزال فى كثير مما ذكرت قائمة .

ولا أبرح أدعو إلى عقيدتى فى الدين ، وأطالب بإتمام الإصلاح فى اللغة وقد قارب — أما أمر الحكومة فقد تركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبره ، لأننى قد عرفت أنه ثمرةٌ تجنيها الأمم من غراس تغرسه ، وتقوم على

تنميته السنين الطوال . فهذا الغراس هو الذى ينبغى أن يعنى به الآن . والله المستعان ».

وقد نعته أكثر الصحف العربية والإفرنجية ، وأفاضت القول فى رثائه ، واحتفل بتشييع جنازته رسمياً فى الإسكندرية والقاهرة . واشترك فيها ألوف من مختلف الطوائف والهيئات .

وفى اليوم الأربعين لوفاته أقيم حفل كبير لتأبينه تحدث عنه فيه الأساتذة حسن عاصم (باشا) والشيخ أحمد أبو خطوة ، وحسن عبد الرازق (باشا) وقاسم أمين (بك) ، وألقى العالم الأديب حفنى ناصف (بك) قصيدة عصماء ، كما ألقى شاعر النيل حافظ إبراهيم (بك) قصيدة رثاء أخرى ، استعيدت أبياتها مرات ، ونذكرها فيما يلى :

سلام على الإسلام بعد محمد

سلام على أيامه النَّضراتِ

على الدين والدنيا ، على العلم والحجى

على البر والتقوى ، على الحسناتِ

لقد كنت أخشى عادىَ الموت قبلَهُ

فأصبحت أخشى أن تطول حياتى

فوالهفى والقبر بينى وبينهُ

على نظرةٍ من تلكمُ النظراتِ

وقفت عليه حاسرَ الرأسِ خاشعاً
كأنى حِيالَ القبر فى عرفاتِ

لقد جهلوا قدر الإمام فأنزلوا
تجاليدهُ فى مُوحشٍ بفلاةِ

ولو أضرحوا بالمسجدين لأنزلُوا
بخير بقاع الأرض خير رفاتِ

تباركت، هذا الدينُ دينُ محمد
أيترك فى الدنيا بغير حُماةِ ؟

تباركت، هذا عالمُ الشرق قد قضى
ولانت قناةُ الدين للغمزاتِ

زرعت لنا زرعاً فأخرجَ شطأهُ
وبِنْتَ ولما نجتنِ الثمراتِ

فواهاً له ألاّ يُصيبَ موفقاً
يشارفهُ والأرضُ غيرُ مواتِ

مددنا إلى الأعلام بعدكَ راحنا
فرُدت إلى أعطافنا صِفرات

وجالت بنا تبغى سواكَ عيونُنَا
فعدن وآثرن العمى شَرِقاتِ

وآذوك فى ذات الإله وأنكروا
مكانك حتى سودوا الصفحات

رأيتَ الأذى فى جانب الله لذة
ورحتَ ولم تهمم له بشكاةِ

لقد كنت فيهم كوكباً فى غياهب
ومعرفة فى أنفس نكرات

أبنتَ لنا التنزيلَ حكماً وحكمةً
وفرقت بين النور والظلماتِ

ووفقتَ بين الدين والعلم والحجى
فأطلعتَ نوراً فى ثلاث جهاتِ

وقفت لهانُوتُو ورينانَ وقفة
أمدك فيها الروحُ بالنفحاتِ

وخفت مقام الله فى كل موقفٍ
فخافك أهل الشك والنزعاتِ

وكم لك فى إغفاءة الفجرِ يقظة
نفضتَ عليها لذّة الهجماتِ

ووليت شطرَ البيت وجهك خالياً
تناجى إله البيت فى الخلواتِ

وكم ليلةٍ عاندتَ فى جوفها الكرى

ونبهتَ فيها صادقَ العَزَماتِ

وأرصدتَ للباغى على دين أحمد

شَباةَ يراع ساحر النفثاتِ

إذا مس حد الطرس فاض جبينه

بأسطار نور باهر اللمعات

كأن قرار الكهرباء بشقه

يُريكَ سناه أيسر اللمساتِ

فياسنةً مرّت بأعوادِ نعشه

لأنت علينا أشأم السنواتِ

حطمت لنا سيفا وعطلت مِنبراً

وأذويت روضاً ناضر الزهراتِ

وأطفأت نبراساً وأشعلت أنفسا

على جمرات الحزن منطوياتِ

رأى فى لياليك المنجمُ ما رأى

فأنذرنا بالويل والعثراتِ

ونبأه علم النجوم بحادثٍ

تبيت له الأبراج مضطرباتِ

رمى السرطان الليث والليث خادرٌ

ورُبَّ ضعيفٍ نافذ الرميات

فأودى به ختلاً فمال إلى الثرى

ومالت له الأجرامُ منحرفاتِ

وشاعت تعازى الشهب باللمح بينها

عن النيِّر الهادى إلى الفلواتِ

مشى نعشهُ يختال عجباً بربِّهِ

ويخطر بين اللمس والقبلات

تكاد الدموع الجاريات تُقِلّهُ

وتدفعه الأنفاس مستعراتِ

بكى الشرقُ فارتجت له الأرضُ رجَّةً

وضاقت عيونُ الكون بالعبرات

ففى الهند محزون وفى الصين جازعٌ

وفى مصر باكٍ دائم الحسرات

وفى الشام مفجوعٌ وفى الفرس نادبٌ

وفى تونسٍ ما شئت من زفراتِ

بكى عالَمُ الإسلام عالِمَ عصره

سراج الدياجى هادم الشبهاتِ

ملاذُ هيابيل ثُمال أرامـلٍ
غياث ذوى عـدم إمام هـداةِ

فـلا تنصبوا للناس تمثـال عبده
وإن كان ذكرى عبرةٍ وثباتِ

فإنى لأخشى أن يضلوا فيومئوا
إلى نور هـذا الوجه بالسجداتِ

فياويح للشورى إذا جـدّ جدّها
وطاشت بهـا الآراء مشتجراتِ

ويا ويح للفتيا إذا قيـل من لهـا
ويا ويح للخـيرات والصـدقاتِ

بكين على فـردٍ وإن بـكاءنا
عـلى أنفسٍ لله منقطـاتِ

تعهدها فضـل الإمام وحاطهـا
بإحسانه والدهر غـير مُواتِ

* * *

فيامنزلاً فى عـين شمس أظلنى
وأرغم حسادى وغمّ عـداتى

دعائمه التقوى وآساسه الهدى
وفيـه الأيادى موضـع اللَّبِنات

عليك سلام الله مالك موحشاً
عبوس المعانى مقفر العرصاتِ
لقد كنت مقصود الجوانب آهلاً
تطوف بك الآمال مبتهلاتِ
مثابة أرزاق ومهبط حكمة
ومطلع أنوار وكنز عظاتِ

أحمد أبو خطوة

١٢٦٨ هـ — ١٣٢٤ هـ

يتصل نسبه بالإمام الحسين بن على رضى الله عنهما ، وجده السابع أبو خطوة مدفون فى « مطوبس » . وجده الحادى عشر محمد أبو خطوة أول من نزل من الأسرة فى بلدة كفر ربيع بمركز تلا فى المنوفية ، وقد هاجر إليها بعد موت أبيه سالم المدفون بالحدين بالبحيرة ، ومن أجداده : السيد عبد الرحيم القنائى صاحب الضريح المشهور بقنا .

وقد ولد الشيخ أحمد أبو خطوة فى ٢٠ ذى القعدة سنة ١٢٦٨ هـ ببلدة كفر ربيع ، ونشأ بها فحفظ القرآن وبعض المتون ، ثم سافر للقاهرة لطلب العلم بالأزهر فى ١٦ شوال سنة ١٢٨١ هـ واشتغل فيه بقراءة الفقه على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان .

ومن شيوخه الشيخ محمد البسيونى البيبانى ، والشيخ أحمد الرفاعى الفيومى ، والشيخ عبد الرحمن البحراوى ، والشيخ عبد الله الدرستاوى ، والشيخ حسن الطويل .

وكان أكثر تحصيله للعلوم العقلية على الشيخ حسن الطويل ، ولازم صحبته ، وتخلق بأخلاقه ، وتلقى عنه فى داره العلوم الحكمية والرياضية وكثيراً من كتبها مثل : « شرح الهداية » للميبدى ، و « الطوالع » ، وأكثر

« المقاصد والمواقف » و « إشارات ابن سينا » بالشروح لنصير الدين الطوسى والإمام الرازى . و « المحاكمات » وبعض كتاب « النجاة » لابن سينا ، و « أشكال التأسيس » بشروحها فى الهندسة . و « تحرير إقليدس » . وفى الهيئة « شرح الجغمينى » وتذكرة « نصير الدين الطوسى » وفى الحساب خلاصة بهاء الدين العاملى بشرح البورصاوى ، و « المعونة » وشرح ابن الهائم وغيرها . وفى المنطق « القطب » بحواشيه و « المطالع » و « الخبيصى » و « إيساغوجى » وغيرها .

وامتحن للعالمية والتدريس فى ١٨ صفر سنة ١٢٩٣ وكان مجلس الامتحان مكوناً من الشيخ عبد الرحمن البحراوى ، والشيخ عبد القادر الرافعى الحنفيين والشيخ أحمد شرف الدين المرصفى والشيخ زين المرصفى الشافعيين ، والشيخ أحمد الرفاعى والشيخ أحمد الجيزاوى المالكيين ، برياسة شيخ الأزهر ومفتى الديار المصرية الشيخ محمد المهدى العباسى ، فلما امتحنوه أعجبوا به إعجاباً شديداً لجودة تحصيله وشدة ذكائه ، فأجازوه ، إلا أنه أخر التدريس لاشتغاله بتتميم ما كان يقرؤه على الشيخ حسن الطويل . ثم ابتدأ فى القراءة بالأزهر سنة ١٢٩٦هـ فقرأ به الكتب المتداولة به وغيرها ، وتخرج عليه جمع من الأفاضل ، منهم : الشيخ محمد شاكر ، والشيخ محمد حسنين العدوى ، والشيخ محمد بخاتى ، والشيخ سعيد الموجى ، والشيخ محمد الغرينى ، والشيخ مصطفى سلطان .

ثم جعل مفتياً لديوان الأوقاف ، فكانت له اليد الطولى فى إصلاحه وعاون من به على تحسين أموره بجودة عقله وحسن رأيه . وحسبك أنه دخله

وإيراده مائة وعشرون ألف دينار وخرج منه وإيراده يربو على مائتى ألف دينار . ثم نقل عضواً فى المحكمة الشرعية الكبرى بالقاهرة ، ورأس المجلس العلمى للنظر والفصل فى القضايا الكبرى ، ثم انتدب للمحكمة العليا بعد ذلك ، فكانت له اليد الطولى فى إصلاحها ، ومنع شهادات الزور ، وإصلاح حال المحامين ، وكانت وفاته فى شوال سنة ١٣٢٤ هـ عليه رحمة الله .

أحمد مفتاح

١٢٧٤ — ١٣٢٩ هـ

هو العالم الشاعر الناثر الشيخ أحمد بن مفتاح بن هرون بن أبى النماس . ينتهى نسبه إلى عُمار ، بضم العين المهملة وتخفيف الميم ، أحد العرب النازلين من الصحراء إلى أرض مصر حوالى القرن العاشر ، وبين أبى النماس وعمار جدان أو ثلاثة .

ولما ورد عمار « مصر » قطن بإقليم منية ابن الخصيب[1] فى صعيد مصر ، وقام بين عرب تلك الجهة منازعة أدت إلى مقاتلة ، كان جد المترجم أبو النماس له اليد الطولى فيها ، ويقال : إنه حضر بعض الوقائع بدون سلاح ، ولقوته أمسك جحشاً صغيراً من رجليه وضرب به حتى مات الجحش .

وقطن هرون الجد الأدنى للمترجم فى بلدة على الشاطىء الغربى للنيل بإقليم المنية تابعة لبنى مزار ، أنشأها حسن بن عبد العزيز أحد أجداد المترجم من جهة والدته ، وهى بلدة صغيرة اشتهرت بين العامة باسم بنى عجيز محرفاً عن أبى عزيز يعنون به حسن بن عبد العزيز مؤسسها على عادتهم فى تكنية الرجل باسم أبيه . وما زال هرون المذكور بها حتى ولد له مفتاح أبو المترجم سنة ١٢٢٩ هـ وكان فى هذه البلدة رجل اسمه على أبو محمد من أقارب والدة

---

(١) هى الآن محافظة المنيا .

المترجم ، جعلته الحكومة شيخ المشايخ ، وهو لقب كان يطلق إذ ذاك على من يحكم عدة بلاد ، وكان جائراً فى معاملته ، فاعتدى على أناس من أهل البلد بالضرب حتى أشرفوا على الهلاك ، فاضطر بعض أهلها إلى الشكوى للمدير مستعينين بعلى أفندى الشريعى والد حسن باشا الشريعى . وبعد اللتيا والتى ساعدوهم على الانفصال فانفصلوا واختطوا بلدة أخرى شمالى أبى عزيز سنة ١٢٦٤ﻫ سموها نزلة عمرو . وانتقل إليها هرون بولده أبى المترجم وابتنى بها داراً كبيرة ، وبقى بها حتى مات بعد أن أسن ، وكان سديد الرأى يرجع إليه فى المشكلات .

ثم سكن هذه البلدة بعده ولده مفتاح وتزوج بها ، وأعقب جميع أولاده وحج سنة ١٣٠٤ ﻫ فأرخ حجه ولده المترجم بقوله :

حج مفتاح أبى معتمراً

١٣٠٤

ومات سنة ١٣٠٨ﻫ وكان طويلا، خفيف اللحية، وقد وخطها الشيب، وكان اشتغاله بالزراعة دون غيرها . ويتحرى الحلال فى كسبه ، ويقول الحق ولو على نفسه ، وتعلم القراءة والكتابة فى الكبر ، ولم يجدهما .

ولما وصل نعيه إلى ولده المترجم بالقاهرة رثاه على البديهة بقوله :

قضى والدى بالرغم منى وليتنى ... سبقت لأمر ساورتنى غوائله

لقد عاش دهراً لم يشبه بريبة ... حياة سخى فاض بالقوم نائله

وقام بعبء الدين والفضل صادقاً ... وما المرء إلا دينه وفضائله

عليه سلام كلما غاب كوكب ... وسالت من الجفن القريح هوامله

وكانت ولادة المترجم ليلة السبت الرابع من شعبان سنة ١٢٧٤ هـ . ونشأ بالبلدة المذكورة فى حياطة والده ، وابتدأ القراءة على الشيخ جاد المولى ، فقرأ عليه القرآن وبعض المتون ، ومكث بعدها نحو ثلاث سنوات . ثم حضر إلى القاهرة سنة ١٢٨٩ هـ لطلب العلم بالجامع الأزهر ، وتلقى عن شيوخ وقته . فقرأ النحو : على الشيخ محمد الشعبونى المغربى ، والشيخ عرفه سالم السفطى والشيخ عبد الله الفيومى ، والشيخ محمد البحيرى ، والشيخ سالم البولاقى ، والشيخ محمد الإنبابى . والفقه الحنفى : على الشيخ عبد الرحمن السويسى ، والشيخ صالح قرقوش . وحضر بعض دروس الأستاذ الكبير الشيخ محمد العباسى المهدى شيخ الجامع الأزهر ومفتى مصر إذ ذاك . والبيان : على الشيخ عرفة ، والشيخ على الجنائنى ، والشيخ محمد البحيرى . وآداب البحث : على الشيخ محمد البحيرى المذكور . والمنطق : على الشيخ محمد عبده ، والشيخ أحمد أبو خطوة ، والشيخ سالم البولاقى ، والشيخ محمد البحيرى . والعروض : على الشيخ محمد موسى البجيرمى .

وفى أثناء مجاورته كان مسافراً من بلدته إلى القاهرة فى سفينة كبيرة أيام زيادة النيل ، ونزل يغتسل على سكان السفينة مع جماعة ، فانحدر مع الماء فى وسط النيل ، وتبعه أحد المغتسلين لإنجاده ، فمازال سابحاً حتى كلت سواعده ، وكاد يغرق ، ثم نجا ، وخرج على الشاطىء الغربى للنيل ، وأرسل له من بالسفينة زورقاً وصل به إليها . وسافر مرة من القاهرة عائداً إلى بلدته فى سفينة ، فتشاحن مع ربانها تشاحناً أدى إلى إخراجه منها ، فخرج إلى بلدة يقال لها الرقة بإقليم

بنى سويف لايملك شروى نقير ، سوى كتاب مخطوط رهنه فى أجرة القطار إلى بلدته . وله نوادر كثيرة أمثال ذلك من المشى على القدمين مسافات بعيدة ، والمبيت على الطوى فى كل غدوة وروحة بين القاهرة وبلدته .

وبعد أن قضى سبع سنوات بالأزهر مجداً فى طلب العلم ومباحثة الشيوخ ، عاد إلى بلدته ، ومكث بها نحو سنتين مشتغلا بحفظ الشعر ونظمه ، ولم يكن له بالأزهر كبير عناية به ، لإنصرافه إلى تحصيل العلوم .

ثم حضر إلى القاهرة ، ودخل مدرسة دار العلوم سنة ١٢٩٨ ﻫ فأعاد بها معظم العلوم العربية مع الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المشهور بالمقدمة على الشيخ حسين المرصفى ، ثم خلفه فى تدريس اللغة العربية شيخنا الشيخ حسن الطويل ، فتلقى عنه بعض المثل السائر ورسالة ابن زيدون الهجوية ، والزوراء للجلال الدوانى فى الحكمة ، وانتفع به كثيراً ، وقال فيه وفى الأستاذ المرصفى :

دار العلوم شكت فراق أبى الهدى
المرصفى الحبر أوحد ذا الزمن
فأجبتها حسن المعارف بعده
لاتجزعى إن الحسين أخو الحسن

وتلقى التفسير والحديث بالمدرسة عن الشيخ أحمد شرف الدين المرصفى . والفقه الحنفي عن الشيخ حسونه النواوى ، والعلوم الطبيعية والرياضية على

أساتذة آخرين بالمدرسة . ثم خرج منها بعد أن نال الشهادة الدالة على براعته سنة ١٣٠٢ هـ فقال بعد مفارقته المدرسة مضمنا :

دار العلوم نثرت نظم أحبة
كانوا بدوراً فى سماء عـلاك
حتى بـلى عهدى بهم وتغيروا
« يا دار غيرك البـلى ومحاكِ »

واشتغل بعد خروجه من المدرسة بالكتابة فى صحف الأخبار كالأعلام والقاهرة ، وبالتدريس لبعض أناس منهم السيد توفيق البكرى .

ولما اتصل به حسّن له خلع العمامة والجبة وإبدالهما بالملابس الأفرنكية والطربوش . ثم فارقه واستخدم كاتباً بمحكمة بنى سويف الأهلية نحو عشرة أشهر . ثم امتحن للدخول بمدرسة دار العلوم مدرساً للإنشاء ، فحاز قصب السبق وعاد للعمامة والجبة . وأقام بها تسع سنين انتفع فيها الطلبة ، وتخرج عليه كثيرون ممن يحسنون الكتابة الآن[1] .

ثم نقلوه بعد ذلك مدرساً للنحو بالمدارس الابتدائية فى الأقاليم ، فحطوا من درجته ، إلا أنهم أبقوا له مرتبه . وكان أخيراً بمدرسة بنى سويف ، ومرض بها فأحيل على المعاش ، واختار السكنى بالقاهرة ، وابتغى مكاناً يعتزل فيه الخلق ويشتغل بالمطالعة وإتمام بعض تآليفه ، فاختار مصر الجديدة ، واكترى[2]

(١) إشارة إلى عهد المؤلف العلامة المحقق أحمد تيمور (باشا) .
(٢) استأجر .

بها داراً صغيرة أقام فيها بمفرده مع خادم مُسِن كان يقضى له حاجاته من السوق، ويقوم بتنظيف المكان ...

وكان الشيخ مريضاً بمرض يعرف عند الأطباء بتصلب الشرايين ، وهو لا يعلم بأمره ، ولا يهتم بنفسه ، حتى اشتد عليه أخيراً وهو يظنه ضيفاً مرتحلا ، ثم تركه الخادم وعاد لبلده ، فبقى وحيداً بالدار حتى أدركه أجله المحتوم فجأة ، والأبواب مغلقة عليه ، وبقى أياماً لا يعلم به أحد ، حتى ظهرت رائحته للجيران ، فأخبروا رجال الشرطة ، فحضروا وكسروا الأقفال ، فألفوه مائلا فى سريره وجزء من كتاب الأغانى ملقى بجانبه ، وكان ذلك يوم الأحد ٢٨ من المحرم سنة ١٣٢٩ هـ . وقرر الطبيب أنه مضى على وفاته ثلاثة عشر يوماً ، فنقلوه ودفنوه ، تغمده الله برحمته .

ولم يكن اشتغاله بالعلوم على السواء ، بل كان جل اعتنائه بمتن اللغة والشعر والنثر، فحفظ من اللغة مقداراً وافياً من الغريب وغيره ، وكلف بتصحيح شرح القاموس عند ضبطه برمته فى المرة الثانية . وكان اشتغاله بالشعر فى الأزهر قليلا كما قدمنا ، ولم يبرع فيه إلا عند دخوله دار العلوم طالباً ، وقد أرخ أول إجادته فيه بقوله :

أقول الشعر عن فكر سليم

١٢٩٨

ونظم بعد ذلك القصائد المتينة والمقطعات السمينة ، وكان ينهج فيها منهج العرب لكثرة نظره فى دواوينها ، واقتناء الكثير منها استنساخاً أو نسخاً

بيده ، ولو تم له الخيال الشعرى كما تمت له الديباجة وجزالة الألفاظ — لكان أشعر أهل زمانه بلا منازع .

ولما عاد الأمير محمود سامى (باشا) أشعر شعراء العصر من منفاه بسيلان ، وكان بعيد العهد بشعراء مصر ، واطلع على إنتاج الشعراء المصريين فى ذلك العهد ، لم يعجبه إلا شعر المترجم فى رصانة البناء وسلامة التركيب ، وقد ترك من التآليف : « رفع الالثام عن أسماء الضرغام » جمع فيه ما ينيف على خمسمائة اسم للأسد — طبع بمصر ، و « مفتاح الأفكار فى النثر المختار » جُمع فيه مختار النثر من رسائل وخطب فى الجاهلية إلى هذا العصر[١] ، وهو كتاب جليل الفائدة — طبع بمصر أيضاً . و « مفتاح الأفكار فى الشعر المختار » جمع به مختار الشعر من الجاهلية إلى عصرنا هذا[٢] لم يطبع ولم نطلع عليه . وله « ديوان حماسة » من شعر العرب ، استدرك به على أبى تمام ما فاته ، و « مفتاح الإنشاء » — لم يكمله . وأخذ فى أواخر أيامه فى جمع شعره ونثره وترتيبه فى ديوان ، ولا أدرى ما فعل الدهر به .

وكان رحمه الله غريب الأطوار، سريع الغضب ، سريع الرضا ، مع صفاء الباطن ، له شذوذ فى أخلاقه يتحمله من عرفه وعاشره . أسمر اللون ، أسود اللحية والشاربين كبيرهما ، أميل إلى الطول ، له هزة وتَخطُّر فى مشيه — لمرض كان أصابه فى ظهره ورجليه .

---

(١) إشارة إلى عصر المترجم — رحمه الله .
(٢) أى عصر المترجم ، وهو عصر المؤلف أيضاً .

ولما انتقل إلى مدارس الأقاليم صار يحضر إلى القاهرة فى فترات ، فينزل عندنا (١) ، ويجتمع به إخوانه وأصدقاؤه فى ليال كنا نحييها بالمطارحات الأدبية وإنشاد الأشعار .

ومات ولم يعقب غير بنتين زوجهما فى حياته . ومن شعره قوله يرثى صديقه محمد بك بيرم ابن الشيخ بيرم التونسى ويعزى أخويه :

لقد مات فى سن الثلاثين بيرم
فإن كان قول فالرثاء المقدمُ
مضى سابقاً سبق الجواد إلى المدى
ولا يدرك الغايات إلا المطهمُ
فتى كان مثل السيف يفرى قرابه
ويعجب منه الناظر المتوسمُ
فتى كان فى حاليه للمجد كاسباً
كباد يرود العشب أو يتجرثمُ
فتى كان مثل الليث طلاع أنجد
وكالفحل يحمى شوله وهو مقرمُ
فما بال هذا الفحل تقدع أنفه
ولم ذلّ ذاك الضيغم المتأجمُ

(١) فى دار العلامة المحقق أحمد تيمور (باشا) مدرب سعادة .

وقد كان يرعى عهده وجـواره
فلا العهد منقوض ولا الجار مُسْلَمُ

وقـد كان مأوى لليتامى يظلهم
إذا السنة الشهباء ظلت تجهمُ

وكان ذوو الحاجات منـه بنجوة
إذا ساقهم سيـل من الذل مفعمُ

وما كان مجزاعاً إذا الخطب عضهُ
ولا وكلاً يغشاه ما ليس يعلمُ

ولـكن أخو جأش وحزم كلاهما
أبرّ من السيف الجراز وأحـكم

وما الطودُ ممنـوع الذرى هضباته
أنفنَ فـلم يفـرع ذراهن أعصمُ

بنت فوقه الأسد الضوارى على الطوى
زبىً يتقيهـا الصاعـد المتجشمُ

بأثبت ركنا منـه يوم عظيمة
وأوفـر حلمـاً والظنون ترجمُ

تسنم فى عقباه مَتنَىْ وظيفـة
هى القطر يتلوه من الغيث مسجمُ

وسـلم تسليم البشاشة جاعـلاً
قصارى المطايا أن يقيم المسلم

فما كان إلا أن أناخ ببابه
من البين ركب لايريم مخيمُ
فودع توديع امرئ غـير راجـع
سجيس الليالى أو يؤوب المثلمُ
ليبك عليـه ضارعٌ طوحت به
يد الدهر واستهوته دهياء صيلمُ
يذكرنيـه الخـير والشر دائباً
إذا زاغ ظـلام وصاح مُظَلَّمُ
وتعتادنى ذكـراه للضيف كلما
طغت برمة أو مرجـل يتهزمُ
فقدناه فقـد الروض ماء غمامـة
على ظمأ ، والقلب حران أهيمُ
فهل عهده العهد الذى هو راجـع
ألا إنمـا عهـد المنـايا مصرّمُ
وهـل حله يـوم القيامـة حله
إذا خف رضوى واستحال يلملمُ
رمتـه شَعوب فاتقاها بصـدره
وسهم المنايا فى المقاتـل محـكمُ
فـلم يغن عنه فـكره وهـو صارم
ولا ذاد عنـه عرفـه وهو عيلمُ

عفاء عـلى تلك الحياة فإنهـا
تفاريقُ نهب بين قـوم يقسَّمُ
فلو كان رد الموت يسطاع لانبرت
كماة لهـا قرع الظنابيب مغنمُ
إذا الشر أبدى ناجـذيه حسبتهم
أسـود شرى أظفارها لا تقلمُ
ولـكنه الموتُ الزؤامُ إذا عدَا
تداعت لمـأتاه زبيـد وخثعمُ
متى يرم أشـلاء العشيرة أغمضت
حذام ولم يغن النطاسى حـذيمُ
وليت المنايا أخطأته وصادفت
عِدًى يبتغون الشر إمّا تيمموا
لهم سِيرة فى السوء شتى فعالهـا
ومن ذا يعانى السـوء إلا المذممُ
وعما قليل يزجر الدهر طيرهم
فيغدو سنيحاً وهو بالموت أشأمُ
ويطوَون طى الثوب أخلقه البلى
عـلى غِرة ، والدهر عـرس ومأتمُ
فيارا كب السوداء فى البحر ترتمى
على صفحات المـاء والبحر خضرمُ

تمر كما مرت نعاج تعسفت
رمال الفــلا واليوم ضحيان يبسمُ
تسير فـلا تـلوى على ابن طريقـة
وترسـو كما ذاق الغرارَ المهـوِّمُ
إذا أنت ألقيت الرحال بتونس
لدى معشر فى بهرة الحى خيموُا
لهم أول فى السابقين وهضبة
من العز شماء الذرى لا تسنمُ
هنـالك فانزل عـزِّهم بمحمدٍ
وقـلْ له دمـع يراق معندمُ
وقـلْ غاب من ترجون فضل إيابه
فليس لشىء آخـر الدهر يقدَمُ
هنالك تلقى الخيل حطت سروجها
وخـرٌ لمنعاه البنـاء المهنـدمُ
وتلفى عذارى الحى شقت جيوبها
عليه ودقت بينهـا العطر منشمُ
وكنتم ثـلاثاً فرق الدهر بينـكمُ
كأنـكم اسم فى النـداء مرخمُ

نعم إن ذاك السرّ مازال فيكما

ولاعجب فالحرف فى الحرف مدغمُ

خذا بيد الصبر الجميل فإنه

هو السيفُ لاينبو ولا يتثلمُ

ولاتحفلا للحزن يغشى ، فإنما

رسوم الأسى قفرٌ لمن يتردَّمُ

ودوما على الأيام عنوان راحل

طوته النوى طى الكتاب فيختمُ

محمد أكمل

١٢٨٠ — ١٣٤٣ هـ

هو محمد أكمل بن عبد الغنى بك فكرى ابن لطف الله بن حسين الشاعر الأديب الظريف . ولد بالقاهرة ونشأ بها ، واعتنى والده بتعليمه وتهذيبه . ثم أدخله فى مدة الخديو إسماعيل الديوان الخديوى للتعلم كتلميذ ، وكان من كبار كتاب هذا الديوان ، فجود الخط به وألم باللغة التركية . وكان له حدبة بظهره شوهت خلقه ، ورأى والده ألا مطمع فى استخدامه بمنصب لائق لحدبته وقصر قامته ، فاستحسن له طلب العلم بالأزهر ، وكان يرجو أن يكون من كبار العلماء ، فلازم الطلب به ، وقرأ النحو والعلوم العربية على الشيخ أحمد المنصورى ، والشيخ محمد البجيرمى ، وكان أحدب مثله ، وكثيراً ما كان يقعده بجواره فى حلقة الدرس . ثم انقطع عن الطلب ولازم والده ، وكان والده جمَّاعة للكتب مغالياً فى اقتنائها شراءً واستنساخاً ، ينفق عليها جل مايصل ليده ، ويحيي الليالى فى مقابلة ما يستنسخه منها وتصحيحه وضبطه . فكان المترجم يعاونه فى ذلك ، واطلع بهذا السبب على كثير من الكتب العلمية والأدبية والدواوين الشعرية ، عاشر من كان يجتمع بوالده من العلماء والأدباء ، وتردد عليهم واستفاد منهم ، وعرف مدة طلبه بالأزهر كثيراً من أدبائه وشعرائه المجيدين — كالشيخ عبد الرحمن قراعة ، والشيخ أحمد مفتاح ، وحفنى (بك)

ناصف وغيرهم ، فاستفاد منهم أيضاً . ونظم الشعر والزجل وأدوار الغناء ، واشتهر بحسن المحاضرة وملاحة التنديد وسرعة الجواب وخفة الروح . وكان كثيراً ما يجعل محور تنديره دائراً على حدبته فيأتى بما يضحك الثكلى ، بل كان لا يأنف من ذكرها فى شعره ، كقوله من زجل فى الوباء الذى حل بمصر سنة ١٣٢٠ هـ وما فعله الأطباء من الهجوم على الدور وترويع ربات الخدور :

شاعرْ وناثرْ زجالْ عالْ فن الأدبِ فيدهْ(١) لعبهْ
لطيف زكى وفهمهْ سيالْ ورِقتهُ مِنَ الله وهبهْ
مُخلصْ لإخوانهْ ومَيّالْ نادرةْ زمانهْ ولهُ حَدْبَهْ
مافيهش عيبْ ظاهرْ معروفْ قصيرْ ولكنْ فيه أقصرْ
واللى يعيش ياما بيشوفْ واللى بيمشى يُشوف أكترْ

ومن ولوعه بحدبته شرع فى جمع كتاب فى نوادر الحدبان وما قيل فيهم من الأشعار وتراجم مشهوريهم ، أخبرنى أنه جمع منه جزءاً إلا أنه لم يتمه .

ونقل والده مدة محمد توفيق الخديو من الديوان إلى المحاكم الأهلية قاضياً وتوفى يوم الثلاثاء ٢٩ المحرم سنة ١٣٠٧ هـ وخلف له ولإخوته ضيعة بالصعيد ، أصاب المترجَم منها (٦٠ ستون فداناً) باعها وبدد ثمنها بالإسراف، حتى احتاج للاستخدام بديوان الأوقاف ، بمرتب قليل دون الكفاف ، وعاش فى ضيق ومضض بعد ماتعوده من السعة والرفاهية . وأخذ يتقرب للخديو بنظم التواريخ فى كل عيد واحتفال، وحل وترحال، وينشرها فى صحف الأخبار رجاء أن تبلغه

---

(١) أى : فى يده

فيأخذ بيده ، فلم يستفد شيئاً وراح تغزله فى الريح . وكان قصر شعره فى أواخر عمره على هذه التواريخ ، فنظم منها الغث والسمين. وكنا إذا قرب عيد أوسفر أو قدوم للخديو لاننتفع به لاشتغاله بالنظم والحساب وإعمال الروية ، فيصير هذا ديدنه فى غدوه ورواحه وقيامه وقعوده ، حتى يمن الله عليه بشىء يرتضيه .

وترك له والده غير الضيعة داراً بسوق الزلط بيعت أيضاً ، وترك خزانة كتب كبيرة قل أن تضارعها خزانة فى نفائس الكتب ونوادر الأسفار ، وهى التى أفنى عمره وماله فى جمعها وأتعب نفسه فى تصحيحها وضبطها وصبغ الورق وصقله لنسخ ما كان يستنسخه منها، فوق ما كان يتكلفه من السعى فى البحث عنها فى الخزائن المهجورة وعند الوراقين ، واتخذ له فى داره مصنعاً للتجليد واستخدم عدة نساخ أجرى عليهم المرتبات ، فاختصوا بالنسخ له لا يشتغلون لسواه . . . وكان هو وعبد الحميد (بك) نافع من أدباء القرن الثالث عشر يتباريان فى ذلك ويتسابقان . أخبرنى المترجم عن والده أنه بلغه أن تاجراً من الوراقين قدم من سفر بكتب أوصاه عبد الحميد (بك) نافع بجلبها له وبينها ديوان البحترى، وكان إذ ذاك لم يطبع بل لا يعرف فى مصر إلا باسمه ، فأسرع إليه وبذل له مالا فوق قيمة الديوان. على أن يعيره له يوماً وليلة فقط يطالع فيه ، فرضى وأعاره إياه . فلما أتى به لداره أعطاه لمجلده ففك له تجليده ، وأحضر فى الحال عدة نساخ فرقه عليهم كراريس فنسخوه وقابلوه ، ولم يمض اليوم والليلة إلا وقد ردت النسخة الأصلية لصاحبها مجلدة كما كانت . ثم قابله بعد ذلك عبد الحميد (بك) وأخذ يفاخره بوجود الديوان عنده واختصاصه به ، فقال

له : خَفِّفض عليك يا أخى، هذا شىء أكلنا عليه وشربنا حتى مججناه . ثم أخرج له نسخة الديوان من الخزانة !

وبلغه مرة وهو يسمر مع بعض أصحابه أن بعضهم رأى عند فلان الوراق رسالة من الرسائل ، وكان هو يتطلبها من زمن وينشدها فلا يجدها ، فلم يسعه إلا أن قام فى الحال وأخذ يسأل عن دار الوراق من هنا وهناك ، حتى اهتدى إليها بعد ما مضى هزيع من الليل ، فأيقظه من نومه وساومه فى الرسالة بقيمة فوق قيمتها، ولم يمهله للصباح، بل أنزله من الدار وذهب معه إلى حانوته ، ففتحه ليلا وأخرجها له ،ولم يهدأ له بال حتى باتت الرسالة عنده .

فلما مات عرض المترجم كتبه للبيع فبيعت وتفرقت ، واقتنى نفائسها ونوادرها الكونت لندبرج قنصل السويد بمصر . وكان من مستعربى الأفرنج المولعين بجمع الكتب العربية ، وأدركت أنا[1] أواخرها ـ فاقتنيت منها بضعة عشر كتاباً ، منها ماهو بخط عبد الغنى (بك) نفسه ، وبحواشيها آثار التصحيح واختلاف النسخ التى كان يقابلها بها .

وكان أول التقائى بالمترجم فى دار ابن أختى محمود توفيق (بك) وهى إذ ذاك مجمع الأدباء ومحط رحال الفضلاء ، فلما رأيته استغربت شكله واستملحت محاضرته . ثم رأيته يناقش الأدباء ويطارحهم الشعر ، فدنوت منه وكنت صغيراً فى أول الطلب، وقد تعذر علىّ فهم باب أفعل التفضيل وأجهدت نفسى فى درسين

---

(١) إشارة إلى المغفور له العلامة أحمد تيمور باشا — رحمه الله.

متواليين على تفهمه فلم يفتح علىّ بشىء فيه، فسألته عنه فأوضحه لى بعبارة سهلت علىّ فهمه ، فكان بعد ذلك كثيراً ما يقول لى ممازحاً : إذا ذكرت شيوخك فاذكرنى معهم ولاتنسنى !

ثم تأهل ببنت حنفى (بك) وكان لأسرتها نوع اتصال بنا ، فاتصلت المودة بينى وبينه بهذا السبب ، وازدادت ملازمته لى لما سكن بجوارنا ، فكان يزورنى عصر كل يوم ، ويبقى حتى نسمر معاً ثم ينصرف . فتارة كنا نحيى الليالى بمسامرات أدبية ومذاكرات علمية أو بمطالعة بعض الكتب . وتارة بمقابلة ما كنت أستنسخه وتصحيحه . وكان لايمل من المقابلة مهما يطل الوقت فيها ويقول : هذا شىء دربنى عليه والدى وعودنى إياه من الصغر .

وأشار علىّ مرة أستاذنا العلامة محمد محمود الشنقيطى أن أطالع « أمالى أبى على القالى » مطالعة إمعان وتدبر ، ولم تكن طبعت بعد ، فاستنسخت منها كراريس عكفت على مطالعتها . وأخبرت المترجم أنى سأحتجب عن الناس بضعة أيام حتى أستوفى مابهذه الكراريس ، فغاب عنى ثلاثة أيام ، ثم حضر ومعه هذا الزجل ينحى فيه على الأستاذ وعلى أبى على القالى اللذين تسببا فى انقطاعى عن الإخوان ، ويذكر فيه بعض من كان يجتمع بنا :

المذهب

مشتاق قوى ليدى السحنه دى مودّتك حيطى ميطى
أبو على كان لكْ مِحنه الله يجازى الشنقيطى

دور

ياسيد احمد ياتيمورْ ياللى مانعنا من أنسكْ
هُوَّ ودادكْ من بنورْ حتى كسرته من نفسكْ
أهديك سلام يشحن وابورْ يقطع محطاتْ على حسكْ
هُوَّ الكتابْ ده م الجنهْ وَلا كلام الجريطى
أبو على كان لك مِحنهْ الله يجازى الشنقيطى

دور

يكره يجينا الشيخ مفتاح يحلى السهر فى القمارى
نفضل ندردش للإصباح والشيخ بروحه موش دارى
عبيط خفيف عالم فلاح بجوز شوارب هوارى
أوقات كده يبقى زنه وآوقات تشوفه رهريطى
أبو على كان لك محنه الله يجازى الشنقيطى

دور

إذا مشى تلقاه يجرى راخى تملى كيعانه
م الكهربا تشوفه دغرى رمح وطرطق إودانه
وإذا اشترى حاجهْ يورى جميع ماجابه لإخوانهْ
وتبقى زيطه لها رنه وآحوال معيشته رطريطى
أبو على كان لك محنه الله يجازى الشنقيطى

دور

عبد الملك راجل زنديق وابنه صَبحْ منهْ مخلولْ
والبابى لاخر بالتحقيق جاهل ثقيل دينه محلول

ومذهبـــه مــذهب تلفيق كله خراف من غير معقول
لا فـــرض عنــدهْ ولاسنهْ دَهْ دينْ إباحي شُــلبيطى
ابو علي كان لك محنه الله يجازى الشــنقيطى

دور

أما القـــدورى بنيـــاته أفغـانى لـــكن يتدحدح
غريب ف شكله وصفــاته نــادر ف بـابــه متلحلح
يــدّى مــلاح للورنـــه أو الزغاليـــل الغيطـــى
أبو على كان لك محنه الله يجـازى الشـــنقيطى

دور

أما الدمـــيرى القلعـاوى تيس تركى أبيض وبلحيه
وابــو فصـــاده الشـناوى أعرج مـــــــلوى كالحيه
بدقن بيضـا حلفـاوى وزعيـق يبطل عـلى ميـه
غبي وسـخ كالشيخ مَنـه فـكره قـــــذاره مخيطى
أبو عـلى كان لك محنـه الله يجازى الشـنقيطى

دور

أهـل الأدب ماتـوا بحسرهْ م اللى شفوه فى دى الأيامْ
النـاس بقت بينهم نفـره والمسلمين صـارت أخصـام
وكل يـــوم تـلقى نشره تملا قلوب النـاس أوهام
بيقفشيـــو لهم عـلى لحنـه بالوهم عايشـين سـلبيطى
أبو على كان لك محنه الله يجازى الشـــنقيطى

دور الاستغفار

يارب انا مذنب عاصى محتاج لعفوك والغفران
من العذاب أرجو خلاصى ودخولى فى جنة عدنان
أنا نحيف موش جاصى مليش نجلد عَ النيران
عفو الكريم أعظم منه على عبيده الحفليطى
أبو على كان لك محنه الله يجازى الشنقيطى

دور الختام

يا اهل الأدب راجى منكم غض العيون عن زلاتى
فن الزجل يروى عنكم أما أنا موش أدباتى
الله يخلى أفضالكم وانول سمودى لماتى
وأبقى كيده ف طنّه وشنه وافرح وترقع زغاريطى
أبو على كان لك محنه الله يجازى الشنقيطى

وإنما يظهر حسن هذا الزجل لمن يعرف المذكورين فيه ، فيطبق ما ذكره عنهم على هيئاتهم وأحوالهم، ومراده بالقدورى والدميرى شخصان كان يلقبهما بهذين اللقبين ، والسبب فى ذلك أننى أطلعته على رسالة عندى جمعها الشيخ أحمد الفحماوى صاحب الخط الحسن المشهور بكتابة لزوم ما لايلزم للمعرى وسماها (بنات أفكار، وعرائس أبكار) فى ألقاب أهل العصر، ذكر بها كنى وألقاباً وضعها لفضلاء أواخر القرن الثالث عشر عبد الحميد بك نافع وإبراهيم

أفندى طاهر الشاعر الرقيق المشهور على سبيل المزاح والدعابة ، فلقبا كل واحد بلقب شاعر متقدم أو رجل مشهور يوافق اسمه هيئة الملقب به أو شيئاً يغلب على أخلاقه وأحواله ، كتلقيبهما مصطفى أفندى المنعوت بكامل بالعكوك لأنه كان قصيراً جداً معوج القدمين ، وتلقيبهما الشيخ محمد الرافعى الكبير شيخ رواق الشاميين بالأزهر وأحد كبار علمائه بملا مسكين لأنه كان نحيفاً وبقوامه بعض احديداب يُرى كأنه تواضع وانكسار ، وتلقيبهما عبد الغنى (بك) أبا المترجم بالأخطل لأنه كان ضخم الجسم ، كبير الهامة .

فلما اطلع المترجم عليها جن بها جنوناً ، وشرع فى وضع رسالة تماثلها فى فضلاء عصره ، وسألنى مشاركته فيها كما فعل ذانك الأديبان ، فامتنعت خشية اللوم ، فانفرد هو بتأليفها ، وأتى فيها بغرائب ذهب أغلبها عن الذهن لطول العهد ، فمن ذلك — تلقيبه للعالم الفاضل على رفاعة (باشا) ابن رفاعة (بك) المشهور : بابن المقفع لنحافته ودخول شدقيه ، وتلقيبه للعالم الفاضل يحيى أفندى الأفغانى : بالقدورى لغرابة شكله وقصر ساقيه تشبيهاً له بالقدر من الفخار ، والقدورى اسم عالم من الحنفية مشهور . وكان الشيخ محمد الحفنى المهدى ابن أخى مفتى مصر الشيخ العباسى المهدى ولعاً بذم الناس ، منقبا عن معايبهم ، لهجاً بها فى المجالس ، لم يسلم منه أحد حتى عمه ، واشتهر بذلك حتى أبغضه عارفوه ، وتحاموا عن الاجتماع به ـ فلقبه : بابن هرمة ، وهى كلمة سب عند العامة ، فقلت له : هذا لا يستقيم لك ، لأن ابن هرمة الشاعر بفتح أوله ، فتأفف وقال : لا أجد له لقباً ينطبقُ عليه غير هذا ، فدعنى من شنفيطيتك .

ثم لما فرغ منها سألته عما لقب به نفسه ؟ ففكر وقال : أحسن لقب ينزل علىّ : ابن قتيبة ، ثم تركه وتلقب : بالمقوقس ، وضاعت هذه الرسالة فيما ضاع من أوراقه وأشعاره ، ويغلب على الظن أنه مزقها لأنه وقع له بسببها نفور بينه وبين بعض من لقبهم ، فإنه لما لقب صاحبنا وصاحبه الشيخ أحمد مفتاح لسلامة طويته : بالأبله البغدادى ، غضب منه وكاد يتفاقم الشر بينهما ، وغضب منه صاحب آخر كان قصيراً ممتلئاً يتدحدح فى مشيته كما يتدحدح البط ، لأنه لقبه بابن بطوطة . فأخفى الرسالة لهذا السبب وطوى ذكرها .

وكان رحمه الله مجيداً فى الزجل ، متقناً لصياغة الأدوار التى يتغنى بها ، وأكثر ما كان متداولا منها بين المغنين فى عصره كان من نظمه ، وأما شعره فالإجادة فيه قليلة ، إلا ماضمنه النكت والتنديرات العامية . فمن أحسن ما وقفت عليه منه قوله من مرثية فى صاحبه على رفاعة (باشا) :

جزعت وللحر أن يجزعا
وودعت صبرى إذ ودّعا

وجادت عيونى على بخلها
وحق لها اليوم أن تدمعا

وروع قلبي النوى بعدما
أمنت ومثلى كم روعا

لحا الله يوماً أشاعوا به
وقالوا أمير العلا شيعا

فما كان أصعب تأبينه
وما كان أسوأه موقعا

وما كان حقى البكاء ولكن
فزعت ولابدع أن أفزعا
تجرعت من هوله كل صاب
وغيرى من الناس كم جرعا
ومادار فى خلدى أننى
أرى البدر يرضى الثرى مضجعا
ولكن شأن الزمان عجيب
فما كان أضيع عهداً رعى
يقول النعيّ : علىّ قضى
ولم يدر أن العلا قد نعى
نعى سيداً صيته طائر
حوى الفضل فى شخصه أجمعا
فدكت رواسى الدنىَ بعده
وماد الزمان بما أودعا
وغابت شموس المعارف لما
ذوى غصنه بعد ما أينعا
فقل للخطابة ذوبى أسى
ولا تطلبي بعده مصقعا

وقـــــل للـكتابة : لاتحفـلى

بمن يتبجح فى المدَّعى

وقـــــل للعـلوم : فقدت أمـيراً

مضى تاركاً فضــــله مشرعا

وقال موريا باسم الطبيب سعد (بك) سامح :

ياســـــعد مالك معـرضـاً

عنى وقلبى فيــــك طامع

إنى أتيتـــــك قائـلا

أنا تائب ياســـــعد سامح

وقال مورياً باسم محمد ثابت :

إن كنت فى ريب بصدق محبتى

وسمعت عنى ما تقـوَّل شـامت

فاعـلم فديتك دائمـاً أنى عـلى

عهـــــد المحبة يا محمـــــد ثابت

ولما مرضت شقيقتى السيدة عائشة التيمورية وأحست بدنو الأجل، نظمت فى مرضها أبياتاً لتـكتب على قبرها ، وتركت مصراع التاريخ لمن ينظمه بعدها ، وهى :

قد كنت عائشة فنوديت ارجعى
للقــــبر مأوى كل حىّ فان

فأتيت صفر الكف عن مرضاته
ومقــــرة بالعجــــز والعصيان

جردت من ثوب الهدى لكن لى
تاجاً من الإســــلام والإيمان

ونزلتــــه مستشفعاً بمحمــــد
وتوســــلى عفــواً من الرحمن

أصبحت ممن زار لحــــدى راجياً
خــــير الدعا وتـلاوة القـرآن

لـكم البقا إخـوان دينى أرخـوا

فنظم المترجم التاريخ بقوله : (قــبر لعائشة سمــا بجنان)

١٠٦ ١٠١ ٨١١ ٣٠٢
١٣٢٠

وله عجائب مما ذهب عن الذهن الآن . ولـكثرة ممارسته للتواريخ الشعرية كان يأتى فيها أحياناً بغرائب فى إبراز المقصود بدون حشو ، كقوله فى تاريخ ولادة ولده عبد الغنى: (عبد الغنى بن أكمل) .

ولم يشتهر والده عبد الغنى (بك) بعلم ، بل كان بارعاً فى الـكتابة التركية والعربية فقط ، وكان يقرض الشعر أحيانا . فمن ذلك قوله هاجياً الشيخ مصطفى

قشيشة ، مدعيا أنه لم يرد إليه كتباً استعارها منه ، وكان الرجل من الفضلاء ، وكانت له زريبة لتربية البقر يتكسب منها ببيع اللبن ، فقال فيه :

شيخ سوء بفعله المنكور أنسى مَعْناً بحلمه المشهور
عامل الناس بازدياد دهاء زاد فى الوقع نغمة الطنبور
واستمال البسيط من لم يطالع من خداع القصير فى المسطور
أشمل الذهن فى اللآمة حتى أورث الصهر أسوأ المقدور
قل ما يلحظ الصحيح بعين غير خلط المنظوم بالمنثور
صار دهراً بصحبتى مستفيداً وفر مال من كنزى الموفور
واقتداء بحبك الشىء يعمى كان ما صار من خطا المشعور
وتمادى الضلال بضع سنين نال منها ماليس بالمحصور
واحتدام الخصام نكران كتب شذ فيها عن نهجها المبرور
وانثنى الآن منكراً مستغيثاً كافراً نعمتى لدى الجمهور
جعل الله عمره مستديماً وثواه الإلهَ فى التنور

وقال فيه أيضاً :

تشرب الخمر للتداوى احتيالا لاشفى الله منك للجسم علـه
دمت فى منقع الزريبة روثاً بك يشتم فى الخياشيم جله

والجلة عند العامة هى روث البقر ، ولايخفى ما فى القصيدة من الضرورات ، كقوله «أنسى» ولا يستقيم الوزن إلا بحذف الياء ، وقوله وتمادى الضلال فعداه وهو لازم . وغير ذلك .

فلما اطلع الشيخ مصطفى على القصيدة والبيتين طلب من صديقنا الشيخ أحمد مفتاح أن يجيبه على لسانه — فنظم قصيدة وبيتين من البحر والقافية فى ٢٤ ذى الحجة سنة ١٣٠٤ ، فقال :

لهوى النفس فى اقتحام الأمور
حكمة تستفز لب الخبير

كل داء يبرا ولو بعد حين
غير داء الهوى وداء الغرور

قف قليلا وأمعن الفكر فيما
أظهرته الغيوب كل الظهور

ظن بعض الرعاع والظن إثم
يورد النفس أسوأ المقدور

أن سيفى لدى الهجاء كهام
وقنانى تلين فى كف زور

فتعامى وعج من فيه روثاً
وقبيح بالمرء خبث الضمير

يشير بهذا البيت إلى قول عبد الغنى بك : دمت فى منقع الخ ..

شت معه على الضغائن سرا
لا أرى منه غير نذل فخور

فانتقى لى بعد انتقالى سطوراً
هو أولى بلفظها المهجور

ظنها الشعر ضـــلة ليس يدري
أن دون القريض خوض البحور

إن « عبد الغنى » عبـــد جهـول
ليس يدرى قبيـله من دبـير

فيه ماشئت قُلهُ غـــير ميالٍ
من ضـلال وخـدعة وفجـور

عرفتـه الإخوان بالخفض حتى
مـــيزته بالخفض والتنـكير

فاتقـوه وأخبث النـاس طـراً
رجـــلٌ تتقيه خـوف الشرور

ورمانى زوراً بنـكران كتب
وبكسبى من وفره المـــوفور

أى وفـر أفاد أم أى كتب
تُبتغى من لدن لئيم حقـــير

حمـل الكتب لا لعـلم ولـكن
لترى النـاس أنه كالحمـير

وانتمى للثقات فى العـــلم حتى
أوهم النـاس أنه ابن كثير

يا عـــــديم التمام فى كل أمر
وقليـــــل الرجاء للمستجير

هاك منى عـــديمة المثـــل أمحت
بمساوٍ على عــــديم النظير

وقال :

إن عبد الغنى عبـــد فقـــير
لم ير النـاس فى السفاهة مِثلَه

جمـــع الدهر فيـه ضـدين حتى
أبرزته العيون للخلق مُثْلَه

رحم الله الجميع ، وتغمدهم بعفوه وغفرانه .

محمد الإدريسي

١٢٩٣ — ١٣٦٤ هـ

هو الإمام السيد محمد بن على بن محمد بن أحمد بن إدريس . ولد فى صبيا سنه ١٢٩٣ هـ وتلقى العلوم الدينية بمسجد جده بها ، ثم أتى مصر سنة ١٣١٤ هـ ، وأخذ العلوم الدينية والعربية فى الأزهر الشريف . وكان أيام تحصيله مكبا على الاجتهاد ، مواظباً على الحضور فى حلقات التدريس لدى مشاهير العلماء .

وفى سنة ١٣١٧ هـ زار السيد محمد المهدى السنوسى بالكفرة عن طريق الجغبوب ، ثم عاد إلى الأزهر الشريف فبقى إلى أواخر سنة ١٣٢١ هـ .

وبعد إتمام التحصيل ، توجه إلى دنقله ، وزار قبر عمه سيدى السيد عبد العال الإدريسى ، وبقى هناك مدة . ثم عاد إلى صبيا ، ووصل إليها سنة ١٣٢٣ هـ الموافقة سنة ١٩٠٥ م . فوجد كثيراً من أتباعه وأتباع أبيه وجده متعطشين لطريق يبينه لهم ويسلكونه ، فشرع يبين لهم ما هو الأصلح لدينهم ودنياهم ، وأرشدهم الإرشاد الذى يستنيرون به ، وصار يمهد لهم طرق العدالة والوقوف على حد أحكام الشرع الشريف .

وكان جميع الذين حوله وبعض البعيدين عنه والسامعون بحسن سيرته وعظيم مجده يقصدون إليه للتلقى عنه ، والسير على طريقته المحمودة ، ولم يلبث قليلا حتى وجد أتباعاً وأنصاراً يقولون بقوله ، ويعملون بعمله ، ويسلكون

محامد سيره، ومحاسن أمره. وهنالك قام الأمير الخطير سيدى السيد محمد بن على الإدريسى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حسب ما كان عليه آباؤه وأجداده الطيبون الكرام، فصار حينئذ لدعوته وقع عظيم فى نفوس أهالى تلك الأنحاء، وهو لايحيد عن الشرع الشريف قيد شعرة. وبينما كان على هذه الحالة التى استحسنها منه كل من شاهد أعماله وسمع بها، إذ ظهر أناس يناقشونه فى أعماله الحسنة، حسداً أو من باب جهل حقيقة حاله. ولايخفى على أحد أن من سلك مثل هذا الطريق لابد أن يكون له من يعارضه، فكانت نتيجة تلك المعارضة وقوع التنافس المؤدى إلى حروب نشأت فى الحقيقة عن سوء التفاهم.

ولما رأى الأمير وأنصاره حرج الموقف، التزموا طرق المدافعة المطلوبة شرعاً.

ولما كتب له التفوق بكثرة الأتباع ومزيد المحبة والسير الحكيم حفظ المركز الذى وفقه الله إليه. وفى تلك الأيام وقعت الهدنة، وأمرت الحكومة العثمانية بسحب جيوشها من عسير وتهامة اليمن وتسليم جميع المهمات الحربية إلى الأمير السيد محمد بن على الإدريسى. وبمقتضى الأمر سلم القواد كل ذلك إليه، وخرجوا وهم شاكرون فضله، مقدرون حسن إنعامه ومكانته الدينية.

وبعد ذلك مال جميع أهالى عسير وتهامة اليمن إليه، وأصبح بعد ذلك قائماً بتدبير شئونهم ولم شعثهم، والمحافظة عليهم، وسعى السعى الحثيث

لتأمين الطرق ، حتى أصبح الإنسان يسافر فى أى جهة شاء بكمال الطمأنينة ولا يتعرض له أحد فى أثناء الطريق ، وضرب على أيدى المجرمين والساعين للفساد ، حتى استتب الأمن كما ينبغى سنة ١٣٤١ هـ

وهو — على جلالة علمه وعظيم قدره وفخامة مكانته — متواضع زاهد ، متمسك بالتقوى .

وقد درج منذ نشأته على حب العلم والأدب وأهلهما ، وكره الظلم والاستبداد . وأعطاه الله من شدة الذكاء وكرم الخلال وعزة النفس والغيرة على الدين والوطن ، بقدر حسن سيرته ، ونقاء سريرته ، وحبه للناس ، وبخاصة الصالحون .

ولقد كان والده سيدى السيد على الإدريسى صالحاً تقيا محبوباً . وأقام بصبيا بعد وفاة والده السيد محمد الإدريسى الذى كان معدوداً من أكابر الأولياء ، وتوفى بصبيا سنة ١٣٢٤ هـ وقد صدق فيهم قول القائل :

إن لله رجالا فُطنا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

وكان من صفوة العلماء الذين يشار إليهم بالبنان فى مجالس العلم والتدريس . ولم يزل متعبداً حتى إنه ـ بعد وفاة والده ـ انتقل من صبيا إلى الحديدة ، وهى أكبر موانى اليمن ، وأقام فى خلوته الخاصة أربعين سنة لم يخرج منها ، ثم أمر أن يحمل إلى صبيا ، فمكث فيها أربعة أيام ، وتوفى إلى رحمة الله ورضوانه ودفن بجوار والده سيدى السيد أحمد بن إدريس .

أما أبو جده فهو سيدى السيد أحمد بن إدريس الحسنى نسباً ، من ذرية الإمام إدريس بن عبد الله من السادة الإدريسية ملوك المغرب ، وقد ذكر من تراجمهم فى « الاستقصا فى تاريخ المغرب الأقصى » ما يغنى المطلع عليه .

ولد رضى الله عنه ببلدة « ميسور » بالقرب من مدينة فاس ، سنة ١١٧١هـ . وقبيلته « العرايش » واشتغل من أول عمره بتحصيل العلوم الدينية ، إلى أن برع فيها ، وصار فى شبابه إماماً فى جميع العلوم ، وأذن له فى التدريس ، وحضر درسه أكابر علماء ذلك العهد .

ثم توجه رضى الله عنه سنة ١٢١٣ هـ إلى بلاد المشرق ، قاصداً مكة المشرفة ، بطريق مصر ، ووصل إلى مكة سنة ١٢١٤ هـ ، ومكث بها نحواً من ثلاثين عاماً ، ذهب فى خلالها مرة إلى الصعيد .

وفى عام ١٢٤٤ هـ توجه إلى اليمن ومكث مدة بمدينة زبير وغيرها . ثم أقام بمدينة صبيا ومكث فيها نحواً من تسع سنين ، وتوفى بها إلى رحمة الله ورضوانه عام ١٢٥٣ هـ وله بها مقام شريف يزار من جميع أنحاء اليمن وغيرها .

وكان رضى الله عنه جامعاً بين فنون العلوم الدينية ، وله اليد الطولى فيها والشهرة التامة . وأذعن لفضله الخاص والعام ، وأخذ عنه العلماء الأعلام والجهابذة الكرام ، ومنهم مفتى الأنام وشيخ الإسلام ، العلامة المحقق ، والمحدث البارع المدقق ، سيدى السيد عبد الرحمن بن سليمان الأهدل ، مفتى زبيد فى ذلك العصر . وعلامة وقته من الفحول ، الجامع بين على المعقول والمنقول ، سيدى السيد محمد بن على السنوسى الجسنى شيخ الطريقة السنوسية المدفون

بالجغبوب من أعمال طرابلس الغرب . ومنهم العلامة الإمام العارف بالله تعالى مربى المريدين ، الشريف الحسينى سيدى السيد محمد عثمان الميرغنى شيخ الطريقة الميرغنية المدفون بمكة المكرمة ، ومنهم العارف بالله تعالى صاحب الكرامات سيدى الشيخ إبراهيم الرشيدى شيخ طريقة الرشيدية الأحمدية المدفون بمكة المشرفة .

ومنهم العارف بالله تعالى الشيخ محمد المجذوب السواكنى ، من أولياء السودان ، المدفون بها .

ومنهم المحدث شيخ علماء وقته بالمدينة المنورة الشيخ محمد عابد السندى - صاحب الثبت فى الأسانيد .

وكان للسيد أحمد بن إدريس رضى الله عنه غير من ذكر من الخلفاء والأتباع مالا يدخل تحت حصر .

وبهذا يعلم جيدا طيب العنصر الباهر ، وما لآبائه وأجداده من الفخر والفضل الظاهر . ولاشك أنه إذا طاب أصل المرء طابت فروعه — ولاغرو فقد جمع الله لسيدى الأمير السيد محمد بن على الأدريسى أمير عسير وتهامة اليمن ، بين سعادتى الدنيا والآخرة .

عبد الحميد نافع

هو عبد الحميد نافع (بك) .

كان والده خليل أفندى من كبار الأثرياء بالقاهرة ، وكان له قصر كبير في شبرا تحيط به حديقة فيحاء كبيرة .

وقد نشأ المترجم له فى القاهرة ، وشغف وهو فتى بالأدب ، وأكثر من الاجتماع بشيوخه ، وتلقى منهم الكثير المفيد . وحبب إليه اقتناء نفائس الكتب والمغالاة بها ، فجمع خزانة عظيمة منها شراء واستنساخاً . وكان يعتمد على الشيخ نصر الهورينى — فى مقابلتها وتصحيحها . وكانت له مع المغالين بالكتب من فضلاء عصره نوادر وغرائب فى التسابق لاقتنائها ، وسمع به الوراقون فحملوها إليه من الآفاق ، وهو يسخو عليهم ، ولا يماكس فى الأثمان ، حتى صارت خزانة كتبه يضرب بها المثل . وكان يجاريه فى ذلك عبد الغنى فكرى (بك) ولا يكاد يلحقه مع اشتهاره بالمغالاة بها . ثم اشتغل المترجم بالموسيقى ، وألف فيها رسالة ، وأتقن العزف على القانون ، وأكثر من المطالعة فى كتب الأدب ودواوين الشعر ، ومن مطارحة الأدباء ومناظرتهم . حتى صارت له ملكة أدبية يعتد بها ، وصارت داره مجتمع الفضلاء وشيوخ الوقت وأدبائه ، فكانوا يجتمعون عنده فى الغالب كل ليلة جمعة ، فيجرى بينهم من المطارحات الشعرية والمناظرات العلمية ما ينشرح له الخاطر .

وائتلف المترجم بصاحبه وصديقه إبراهيم أفندى طاهر أحد الشعراء المجيدين ، فعاشا أليفى وفاء ونديمى صفاء ، حتى فرق الموت بينهما. وقد قام بهما أن يلقّبا من كان يجتمع بهما من الفضلاء بألقاب قديمة لأعيان وشعراء مشهورين ، مع مراعاة مطابقة اللقب لهيئة الملقب به أو أخلاقه ، وقد جمع فى ذلك الشيخ أحمد الفحاوى رسالة كبيرة كثيرة الطرف .

وللمترجم من المؤلفات عدا رسالة الموسيقى : « تاريخ أعيان القرن الثالث عشر وبعض الثانى عشر » بيع لما بيعت كتبه . وهو موجود الآن فى « ليدن » بهولندة . كما جمع المترجم ديوان صاحبه صفوت أفندى الساعاتى مختصرا .

ولم يطل به العمر ، إذ مات شاباً فى مدة حكم سعيد . وبعد وفاته ، استولى محمد عارف (باشا) زوج أخته على كتبه ، فكانت له مادة ثمينة فى الكتب التى طبعها بجمعية المعارف ، ثم تشتت وبيعت .

أحمد خيرى

كان أحمد خيرى باشا جركسى الأصل، إلا أنه لم يكن رقيقاً ، بل حضر مع والده من بلاده لمصر لتلقى العلم ، فنزلا فى زاوية بأول عطفة عبد الله من جهة سوق السلاح. وكان بها نفر من مجاورى الأتراك ، وواظب على الطلب بالأزهر ، فقرأ على الشيوخ ، وساعده ذكاؤه على التحصيل ، حتى صار مقرئاً للشيخ المنصورى الحنفى الضرير . ثم حضر المطول على الشيخ العلامة إبراهيم السقاء لما قرأه أول مرة . وكان ممن يحضر معه الشيخ محمد الإنبابى الشهير وإخوانه ، فكان الشيخ كلما مرت بهم كلمة فارسية فى المطول سأل المترجم عن معناها فيفسرها ، وكان زيه إذ ذاك ـ زى أهل العلم من الأتراك ـ الجبة والقفطان، إلا أنه كان يعتم بشقة من الحرير الملون المسماة بالكوفية . ثم اتصل بأولاد أحمد باشا يكن ابن أخت محمد على باشا ، وهما منصور وداود ، فجعل معلماً لهما ، ومن هناك اتصل بحاشية والى مصر عباس باشا ، فجعل فى آخر مدته كاتبا بديوانه ، فغير زيه وصار من الأفندية ، ولما تولى سعيد باشا عرف فضله وقدره ، فجعله معلماً لولده طوسون باشا ، وأخذ بعد ذلك فى الترقى .

وفى ولاية إسماعيل باشا جعل من كبار كتاب المعية الخ . . وكان وقوراً كثير السكوت لاينطق العوراء . انتقد مرة ، مكاتبة كتبها بالتركية محمد عارف باشا الشهير رئيس جمعية المعارف التى طبعت الكتب بمصر . ثم اجتمع به فى بعض المجالس ، فأخذ عارف باشا يقرعه ويسبه من غير ذكر

اسمه ، بل قال : بلغنى أن أحد من تخرج من إسطبل الأزهر انتقد كتابتى . ثم أخذ فى سبه وبالغ ، والمترجم ساكت لايتكلم .

فلما افترقا لامه بعض أصحابه على السكوت ، مع أن التعريض كاد يكون تصريحاً . فقال : رجل سفيه رأيت مداراته ، والإغضاء عنه أولى بى .

ومازال أحمد خيرى باشا فى مدة إسماعيل الخديو فى منصبه (مكتوبجى) أى كاتب السرّ الخاص ، ثم ترقى إلى أن صارمهر داراً ، وبعد الاحتلال نقل من المهر دار إلى رياسة الديوان .

ولم يخل من قول بعض أدعياء الانتقاد : إنه لما تولى المناصب الكبيرة أخذه شىء من أبهتها ، حتى قيل إنه إذا أراد أن يشير بالسلام على أحد لا يرفع يده إلا قليلا . وهذه حالة ليست ذات أهمية ، أمام ما سبق ذكره من مداراته وإغضائه عن تعرض له بالسب وبالغ فيه . . . رحمه الله .

ابراهيم باشا

جاء كبيراً مع والده من بلده ، وأمه هى أم طوسون وإسماعيل وزهرة وناظله ، وكانت أشرف بيتا من بيت محمدعلى، وتزوجت قبله بأحد أبناء الكبار ثم نشزت منه فطلقها وغضب أهلها وأقسموا ألا يزوجوها إلا بشخص منحط عن مرتبتها ، فتزوجها محمد على . ومن يريد الطعن فى نسب إبراهيم يقول إنها تزوجت محمد على وهى حامل من زوجها الأول ، فولدت إبراهيم على فراشه ، فهو ليس بولده ، وهو قول لم يثبت . وبسبب شرف بيتها كانت تتعاظم على محمد على، وهو يحتمل لها ، حتى لما قتل ولدها إسماعيل بالسودان ، وبلغها الخبر، دخلت على محمد على ورمت طربوشه من رأسه ، وأخذت بلحيته وهى تبكى وتصرخ وتقول : من أحل لك الرمى بأولادى إلى تلك المجاهل وقتلهم ؟ وهو لا يزيد على البكاء ويقول لها : أمر الله ، أمر الله . ولما ماتت قال : الآن صرت والى مصر ، لأنها كانت تتحكم فيه وفى أموره .

وكان إبراهيم باشا معتلا فى أواخر مدة والده ، وكان يسكن بقصر القبة ، فذهب والده مرة لزيارته هناك ومعه سليم[1] أغا السلحدار ، فقال له فى أثناء الطريق : لقد طال اعتلال إبراهيم ، فلا هو فى حال يرجى معها ، ولا يموت فيستريح ويريحنا . فأبلغها السلحدار لإبراهيم .

---

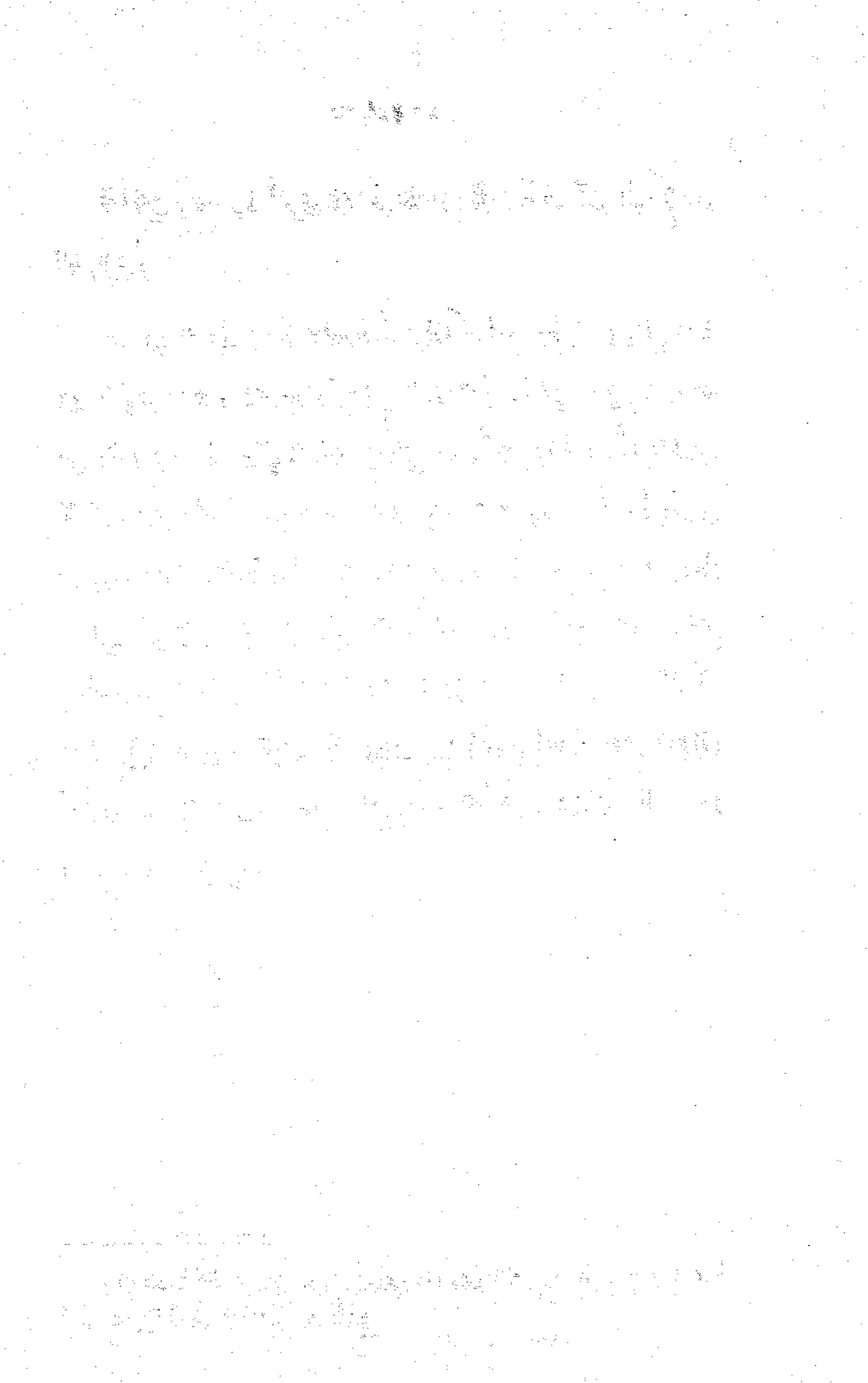
(١) لعله : سليمان أغا السلحدار .

فلما قابل والده مرة أخرى فاتحه فى ذلك، وقال : ما هو ثقلى عليكم حتى تتمنوا موتى ؟!

فامتعض محمد على، وصار يحلف له أن مبلغه كذاب . ولم يزل إبراهيم معتلا حتى لما تولى وذهب لاستنبول كانوا يرون فى القارورة التى ينفل بها بصاقه معرقاً بالدم. ولما تولى انتقل إلى القلعة وسكن بها، وأحضروا له جنداً من الحرس كالعادة . فقال : لاحاجة لى بالحرس ، فقد شهدت عدة حروب[1] ، ولم يكن لى حرس . ومات بالقلعة ، ونزلوا بجنازته ودفنوه فى مقبرتهم التى بجوار الإمام الشافعى . وكان عندهم بين معلمى القصر العالى رجل فارسى اسمه سنجلاخ خطاط مشهور ، فناطوا به كتابة الكتابات على تربته ، واعتنوا بها كثيراً ، فيقال : إنها كلفتهم نحو ثلاثين ألف دينار . ولما تمت أعطاه أولاده الثلاثة ، أحمد رفعت وإسماعيل ومصطفى ، كل واحد مائة كيس كالجائزة ، فلم ترضه ، وسافر لبلاده فمات بها .

---

(١) يحدثنا التاريخ عن حروب إبراهيم باشا وفتوحاته ، وما كان يلهج به : لو لم أكن مصرياً لتمنيت أن أكون مصرياً الخ . .



أعلام الشام



رقم مسلسل	أسماء الأعلام	التاريخ
١	محمد صنع الله الخالدى	١١٤٠ـ١٢٠٥هـ
٢	كمال الدين الغزى	١١٤٨ـ١٢١٣هـ
٣	محمد العطار	١١٧٧ـ١٢٤٣هـ
٤	موسى الخالدى	١١٨١ـ١٢٤٧هـ
٥	عبد الرحمن الكزبرى الثانى	١١٨٤ـ١٢٦٤هـ
٦	أحمد الحجار الحلبي	١١٩٠ـ١٢٧٠هـ
٧	مصطفى الخالدى	١٢٠٢ـ١٢٦٠هـ
٨	مصطفى المغربى التهامى	١٢٠٥ـ١٢٨٠هـ
٩	محمد التميمى المغربى	١٢٢٢ـ١٢٨٦هـ
١٠	أحمد الحلوانى	١٢٢٨ـ١٣٠٧هـ
١١	محمود الحمزاوى	١٢٣٦ـ١٣٠٥هـ
١٢	أحمد عبد الغنى عابدين	١٢٣٨ـ١٣٠٧هـ
١٣	محمد علاء الدين عابدين	١٢٤٤ـ١٣٠٦هـ
١٤	أحمد الفحماوى	١٢٤٦ـ١٣٠٩هـ
١٥	حسين عوده	١٢٥٢ـ١٣٣٢هـ
١٦	محمد المبارك الحسنى الجزائرى	١٢٦٣ـ١٣٣٠هـ
١٧	محمد بدر الدين	١٢٦٧ـ١٣٤٤هـ
١٨	طاهر الجزائرى	١٢٦٨ـ١٣٣٨هـ
١٩	سليم الآمدى البخارى	١٢٦٨ـ١٣٤٧هـ
٢٠	محمد أبو الخير عابدين	١٢٦٩ـ١٣٤٣هـ
٢١	حسن المدور البيروتى	١٢٧٩ـ١٣٤٢هـ

مُحَمَّد صُنع الله الخالدي

١١٤٠ — ١٢٠٥هـ

وقفت له على ترجمة بخط الأديب المعروف خليل الخالدى، قال :

هو أحد أجلاء شيوخ المتأخرين ، الجامع أطراف الكمال ، والرجل الذى يعد بكثير من الرجال ، العالم العلامة ، والحبر البحر الفهامة ، الرحالة المجتهد شيخ الإسلام الشيخ محمد صنع الله الخالدى ، ابن المحقق العلامة الشيخ محمد صنع الله الكبير ، ابن خليل ابن القاضى شرف الدين الديرى الخالدى .

ولد فى السنة الموفية الأربعين ومائة وألف ، بعد وفاة أبيه . فلذلك سمى باسم أبيه . كان رحمه الله عالماً عاملا ، ورعاً زاهداً تقياً نقياً ، بارعاً فى العلوم خصوصاً الفقه والعربية . أخذ وتلقى عن صفوة من أعلام الأزهريين ، وأجازه كثير من أجلاء المصنفين ، وقد حضر فى مبدء أمره على العلامة الشيخ محمد ابن على المقرى الحنفى الأزهرى : شرح الأجرومية للشيخ خالد ، والأزهرية ، ومراقى الفلاح ، والملتقى ، والدر ، وشرح بدء الأمالى ، والأربعين النووية .

وحضر على العالم الشيخ مصطفى الأسقاطى : شرح الكنز لمنلا مسكين ، وحاشية الكنز لخاتمة المحققين الشيخ أحمد الأسقاطى . وأخذ عن علامة المعقول والمنقول الشيخ على العدوى الصعيدى المالكى : شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ، وشرح السنوسى فى المنطق وغير ذلك ، وسمع الأربعين

النووية ، وشرح الرجبية ، وقطعة من «الإتقان ، فى أحكام القرآن» على الشيخ محمد أبى زيد الشهرزنى الأزهرى ، وأخذ وتلقى : التوضيح لابن هشام ، وألفية ابن مالك ، وجوهرة اللقانى ، وإيساغوجى ، على العلامة على بن خضر بن أحمد العروسى ، أحد أصحاب الشيخ أحمد النفرواى تلميذ العلامة محمد الخرشى الآخذ عن الشيخ عبد الباقى الزرقانى . وقرأ على العلامة الشيخ محمد المصيلحى : شرح جمع الجوامع للمحلى ، وشرح التلخيص للتفتازانى وشرح التهذيب له أيضا . وشرح قواعد الإعراب للشيخ خالد ، والأربعين للنووى ، ونبذة من الشمائل ، ومتن السمرقندية ، ومتن البردة ، وغير ذلك .

وسمع على العالم العلامة الشيخ حسن بن نور الدين على المقدسى : الكنز وشروحه المعتبرة ، والدرر والغرر مع الحواشى .

وحضر على المحقق العلامة الشيخ أحمد بن يونس الخليفى الشافعى الأزهرى : مختصر السعد للتفتازانى ، وشرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ، وعصام الدين فى البيان ، وشرح الرسالة العضدية ، وشرح المحلى على جمع الجوامع ، وشرح الخبيصى على التهذيب ، وشرح القطب على الشمسية .

وحضر على العلامة الأجل المجتهد الشيخ عيسى البراوى : الشرح المختصر للسعد التفتازانى ، ومشرح السنوسية ، وشرح العلامة ابن عقيل على ألفية ابن مالك مرات . وشرح الأشمونى وشرح الفاكهى على القطر ، وشرح الاستعارات للعصام ، وشرحها للشيخ أحمد الملوى ، وشرح الحديث وغير ذلك .

وقرأ على العلامة المدقق الشيخ أحمد الدمنهورى بشرحه على متن

الاستمارات للسمرقندي ، وشرحه على السلم فى علم المنطق ، ومتن (الكبرى) المسماة بتحفة الملوك ، و (الصغرى) المسماة بدرة التوحيد فى علم الكلام ، وبعض كتب النحو .

وقرأ على المحقق العلامة الشيخ أحمد الجوهرى الخالدى الأزهرى : شرح المصنف للسنوسى ، وشرح الجوهرة للشيخ عبد السلام مرتين ، وقطعة من شرح الشيخ عبد السلام على الجزرية ، ومتن الأربعين النووية وشرحها لابن حجر ، وقطعة من شمائل الترمذى ، وقطعة من متن الشفاء .

كما تلقى عن علماء آخرين كثيرين منهم : العلامة حسن بن على المدابغى الأزهرى ، والعلامة الشيخ سليمان الزيات الشافعى الأزهرى ، والعلامة الشيخ سليمان المنصورى الحنفى ، والمدقق الشيخ محمد الفارسى الفارسكورى الأزهرى . وقد أجازه العلامة الشيخ عبد الله الشبراوى ، والعلامة الشهاب أحمد بن عبد الفتاح الملوى ، والعلامة عمر بن على الطحلاوى المالكى الأزهرى ، والعلامة المحقق محمد سالم الحفناوى وأخوه يوسف الحفناوى .

وأجازه من أقرانه العلامة محمود ابن الملا على العانى تلميذ المحقق ملا إلياس الكردى ، ومدلج البغدادى ، والشيخ محمد الدلجى الحنفى تلميذ الشيخ سليمان المنصورى ، والشيخ محمد بن بدير بن محمد المعروف بابن حبيش المقدسى تلميذ الشيخ عيسى البراوى ، والشيخ أحمد الراشدى .

وقد حج المترجم سنة ١١٧٨ هـ ، وأجازه الشيخ أحمد الدمنهورى وهو فى دار منى حينما كان حاجاً فى تلك السنة بصلاة شريفة نصها — كما

رأيت بخطه :—« اللهم صل على أشرف مخلوقاتك، سيدنا محمد وعلى آله عدد معلوماتك . . » .

وتوفى رحمه الله سنة ١٢٠٥ هـ ، ودفن بتربة : مأمن الله خارج القدس . وترك ثلاثة من الذكور هم : محمد، وموسى ، وعمر . وأكبرهم محمد ولد سنة ١١٧٤ هـ وتبحر فى العلوم، وأجازه والده ومحدث الشام الشيخ محمد بن عبد الرحمن الكزبرى ، وتوفى سنة ١٢٠٥ هـ .

كمال الدين الغزي

١١٤٨ — ١٢١٣ هـ

وقفت له على ترجمة بخط الأستاذ العالم السيد عيسى اسكندر المعلوف ، فى كتابه « مغاوص الدرر فى أدباء القرن التاسع عشر » ملخصة مما جمعه من مخطوطات ومصادر كثيرة ، قال :

هو السيد كمال الدين محمد ، بن أبى الكمال محمد شريف ، بن شمس الدين محمد ، بن عبد الرحمن ، بن زين العابدين ، بن زكريا ، بن بدر الدين محمد ، ابن رضى الدين محمد ، بن رضى الدين محمد أيضاً ، بن شهاب الدين أحمد ، ابن عبد الله الدمشقى العامرى الحسنى الصديقى الشهير بابن الغزى ، لأن أجداده كانوا فيها وانتقل بعضهم إلى دمشق كما فى كتابى « تاريخ الأسر الشرقية » .

ولد فى دمشق سنة ١١٤٨ هـ بدارهم شمالى الجامع الأموى الكبير ، وتخرج على والده وغيره من علماء عصره مثل : أبى الإقبال السقطى الصالحى ، وأبى الأسرار السلمى ، وأبى العباس بن حيمور البقاعى ، وأبى الحسن علاء الدين الغزى العامرى ، وأبى الإخلاص المرجانى البقاعى المعروف بالطباخ ، وأبى الصفاء بن أويس الحموى الدمشقى الشهير بالعلوانى ، وأبى الأسرار قطب الدين العبد لانى الكردى ، والكمال بن قطب الدين مصطفى البكرى ، وخال المترجم أبى البركات الأيوبى ، وتاج الدين بن إلياس المدنى ، وعبد الرحمن الكردى البانى .

وهو من بيت علم شريف ، فوالده أبو الكمال محمد شريف بن شمس الدين محمد الغزى ، وعمه أبو الوفاء وجيه الدين عبد الرحمن ، وجدته لأبيه طاهرة خاتون ابنة الشيخ عبد الغنى النابلسى .

وكان له ولع بالأدب والتاريخ والتراجم — فمن مؤلفاته : « الورد الأنسى والورد القدسى فى ترجمة سيدى الشيخ عبد الغنى النابلسى » . وهو مجلد ضخم فيه فوائد كثيرة عن ذكر الصالحين وآثار الأولياء ، وذكر نسب آل النابلسى وتراجم أسلافه ، ثم ترجمته مفصلة وأطواره وأحواله وزهده ومكارم أخلاقه وذكر مشايخه فى أنواع العلوم وأصناف الفنون ، وذكر طريقة النقشبندية والقادرية بتفصيل كافٍ ، ثم تراجم تلاميذه ، والآخذين عنه ومريديه والمتصلين به ، ثم تآليفه النافعة وتحريراته الجامعة ، والمكاتبات والمدائح الواردة عليه ، وكراماته وكلماته وحكمه [ونسختى بقطع نصف كبير فى ٤٢٠ صفحة بخط جميل دبجها عبد الكريم الحمزاوى[١] .]

ومنها تذكرته التى هى آخر التذاكر المفيدة ، وتقع فى ١٤ جزءاً ، وفيها أدب وتاريخ وتراجم وحوادث . وكتابه المفيد « النعت الأكمل » فى طبقات الحنابلة ، وكتاب « إتحاف ذوى الرسوخ » وهو معجم شيوخه ، وديوان شعره وقد ذكره مراراً — فى (الورد الأنسى) . ورسالة سماها : « لمعة النور بتضمين من عادة الكافور » أكثر فيها من التضمين للمصراع المشهور « من عادة الكافور إمساك الدم » .

---

(١) هذا ما علق عليه المغفور له العلامة المحقق احمد تيمور باشا بخطه — رحمه الله تعالى .

وله أشعار كثيرة ذكرها «المرادى» ، كما جمع كثيراً من دواوين الشعراء كالبهلول ، والدكنجى .

ولا نعرف من كتبه الباقية الآن سوى (الورد الأنسى) ، وبعض أجزاء من « التذكرة » ولعل بقيتها فى مكاتب الخاصة .

ثم كتب إلينا الأستاذ المعلوف أن صاحب الترجمة له بعض المجاميع ، وفى بعض أجزاء تذكرته أشعار تركية تدل على إتقانه هذه اللغة . وكانت بينه وبين الشيخ خليل المرادى مفتى دمشق صاحب تاريخ « سلك الدرر » مودة وثيقة العرى ومساجلات ومراسلات ، ونقل المرادى كثيراً من شعره .

ثم استطرد قائلا : وممن راسله شعراً الشيخ السيد أحمد البربير الذى جمعت ديوانه بيدى ، وهو بليغ نادر مشتت فى ثنايا المخطوطات والكنانيش .

وقد كتب على ضريحه ، فى مدفن أسرته الغزية فى « تربة الدحداح » تاريخ وفاته سنة ١٢١٣ هـ فى بيتين من نظم صديقه السيد عبد الحليم اللوجى ، وهما :

أيا سحب الرضا والعفو سحى | على قبر حوى النفس الزكيه
محمد الفتى الغزى أرخ | كمال الدين مفتى الشافعيه

٩١ ٩٥ ٥٣٠ ٤٩٧

١٢١٣ هـ

وهو يخالف المتعارف من أن وفاته كانت سنة ١٢١٤ هـ فإما أن الشاعر اضطر إلى تنقيص سنة لما فى شطر التاريخ من المحاسبة التى لا يمكن زيادة واحد عليها ، وإما أن وفاته فى تلك السنة . والله أعلم .

والمترجم لم يعقب ، بل إن « بنى الغزى » فى دمشق هم من سلالة ولدى شقيقه ، وقد انقطع العلم فيهم منذ عهده .

مُحَمَّد العَطَّار

١١٧٧ هـ — ١٢٤٣ هـ

وقفت له على ترجمة جمعها بخطه الأديب المعروف السيد عيسى إسكندر المعلوف قال :

توجد ثلاث أسر مشهورة باسم العطار ، ولا نسبة بين إحداها والأخرى . وإن اشتركت فى صنعة العطارة .

فبنو العطار فى مصر أصلهم من المغرب ، وبنو العطار فى دمشق أصلهم فيما يقال من حماه من بنى عسكر ، ومنهم أسرة حلبية منها المترجم له[1] . وتوجد أسرة العطار أيضاً فى اللاذقية ، ولا تمت إلى أحد من هذه الأسرة بقرابة .

والمترجم هو الشيخ محمد بن حسين الشهير بالعطار وبالمدرّس الحنفى ولد بدمشق فى ٢٧ رمضان سنة ١١٧٧ هـ — وأخذ عن والده الشيخ حسين وغيره من العلماء ، واشتغل بالعلوم العقلية واشتهر فيها ، وظهر ميله إلى مذهب « الوهابية » — فتجافاه الناس واعتكف فى داره يقرأ ويؤلف فى فنون الحرب والعقليات ، فوضع رسائل ، وتوفى بالطاعون سنة ١٢٤٣ هـ .

وكانت له مكانة رفيعة علمية لاختصاصه بفنون الفلك والحساب وسائر

---

(١) إن أسرة العطار التى نشأ منها المترجم الآن هى حلبية لم يكثر أعقابها فى دمشق التى نزلها الشيخ محمد هذا ، ولم يعقب فيها وكانت له شقيقة تزوجت الشيخ حسين رمضان الشهير بالنعسان فى دمشق ، وهو ابو جد صديق الشيخ عبد القادر بدران لأمه .

الرياضيات ، واتصلت أوراقه بمكتبة آل الشطى فى دمشق ، وهى اليوم فى حوزة صديقى السيد محمد جميل الشطى النائب والإمام الحنبلى فى دمشق .

وله ترجمة فى كتابه « روض البشر فى أعيان القرن التاسع عشر »[1] . باختصار . ولاعتزاله الناس لم يدرس عليه إلا قليل من مريديه تلقوا عنه بعض العلوم العقلية ، وترك رسائل نفيسة بخطه وخط غيره ، أشهرها رسالة « بلوغ المطلوب فى القنبرة والطوب » وله قصيدة موجودة بخطه فى المكتبة الشطية .

ومنها « رسالة المزولة » فى ثمانى ورقات بخطه ، ومنها نسخة بغير خطه فى مكتبة الشيخ عبد الرزاق البيطار .

ومنها « رسالة فى القبان » وكيفية عمله بطرق هندسية بديعة ، وعندى منها نسخة حديثة الخط .

وبين أوراقه جداول كثيرة منها لسهم القوس وقوس السهم فى الربع الجيب . كتب عليها الشيخ محمد الطنطاوى ما نصه : إنه يمكن أن يستخرج منها جيب القوس وقوس الجيب .

ومنها رسالة فى « علم التنجيم » بخطه فى عشر صفحات . رحمه الله .

---

(١) هو كتاب آخر فى علماء القرن الماضى مرتب على حروف المعجم جمع فيه مؤلفه ٣٠٥ تراجم من مشاهير القرن وبينهم بعض أحياء .

موسى الخالدى

١١٨١ — ١٢٤٧ هـ

هو : السيد موسى الخالدى — الابن الثانى للعلامة الشيخ محمد صنع الله الخالدى . كان عالما محققاً ، ومصنفاً مدققاً ، تقلد المناصب العالية ، كقضاء القدس والمدينة المنورة ، وتدرج فيها حتى ارتقى إلى الوزارة العلمية وهى قضاء عسكر أناضولى فى عهد السلطان محمود الثانى . وكان يجله ويعتمد عليه حتى لقد أرسله للفصل فى حادثة مهمة وقعت بالقرب من أنطاكية سنة ١٢٤٧ هـ فتوفى رحمه الله بأنطاكية مسموماً فى تلك السنة ، ودفن بها . وهو جد يوسف ضيا » (باشا) الخالدى لأمه . وقد ذكر فى « تاريخ الوقائع العثمانية الرسمى » وذكره جودت (باشا) أيضاً فى تاريخه العثمانى عند ذكر تلك الحادثة .

وكان مولده كما وجد بخط أبيه ليلة الثلاثاء بعد المغرب من الليلة الموفية لعشرين من ربيع الأول سنة ١١٨١ هـ . أخذ العلوم عن كثير من العلماء والأعلام ، منهم الشيخ محمد البديرى المقدسى ، وأجازه والده بجميع مروياته ومسموعاته . كما أجازه فى الطريقة الخلوتية والقادرية وبجميع الأحزاب القادرية والخلوتية والشاذلية السيد كمال الدين الصديقى ابن السيد مصطفى البكرى وهو سند فى الطريقة رفيع ، وخليفته الشيخ محمد أبو السعود .

وكان رحمه الله ذا خط حسن ، وعقل راجح فى الفقه ، له فيه رسائل تدل على طول باعه فيه وسيلان قلمه ، كما أن له يدا طولى فى الفلك والأزياج .

وله فى القدس وقف ، وقفه على أولاده وذريته ، ولم يخلف من الذكور سوى ولده السيد مصطفى . رحمه الله .

عبد الرحمن الكزبري الثاني (1)

١١٨٤ — ١٢٦٤ هـ

وقفت له على ترجمة كتبها السيد محمد أبو الخير عابدين الذى كان مفتياً للشام نصها :

هو الشيخ الإمام الدمشقى الأصل والمنشأ الشافعى المذهب ، محدث الأقطار الشامية على الإطلاق ، بل إمام العصر فى جميع الآفاق ، الحائز من طارف الرواية وتلادها أعظم الذخائر ، المالك لأزمة التحقيق والدراية كابراً عن كابر ، بركة الدنيا فى زمانه ، وخاتمة الحفاظ فى أوانه ، أستاذ الأساتذة العظام ، وشيخ الشيوخ الأعلام ، العالم الكبير ، والإمام المحدث الشهير ، شيخ مشايخنا أبو المحاسن زين الدين الأثرى ، سيدى الشيخ عبد الرحمن الكزبرى ، الملقب بوجيه الدين ، مدرس الحديث بجامع بنى أمية ، ابن المرحوم بركة الأنام الإمام المحدث الشهير الأثرى الشيخ شمس الدين محمد الكزبرى المولود بدمشق سنة ١١٤٠ هـ والمتوفى بها سنة ١٢٢١ هـ ابن المرحوم الشيخ عبد الرحمن الكزبرى الكبير ، المولود بدمشق سنة ١١٠٠ هـ ، والمتوفى بها سنة ١١٨٥ هـ ، ابن محمد بن زين الدين الكزبرى الدمشقى ، تغمدهم الله برحمته وغفرانه ، وأغدق على ضرائحهم سحائب رحمته وإحسانه .

---

(١) كان الإمام عبد الرحمن الكزبرى الأول جد المترجم لأبيه ، رحمهم الله جميعاً

أخذ عن جملة ممن أسانيدهم فى غاية العلوّ والاشتهار ، كالشمس واسطة النهار ، يقاربون الخمسين من دمشقيين وحجازيين وعراقيين ومصريين . وغالبهم بالإجازة مشافهة وكتابة ، أو مكاتبة من بلادهم ، كما ذكره الشيخ عبد الغنى الميدانى ، شارح متن القدورى فى الثبت الذى جمعه له .

وكانت ولادته غرة شوال سنة ١١٨٤ هـ بدمشق ، وتوفى بمكة المكرمة نهار الأربعاء ١٤ من ذى الحجة سنة ١٢٦٤ هـ — وصلى عليه بالحرم الشريف المكى ، ودفن فى « المعلى » كما رأيته بخط شيخنا المرحوم ابن العم السيد محمد علاء الدين عابدين ، رحمه الله تعالى .

وقد اطلعت على إجازة للمترجم ولولديه المرحومين الشيخ عبد الله والشيخ أحمد مسلم مدرس الحديث ، ولأولادهم — من الشيخ محمد بن أحمد العطوشىّ الملتجىء إلى حرم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بخطه المتبوع بخاتمه ، بتاريخ عاشوراء سنة ١٢٥٩ هـ .

أحمد الحجار الحلبي

١١٩٠ — ١٢٧٠ هـ

وقفت له على ترجمة بخط أحد أتباعه وتلامذته . . قال : هو علم العلم الباذخ ، وطود الفضل الشامخ ، عالم الأئمة إمام العلماء ، العالم العابد الورع الناسك الزاهد ، سيف الله البتار ، القائم بالله لله فى جميع الأطوار ، أبو عبد الرحمن أحمد الحجار ابن قاسم شنون ، الحلبى وفاة ومولداً ، الدمشقى محتداً .

ولد رحمه الله فى حدود التسعين من المائة الأولى بعد الألف من الهجرة ، وأخذ القرآن الكريم عن الشيخ الإمام الورع الشيخ عبد الكريم الترمانينى ، والد السيد أحمد الترمانينى . وقرأ عليه مقدمات العلوم كالآجرومية وغاية أبى شجاع وغيرهما ، ثم لازم الإمام الشهير بالشافعى الصغير السيد أحمد الهبراوى المتوفى سنة ١٢٢٤ هـ ، وأخذ عن طائفة من أجلاء العلماء فى ذلك العصر ، وتلقى علوم التوحيد عن العارف بالله زين المرشدين ، أبى محمد إبراهيم الكبير الهلالى المتوفى سنة ١٢٣٨ هـ وسلك عليه الطريق الهلالى المأخوذ من الطريقين القادرى والخلوتى ، وأدخله الخلوة الأربعينية مرات ، حتى ظهرت عليه أمارات النجابة ، وسطعت عليه أنوار المعارف والفتوحات الإلهية ، فأذن له فى الهجرة إلى دمشق ، وقال له : لاتأكل غير البصل . فهاجر إليها وأقام مجاوراً فى المدرسة البدرائية عشرين سنة ونيفا ، معتكفاً على أكل البصل

فى جميع تلك المدة . ولم يتناول غيره أدماً سوى مرة اشتهى الدسم فأذاب شحماً وقلى به بصلاً فاعترته الحمى للثلثة ثمانية أشهر ، فأحسن التوبة، وعاد إلى البصل بقية إقامته بدمشق .

وكان إذا اتفق له حضور وليمة فى تلك المدة يقول لصاحب الدعوة : أحضر لى بصلاً فإنى لا آكل غيره . بهذا أمرنى شيخى ! .

ومن فضلاء ذلك العصر الذين أخذ عنهم : سعيد الحلبى ، وحامد العطار ، وعبد الرحمن الكزبرى ، والسراج الداغستانى ، والضياء خالد الكردى النقشبندى الذى اصطحبه لزيارة بيت المقدس وعادا معاً إلى دمشق حيث ألبسه الخرقة النقشبندية وأقامه خليفة له — لكن غلب عليه الاشتهار بالعلم وتدريسه ، وانتفع به خلق كثير هناك ، منهم السيد إبراهيم العطار . ثم استدعاه أهل حلب للاحتياج إليه . وقلد بها فتوى السادة الشافعية ، والتدريس فى مدرسة بنى العشائر والصلاحية وغيرهما ، مع الإمامة والخطابة فى الشعبانية ، وانتفع به خلق كثير ، وتهذب على يديه رجال وأبطال ، منهم العلامة محقق المعقول والمنقول مدقق الفروع والأصول أبو محمد عبد القادر بن عمر بن صالح الشهير بالحبال ، الزبيرى نسباً الحنفى مذهباً ، صاحب « نتيجة الأفكار نظم تنوير الأبصار » وغيرها من التآليف المنقحة المفيدة ، المتوفى أواخر شعبان سنة ١٣٠٠ هـ . والعلامة الشيخ هاشم بن عيسى الشافعى صاحب « شرح الألفية » وغيره ، المتوفى آخر رمضان سنة ١٢٩٢ هـ وزينة البلاد ومفخرة الزهاد وعالم العباد السيد إسماعيل اللبابيدى شارح الآجرومية بلسان الحكمة والوعظ شرحاً

نفيساً واسعاً فى نحو عشرين كراسة ، وصاحب التصانيف العديدة نظماً ونثراً المتوفى سنة ١٢٩٠ هـ ومنهم العلامة الشيخ صالح أفندى الجندى العباسى مفتى معرّة النعمان .

وحينما أراد السلطان العثمانى عبد المجيد الاحتفال بختان ابنه السلطان عبد الحميد ، أمر باستدعاء صاحب الترجمة فى مقدمة من دعاهم من علماء البلاد الإسلامية ، فلما دخل على السلطان للتسليم صافحه وقرأ عليه ويده فى يده « سورة العصر » فهملت دموع السلطان اتعاظاً . وحظى عنده بالمرتبة العليا ... وعرض عليه كثيراً من الخلع والهدايا السنية ، فلم يقبل منها شيئاً ، وعاد إلى حلب معززاً مكرماً ، حيث واصل الاشتغال بالعلم تدريساً وتصنيفاً .

ومن مصنفاته : « كنز المعانى شرح رسالة الشيخ قاسم الخانى فى الميزان » وقد أفاد فيه وأجاد ، ولم يترك مجالاً لأحد من النقاد ، بين فيه الموجهات بشباك ظريف ، ووضع شباكاً آخر للأشكال الأربعة بين فيه كيفية وضع تركيب ضروبها ، وأتى فيه بعجائب وغرائب لم يسبق إليها . وافتتحه بقوله : « الحمد لله الذى زين نوع الإنسان بفصيح المنطق والكلام » واختتمه بقوله : وقد وافق الفراغ منه فى دمشق المحمية ، فى المدرسة البدرائية ، قبيل الزوال من السبع الرابع من العشر السادس من الثلث الثانى من السدس الثالث بعد الواحد الصحيح من هجرة النبى الفصيح ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، وشرف وعظم ، والحمد لله رب العالمين » . وكتب ولده عبد الرحمن عليه حاشية نفيسة سماها « تحفة المعانى على كنز المعانى » .

ومن مصنفاته : « نظم مختصر المنار وشرحه » ، و « نظم الرسالة الفتحية

فى أعمال الربع المجيب وشرحه » ، « ونظم معفوات الصلاة وشرحه » .
« ونظم الجمل » . ونظم الحل والكسور سماه : « مخدرات الحور » وشرحه
ولده عبد الرحمن شرحاً نفيساً سماه : « الجوهر المنثور على مخدرات الحور » .
ورسالة فى الجهاد رتبها على ثمانية أبواب عدد أبواب الجنة ، وهى رسالة
جيدة فى بابها ، فى نحو خمسة كراريس . ورسالة فى النحو سماها : « تمرين
الطلاب » رتبها ترتيباً حسناً ، وهى أول ما ألف فى حداثة سنة ، وأقرأها لجماعة
من المبتدئين ، كان منهم السيد أحمد الترمانينى الشهير ، وبذا عده فى شيوخه .
وله شعر رائق منه :

إنى لأعجب والحجارة صنعتى
وأشد ما فيها على يهون
كيف ابتليت بقلبك القاسى الذى
عمرى أعالجه وليس يلين

وله مشطر ابيتى الخفاجى :

وحق المصطفى لى فيه حب
بديع فى البرايا لا يشبه
مَحَا حبَّ الورى عنى ولكن
إذا مرض الغرام يكون طبه
رلا أرضى سوى الفردوس مأوى
لألقى وجه من أمسيت صبه
ولا تحلو جنان الخلد إلا
إذا كان الفتى مع من أحبه

وكان مع اشتغاله بالعلم ، كثير الشغف والولع بقضاء مصالح العامة عند الأمراء والحكام ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، لا يرد مستشفعاً به قط ، وطالما تحمل المكاره من العامة ، وصرف زمنه مسلوب الراحة لأجلهم . وكثيراً ما كان يأتيه المستشفع فى حال تهيئه للوضوء ، فيخرج معه إلى دار الحكومة بهيئته التى هو عليها ، مشمراً عن ذراعيه ، من غير سراويل ولا حزام .

وكان فى داره شجرة رمان ، فربما أخذ فى يده عوداً منها كهيئة عصا يشير إلى الحكام بها وقت حديثه معهم . فترتعد منه فرائصهم ويتهيبونه ، وربما أغلظ لهم القول — إذ كان لا تأخذه فى الله لومة لائم .

كما كان أعظم ولعاً بإحياء المساجد المندرسة والبحث عن أوقافها ، حتى أحيا جملة منها ، من بينها مسجد كان أحد قناصل الدول الأجنبية قد أدخله فى إصطبل دوابه . فتصدى الشيخ لإعادته مسجداً ، وجاء به بفعلة فتحوا بابه ، وأنشأوا محرابه ، ثم انصرفوا إلى بيوتهم ، وعادوا فى الصباح لإتمامه فإذا بالمسجد كله قد هدم ووضعت على أرضه قاذورات نجسة . وما وصل نبأ ذلك إلى الشيخ فى داره ، حتى غادرها مسرعاً إلى المسجد وهو يبكى وينتحب ، وتجمع الناس حوله خاصة وعامة ، وارتفعت أصواتهم بالبكاء معه ، ثم اشتد هياج العامة وصمموا على البطش بذلك القنصل ، وانطلقت جموعهم تحاصره [illegible] مقيماً به ، وهو أشبه بالحصن ، كأغلب أبنية حلب .

فتملكة الذعر ، وأطل عليهم من طاقٍ فى الخان منادياً : « يامعشر المسلمين انصرفوا ، ولكم علىّ أن أبنى المسجد أحسن بناء » . ولكنهم لم ينصرفوا ، وأخذوا يضيقون الحصار عليه ، والشيخ معهم .

ولم يجد الوالى بُدًّا من النزول بنفسه لتدارك الأمر ، وأعلن أمام الجموع الكبيرة أنه سيبدأ فوراً إعادة بناء المسجد ، ولن ينصرف حتى يتم بناء المحراب أمامه وأمام الشيخ ، فهدأت ثورتهم ، وعدلوا عن حصار القنصل . وتم بناء المسجد على أحسن صورة تليق بعزة الإسلام ومجده . طيب الله ثرى الشيخ وأجزل مثوبته ، ورحم الله من عاونهم وعاونوه .

مصطفى الخالدى

١٢٠٢ — ١٢٦٠ هـ

لا يحضرنى تاريخ ولادته [وقبل سنة ١٢٠٢ هـ] وكان شهماً فاضلا ، ذا ديانة ورياسة ، عظيم القدر ، تقياً نقياً ، خطه حسن ، تلقى الفرائض من سليمان أفندى ابن أحمد البوزقيرى، من أفاضل الروم . وتلقى طرفا من الأمهات الست والشفاء والأربعين النووية وكتاب الشمائل للترمذى عن العالم الأجل المحدث يوسف بدر الدين المدنى ، الذى تلقى صحيح البخارى سماعاً لجميعه مع التحقيق والإتقان والنظر والإمعان على محدث عصره الشيخ عبد الرحمن بن محمد الكزبرى الدمشقى الشافعى ، عن شيخه السيد على بن عبد البر الونائى المدنى عن المعمر عبد القادر بن أحمد الأندلسى .

وقد رأيت بخط المحدث يوسف بدر الدين أن محمد الأمير الصغير قد أجازه حسبما حواه ثبت والده محمد الأمير الكبير . وقد أجيز السيد مصطفى المشار إليه من جماعة ، منهم السيد يوسف بدر الدين المشار إليه ، ومحدث الشام الشيخ حامد بن أحمد العطار ، ووالده موسى الخالدى ، والسيد محمد وفا ، وصاحب الطريقة الشيخ محمد عثمان الميرغنى الختم المكى ، والشيخ عبد الله ابن محمد البديرى المقدسى. وكان رحمه الله معروفاً بفضله وعلوقدره وجاهه وعراقة مجده . وهو مصطفى حامد بن موسى بن محمد صنع الله بن خليل بن القاضى

شرف الدين بن صالح . ولاعجب فهو من أهل بيت جميعهم علماء ذوو دين وتقوى ، كما أشار إلى ذلك محقق المعقول والمنقول صاحب التصانيف المفيدة العلامة الكفوى فى تأليفه «طبقات الحنفية»، حين ذكر السعد الديرى الخالدى أحد أجداد صاحب الترجمة وغيره من بنى الديرى الخالديين .

وقد توفى السيد مصطفى فى السنة الموفية لستين ومائتين وألف، وهو قاض بالقدس الشريف ، ودفن بباب الأسباط قرب الصحابى الجليل عبادة بن الصامت ، رضى الله عنه .

مُصطفى المغربى الدرغوثى

١٢٠٥ — ١٢٨٠ م

وقفت له على ترجمة فى كتاب ألفه ابنه الشيخ عبد القادر المغربى أحد أعضاء المجمع العلمى العربى بدمشق(١) — وسماه « آل درغوث فى طرابلس الشام المشهورين بآل المغربى » أودعه ذكر أصل أسرتهم فى تونس ، ثم تراجم أجدادهم فى طرابلس الشام . وقد جاء فيه أن والده الشيخ مصطفى المغربى الدرغوثى نزل دمشق الشام فى حدود سنة ١٢٧٥ هـ ، وكان يحضر مجلس الأمير عبد القادر الجزائرى الشهير حيث يجتمع العلماء والفضلاء ويتبارون فى المسائل العلمية والمناظرات الجدلية ، ومنهم الشيخ مصطفى المغربى التهامى ابن عمة الأمير ، فكان يعجب بمناظراتهما خاصة . واتفق أن تناظرا يوماً فى مجلسه فى قول الشاعر :

(فأصبحت بعد خط بهجتها كأن قفراً رسومها قلما)

وهو من ألغاز النحاة ، فكان كل منهما يوجه توجيها فى الإعراب والمعنى ، يناقض به الآخر ، وقد حمل هذا الجدل الشيخ مصطفى المغربى الدرغوثى على أن كتب رسالة فى هذا البيت وما يتعلق به من جهة اللغة والإعراب والمعنى .

---

(١) قبل وفاته بسنوات عين رئيساً للمجمع العلمى العربى بدمشق الشام ، وكان من أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

وذكر الأستاذ « المغربى » أيضاً — فى مؤلفه المذكور أن والده ألف رسالة تفسير « قل هو الله أحد » وقد قرظها علماء الشام وغيرهم فى ذلك العصر ، كالأمير عبد القادر الجزائرى ، والشيخ عبد الله الحلبى ، والشيخ الكزبرى ، والشيخ محمد مصطفى التهامى المغربى، وكان تقريظه الأخير لها نظماً ونثراً ، وقال فيه بعد الديباجة ما نصه :

« وبعد فقد استقرأت سطور هذه الصفائح ، واستقصيت معانى طروسها الصبائح ، فتمثلت لى رقوم أقلامها بآثار سيوف قواطع ، ورسوم أعلامها بأزهار ونجوم طوالع ، بواطن دلائل حججها هداية تذكار للمسترشدين ، وظواهر غلائل لججها رجوم للشياطين والمعتدين . معالم سليم الفطرة للذوق ، ومكارم مريد الحلية بالطوق . حائزة من حوز البلاغة السحر الحلال ، جائزة من فوز البراعة الشوط الحلال . قمن أن تسمى عند الأنام ، بما سمى به الإمام ، فرائد الاغتنام ، رسالة التأسيس والتقديس ، فى الرد على أهل التلبيس ، أو منهاج الخلاص ، فى تفسير سورة الإخلاص . فلقد أبدع فيها مؤلفها غاية الإبداع ، ورصع فوائد فرائدها ترصيع الاختراع والابتداع . وقف فيها على الحقائق ، ودعمها بدعائم الدقائق :

فهاك عقوداً قد حكتها جواهر
بلى ، وحكتها فى سناها زواهر
لها زجل الترصيع يسبى نظامه
مكللة بالدر تنمو الظواهر

مضمنة الألغاز يزدان حسنها
على القمر المكمول والسر ظاهر

فإن حكت الإبريز قل ذاك وصفها
بلى ، وحكاه البدر إن تم باهر

وحينئذٍ فاسمع تماثيل مبتغ
يبرك من بشراه ليلاً يساهر

يماثلها الإكليل إن زان برجه
وشولتها للغيث والنهر ناهر

كذا علم يتلو الغروب ابتهاجه
بحمرته والوقت حانت مظاهر

نعم فلق الإصلاح أبدى سفوره
ودلّ على شمس المسرات قاهر

سماء سرايا الغزو إن نظمت به
لها دبران الجور ولى يعاهر

فذى مثل الأوراق فى نسج رقها
وفى قمرٍ وقت اتساق مزاهر

وشيمته قد صانها الضوء معدلا
بذا كرمت رفعاً وعلواً نجاهر

إليك ومنك انحاز للعلم مصطفى
مآثر حلتها الرقوم الأشاهر

لقد ظفر القرم الذى حاز مجدكم
بمنبتكم فامتاز بالشهم ماهر
كتبت لكم ذاك النوال الذى جرى
به القلم المعلوم والدهر داهرُ
نعم هو فى الأعراق قد حق ظاهراً
ولا أحد عن منبت الأصل ناهر
أتتك بنات الفكر منها ابتكارنا
ببكر عذار اللب تعنى تصاهر
لها كفؤ بالغرب أنسى لوحشها
ويؤنسها من تونس الفخر طاهرُ

خلص الله أعمالنا وأعماله ، وسدد أقواله وأفعاله ، ويسر لنيل المراد آماله . كتبه خديم العلماء ، ومقبل الثرى تحت أقدام الكرماء ، المقتفى باعتقاده منهجهم السامى (محمد المصطفى بن أحمد بن التهامى) المالكى الأشعرى المغربى الفريسى نجارا . الوهرانى تعلما ، ثم الدمشقى دارا ، الحسنى الحسينى حسباً ونسباً وشماراً . عرفه الله قدر نفسه ، ولطف به فى الدنيا وحال حلوله فى رمسه . وغفر له ولوالديه وللمسلمين أجمعين ، آمين ، والحمد لله رب العالمين . اهـ

ووقفت على ترجمة للشيخ مصطفى التهامى — بخط نسيبه المرحوم السيد محى الدين الحسنى ، قال رحمه الله :

غاية ما أعلم من ترجمة نسيبنا المرحوم العلامة السيد الحاج مصطفى التهامى أنه حينما تولى الأمير عبد القادر الجزائرى عينه كاتباً لسره ، ولما شرع فى تنظيم العساكر عينه خليفة يقود قطعة من الجيوش ، وقد شاهد عدة حروب مع الأمير عبد القادر[١] ولازال على سيرته الحسنة إلى أن صحبته إلى «امبواز» قرب مدينة باريز ، ثم إلى بروسة ، ودمشق . وكان يدرس فى عدة فنون فى جامعها الكبير ، وتقلد إمامة المالكية فى الجامع الأموى . وكان رحمه الله له جلد عجيب فى العبادة ، ففى شهر رمضان من كل عام كان بعد أن يصلى صلاة التراويح ، ينفرد وحده فى الجامع ويشرع فى صلاة ركعتين يختم فيهما القرآن الشريف بتمامه ، ويظل هذا دأبه فى كل ليلة من الشهر .

ومازال على تلك الحاله المرضية[٢] إلى أن قضى نحبه على رأس الثمانين بعد المائتين والألف ، وكان الأمير عبد القادر غائباً فى البقاع الحجازية .

---

(١) لما تمت البيعة للأمير عبد القادر واستقام له الأمر واتخذ الآلة ورتب الحاشية وعين رجال الدولة قسم ما دخل فى طاعته إلى مقاطعتين : ا — مقاطعة تلمسان وولى عليها السيد محمد البوحميدى الولهاصى : ب — : مقاطعة حضرته معسكر ولى عليها السيد الحاج مصطفى بن أحمد التهامى ، وكان رئيس ديوان الإنشاء .

(٢) المترجم المشار اليه لازال يتقلب فى الوظائف على تلك الحالة المرضية ، مدة أربع عشرة سنة .

محمد التميمي المغربي

١٢٢٢ — ١٢٨٦ هـ

ترجمه العلامة الآلوسي في تاريخه « غرائب الاغتراب » قال :

حضر لمصر كبيراً من بلده ، فلم يتلق العلم بالأزهر، بل جاءها عالماً ، ولقي شيوخها فأقروا بفضله وسعة علمه وذكائه ، ثم جعل ناظراً لمسجد محمد بك أبي الذهب وأوقافه ، وكانت نظارة المساجد المشهورة إذ ذاك تعطى للعلماء بتقرير من القاضي ، فيباشرون شئونها وشئون الطلبة المقيمين بها ويستغلون أوقافها . فباشرها بعفة وأمانة وصرامة ، واتصل بإبراهيم باشا ابن محمد على فعرف فضله وأجله وائتنس بمجالسته ، وجعله معلماً للعربية لأولاده : أحمد ، ومصطفى ، وإسماعيل . وكان يرسل له عجلته[1] تنتظره عند الأزهر ، فإذا أنهى الشيخ دروسه به ركب فيها وذهب إلى القصر العالي ، فدرس للأمراء وتغدى مع والدهم وجالسه في غالب الأحيان ، ثم يعود بالعجلة إلى مقره .

وحسنت حاله ، واشترى داراً كانت ملاصقة للمسجد الحسيني ، وأزيلت بعد ذلك لما جددت عمارته ، وكانت فيه حدة قل من يتحملها ، لذلك لم يحضر عليه من شيوخ الأزهر إلا قليلون ، منهم : الشيخ إبراهيم السقاء ، والشيخ مخلوف المنياوي وآخرون .

---

(١) عربته .

وكان عالما علامة متينا فى مباحثه ، ذا ذ كاء مفرط . وكان الشيخ إبراهيم السقاء يأسف لأن أحداً من أهل الأزهر لا يعلم أستاذه هذا كما ينبغى .

وطلب منه الشيخ مخلوف مرة أن يقرأ لهم « المطوَّل » فأبى وتعلل بعدم وجود الأكفاء لحضوره ، فكتب الشيخ مخلوف شكوى طاف بها على الطلبة فوقعوا عليها ، ثم بعث بها إلى الديوان الخديوى ، وفيها أنه لا يوجد بين علماء الأزهر من هو أقدر منه على قراءة « المطول » ، ولكنه لا يريد قراءته . فطلبوا الشيخ فى الديوان وألزموه أن يقرأ الكتاب ، فصدع بالأمر وقرأ منه دروساً ، ثم حال نفيه من مصر دون إتمامه .

وسبب نفيه أن عباساً الأول كان قبل توليته يحضر مجلس عمه إبراهيم والشيخ معه . وكان عمه يؤنبه على لعبه بالحمام ولهوه ويشتد عليه ، فيساعده التميمى ، ويسمع عباساً الكلام القارص ، حتى كان يخاطبه بالتصغير ، ويقول له : ياغلام اسمع نصائح عمك . فحقد عليه عباس ، ولما مات عمه إبراهيم وتولى هو بعده ، خشى المترجم العاقبة ، وذهب إلى عباس فى قصره لترضيته وإزالة مافى نفسه منه ، فقال له عباس : ليس عليك بأسٌ ، ولكن لاتساكننى فى بلد أنا فيه . وأمر بنفيه فى الحال ، وأرسل من أعوانه من حمل متاعه ، وتولى ترحيله إلى الحجاز .

ولم تطل إقامة الشيخ بالحجاز ، إذ سافر مع المحمل الشامى فى عودته للشام ، وأبحر من بيروت إلى القسطنطينية ، وذلك بمساعدة بعض الأمراء المنفيين معه ، كما سعوا له عند السلطان عبد الحميد ، فرتب له حوالى خمسين ديناراً فى الشهر ، وأقام بها يقرىء ويفيد حتى وافاه أجله ودفن بها حوالى سنة ١٢٨٦ هـ .

وحدث الشيخ زين المرصفى قال : لما وفدت على القسطنطينية لم يكن لى هم إلا رؤية الشيخ ، فسألت عن داره حتى اهتديت إليها ، وطلبت مقابلته فأبى ، ثم احتلت لمقابلته بأنى قادم من مصر ومعى أمانة له ، فنزل وقابلنى ، وأخذ يسألنى عن الأزهر وأحواله ومن يدرس فيه ، فذكرت له بعض كبار المشايخ مثل : السقاء ، والدمنهورى ، والأشمونى ، وأضرابهم . . . فأظهر الاستنكار والأسف ، وصار يصفق بيديه ويقول : « خلا لك الجو فبيضى واصفرى » ويكررها — ثم سألنى عن الأمانة التى حملتها إليه ، فلما أجبت بأنها تحيات زملائه وتلاميذه ، قام وتركنى .

واجتمع به أيضاً السيد جمال الدين الأفغانى فى زيارته الأولى للقسطنطينية ، وكتب يصف هذه المقابلة ، قال : فلما قابلنى قال لى : أنت جمال فى الدين أم جمال للدين ؟ فقلت : جمال للدين، لأن الإضافة بمعنى (فى) لاتخلو من ركاكة هنا . فضحك .

وكان ربعة بديناً ، أبيض اللحية ، يلبس جبة ، وعليها برنس على طريقة المغاربة ، ولم يلبس الفرجية التى كان يلبسها علماء الأزهر ، وعمر طويلا .

وحدث عبد الله فكرى باشا قال : ذهبت مع الخديو إسماعيل مرة إلى القسطنطينية ، مدة السلطان عبد العزيز ، وجاء المترجم للسلام على الخديو . وكان يتأهب لمقابلة السطان ، فلم يمكث معه إلا قليلا معتذراً بأنه لا يستطيع التخلف عن مقابلة السلطان فى الموعد المحدد . وسأله البقاء حتى يعود ، وأوصى بإكرامه ، ولكن المترجم لم يقبل عذره ، وانصرف غاضباً ولم يعد .

ولما ذهب إسماعيل بعد توليته إلى الآستانة لم يزره الشيخ ، فصار يسأل عنه إلى أن اهتدى إلى مقره ، وأرسل فى طلبه ، ثم أمر أحمد طلعت (باشا) كاتبه أن يعطيه مائة دينار عند خروجه من مقابلته ، ولكن الشيخ أبى أخذها . وقال : أنا والحمد لله فى غنى عن الصلة ، ولم أزر الخديو التماساً لشىء .

وكان مولعاً بجمع الكتب ، مغالياً فى اقتناء النفيس منها . فلما مات بيعت بالقسطنطينية ، وتفرقت فى البلاد ، ولم يعقب غير بنت واحدة حضرت لمصر بعد موته تتقاضى ثمن داره التى أزيلت وأدخل بعضها فى المسجد الحسينى عند عمارته ، وتزوجت بعد ما شاخت ، لأن أباها لم يكن يرى لها كفؤاً — فى زعمه — رحمهما الله .

أحمد الحلواني

١٢٢٨ — ١٣٠٧ هـ

ولد العلامة الأستاذ الشيخ أحمد الحلوانى فى دمشق سنة ١٢٢٨ هـ وتربى تربية دينية برعاية والده التقى الصالح المرحوم السيد محمد على الرفاعى الحلوانى . وكان أول أستاذ له المرحوم الشيخ راضى المصرى ، الذى أتم عليه حفظ القرآن الكريم ، ثم درس العلوم العقلية والنقلية على أساتذة عصره ، مثل خاتمة المحدثين المرحوم الشيخ عبد الرحمن الكزبرى ، وشافعى زمانه المرحوم الشيخ عبد الرحمن الطيبى ، وأبى حنيفة وقته المرحوم الشيخ سعيد الحلبى ، ومفسر الديار الشامية المرحوم الشيخ حامد العطار . ومازال يتلقى عنهم العلوم والفنون حتى أذنوا له فى التدريس فى غرة شوال سنة ١٢٥٣ هـ وبعد ذلك رحل حاجاً إلى بيت الله الحرام مع الوفد الشامى ، ولما وصل إلى مكة المكرمة ، اجتمع فيها بخاتمة المحققين شيخ قراء مصر العلامة الشيخ أحمد المرزوقى المجاور لبيت الله الحرام ، فاستبقاه فيها بعد أداء الحج لما رأى فيه من المقدرة والتضلع فى العلوم وعدم التعلق بأعمال الدنيا ، وخلوه من الأهل والولد . وأمره بحفظ « الشاطبية » فحفظها ، وقرأ عليه القرآن كله بالتجويد على رواية حفص ، مع مطالعة شروح الشاطبية . وبعد ذلك شرع فى دراسة القراءات السبع . ثم قرأ القرآن كله بها على الشيخ المرزوقى ، فأقام له عقبة ذلك حفلة تكريم تجاه باب الكعبة المشرفة ، حضرها الأشراف والعلماء والقراء وغيرهم ، وبعد ذلك حفظ

عليه « الدرة » فى القراءات الثلاث المتممة للعشر ، كما قرأ عليه شرحها ، والقراءات العشر على طريق الشاطبية والدرة . فلما أتمها أقام له حفلة تكريم أخرى ، ثم أمره بحفظ الطيبة ، وقراءة شرحها ومطالعة التحارير المتعلقة بها ، فلما أتم ذلك أقرأه القرآن كله كاملا بطريقة « الطيبة » . ثم جمع أفاضل مكة المكرمة وأجازه أمامهم بأن يقرأ ويقرىء فى أى مكان حل بما لقنه إياه ، مما أخذه عن شيخ الإقراء وملاذ القراء فى مصر المرحوم السيد أحمد الحملجى الهندى ، فأسكنه داره ، متكفلا له بما يلزم له من كتب وملبس ومشرب ومأكل وغير ذلك .

ولما انتهت دراسته سنة ١٢٥٨ هـ استأذن أستاذه فى الرجوع إلى دمشق ، وكانت خالية من علوم القراءات ، فنشرها فيها ، وحفظ عليه القرآن العظيم عدد كثير . وممن تلقى عليه القراءات السبع المرحوم الشيخ عبد الله الحوى ، والمرحوم الشيخ صالح الكردى . وقد كرمهما عقب ذلك أمام جمع من أفاضل دمشق ، وكان ذلك مستهل سنة ١٢٦٢ هـ .

ومازال مثابرًا على نشر فن القراءات وتجويد القرآن العظيم إلى غاية شهر شوال سنة ١٢٦٣ هـ وفيها رجع مع موكب الحج الشامى إلى مكة المكرمة ، ولما بلغها نعى إليه شيخه المرحوم السيد أحمد المرزوقى ، فجلس مكانه متصدياً لنشر القراءات فى البلاد الحجازية ، وتخرج عليه عدد عظيم من أبنائها وأبناء البلاد الإسلامية المختلفة . وفى سنة ١٢٧٨ هـ رجع إلى دمشق مع المحمل الشامى وجمع عليه القراءات السبع والعشر كثيرون من أهل الشام وغيرهم . وفى مقدمة تلاميذه فى القراءات العشر من الدمشقيين : الشيخ أحمد دهمان ، والشيخ

محمد القطب، ونجله الشيخ محمد سليم الحلوانى ، والشيخ محمد المجذوب ، والشيخ محمد سبانو ، والشيخ عبد الغنى البيطار . ومن أهل حماه : الشيخ محمود الكيزاوى وتلاميذه ، ومن تلاميذه فى القراءات السبع : الشيخ نجيب كيوان ، والشيخ راغب الحموى ، والشيخ صالح الديرانى .

أما مؤلفاته فمنها : أرجوزة فى رواية ورش من طريق الأزرق مع شرح لها ، وأرجوزة فى علم التجويد مع شرح لها أيضاً .

وكانت وفاته رحمه الله تعالى فى ٢٧ من جمادى الآخرة سنة ١٣٠٧ ﻫ ودفن فى تربة (مرج) الدحداح بدمشق . رحمه الله وأكرم مثواه .

محمود الحمزاوى

١٢٣٦ — ١٣٠٥ هـ

وقفت له على ترجمة كتبها السيد محمد أبو الخير عابدين الذى كان مفتيا للشام ، قال فيها :

هو الإمام العالم العلامة الشهير ، والناقد الخبير البصير ، الحنفى المذهب ، تولى إفتاء الشام اثنتين وعشرين سنة وأشهراً حتى وفاته . وكانت الأسئلة المشكلة فى جميع الفنون ترد إليه من بلاد كثيرة ، منها البلاد الأوربية ، فيجيب عنها بالأجوبة المرضية . وكان رحمه الله عالماً نحريراً ، فقيها أديبا ، شاعراً مفنناً ، له مؤلفات عديدة منها : التفسير بحروف المهمل المسمى بدر الأسرار ، ونظم « الجامع الصغير » للإمام محمد صاحب أبى حنيفة . ونظم « مرقاة الأصول » لمنلاخسرو ، و « اللآلى البهية فى الفوائد والقواعد الفقهية » و « الطريقة الواضحة فى البينة الراجحة » . و« بغية الطالب شرح رسالة الصديق لعلى بن أبى طالب » رضى الله تعالى عنهما ، و « قواعد الأوقاف» ، و« كشف الستور فى المهايأة فى المأجور » ، و « منظوم غريب الفتاوى » ، و « الفتاوى الحمزاوية » ، وشرح لبديعية والده اسمه « كشف القناع » ، و « دليل الكمل إلى المهمل فى اللغة » ، و « التفاوض فى المتناقض » ، و « كشف الجانة عن الغسل فى الإجانة » ، و « رسالة فى جواز أخذ الأجرة على التلاوة » .

وقد ذكر مشايخه الذين أخذ عنهم فى ثبته المسمى « عنوان الأسانيد » .
ومنهم : الشيخ عبد الرحمن الكزبرى الثانى ، وشيخ الحنفية بدمشق الشيخ سعيد الحلبى ، والشيخ حامد العطار ، والشيخ عمر الآمدى عن السيد محمد الزبيدى شارح « الإحياء » و « القاموس » .

وكانت ولادته رحمه الله بدمشق سنة ١٢٣٦ هـ وتوفى فى اليوم الحادى عشر من المحرم سنة ١٣٠٥ هـ . ودفن بتربة مرج الدحداح بدمشق .

وقد رأيت سلسلة نسبه بخط السيد أبى الخير محمد عابدين، وفيها : أن والده السيد محمد نسيب نقيب الأشراف بدمشق ، ابن حسين بن يحى نقيب الأشراف بدمشق ، ابن حسن نقيب الأشراف بدمشق (المولود سنة ١٠٩١هـ كما وجد بخط السيد مرتضى الزبيدى) ، ابن عبد الكريم نقيب الأشراف بدمشق (ترجمة المحبى والمرادى والغزى العامرى) ابن محمد نقيب الأشراف بدمشق ، ابن كمال الدين محمد نقيب الأشراف بدمشق ، ابن حسين نقيب الأشراف بدمشق (الملقب بشرف الدين أو بدر الدين المولود سنة ٩٢٦ هـ والمتوفى فى ذى القعدة سنة ٩٧١ هـ) ابن الحافظ كمال الدين محمد مفتى مصر ونقيب الطالبيين بدمشق (المولود سنة ٨٥٠ هـ وقدم القاهرة سنة ٨٧١ هـ) ابن عز الدين حمزه المعروف بابن أبى هاشم (ولد سنة ٨٢٠ هـ وتوفى سنة ٨٧٤هـ ــ كما وجد بخط السيد مرتضى الزبيدى) ابن أحمد الشهاب أبى العباس (المولود سنة ٧٨٧ هـ والمتوفى سنة ٨٤٨ هـ) ، ابن علاء الدين على نقيب الأشراف بدمشق (المكنى بأبى هاشم) ، ابن الحافظ شمس الدين أبى المحاسن محمد (المتوفى سنة ٧٦٥ هـ) ابن على بن حسن بن حمزة بن محمد بن ناصر بن على

الشجاع ابن حسين المحترف ابن إسماعيل (وهو أول من جاء دمشق نقيباً للأشراف سنة ٣٣٠ هـ وترجم له ابن عساكر فى تاريخه) ، ابن حسين المنتوف (وبخط السيد مرتضى الزبيدى : المفتون). ابن أحمد صاحب الشام ، ابن إسماعيل الثانى ، ابن محمد بن الإمام إسماعيل الأعرج ، ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام على زين العابدين ، ابن الإمام الحسين ابن الإمام على بن أبى طالب .

هذا وقد قرظ المغفور له الأمير عبد القادر الحسنى الجزائرى تفسير العالم السيد محمود يا لحمزاوى مفتى الشام بأبيات — فقال :

سرّح سوادك والطروس سماء   ما للسماك لدى العروس علاء

حمداً لملهم أوحد العلماء محـ   ـمود علوماً ما لها إحصاء

هو أعلم العلماء واحد عصره   هو طود سر هدى له إهداء

وأرسل سمو الأمير عبد القادر الجزائرى أبياتاً مع هدية قال :

تفضل بالقبول لها فإنى   أرى الدنيا جميعاً دون قدرك

لأنك بضعة المختار صرفاً   ففخر الخلق طرّا دون فخرك

أحمد عبد الغنى عابدين

١٢٣٨ — ١٣٠٧ هـ

هو العلامة أحمد عبد الغنى عمر المشهور كأسلافه بعابدين . وبقية نسبه فى ترجمة العلامة محمد علاء الدين عابدين — وقفت له على ترجمة كتبها ولده مفتى الشام الشيخ محمد أبو الخير عابدين نصها :

هو العلامة الفقيه الصوفى الزاهد العابد المحدث أحمد بن عبد الغنى عابدين ، كان رحمه الله تعالى حنفى المذهب ، مشتغلا بالعلم ، يقرأ الدرس للطلبة فى داره ، وأحياناً فى جامع الورد . قرأ النحو والصرف والمنطق والمعانى والبيان مع ابن عمه السيد علاء الدين عابدين ، وأخذ الفقه والحديث عن عمه السيد محمد أمين عابدين ، وعن فقيه الشام وعالمها الشيخ هاشم التاجى ، وأجازه الشيخ عبد الرحمن الكزبرى ، وسمع هو وابن عمه الكتب الستة من شيخ الشيوخ الشيخ سعيد الحلبى وكانا صغيرين ، وكان يحضرهما ويقعدهما فى شباك حجرته ، وحصل لهما إجازة كسائر الحاضرين . وأخذ التوحيد والتفسير عن المنلا أبى بكر الكلالى المفسر عن شيخه الشيخ محمد الخطى . وله إجازات عديدة من علماء عاملين وأئمة معتبرين منهم : الشيخ داود بن سليمان البغدادى ، والشيخ عمر الآمدى عن الشيخ محمد الكزبرى . وكان يسلك فى الطريقة النقشبندية ، أخذها عن الشيخ محمد الخانى . ثم فى الطريقة الخلوتية عن القطب الربانى الشيخ محمد المهدى المغربى الزواوى .

وله مؤلفات تنيف على العشرين منها : كتاب فى الطهارة والأنجاس ، وشرح قصة المولد الشريف لابن حجر المكى فى عشرين كراساً . وشرح علم الحال ، وشرح العقيدة الإسلامية ومتنها للسيد محمود الحمزاوى ، ورسالة بتبرئة الشيخ الأكبر مما نسب إليه من القول بالحلول والاتحاد ، ورسالة فى إهداء ثواب الأعمال للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين رداً على من قال : إن النبى صلى الله تعالى عليه منته فى درجات الكمال فلا يقبل الزيادة ، ورسالة فى زواج النبى صلى الله عليه وسلم بالسيدة زينب رضى الله عنها ، وشرح حديث ابن عباس : « احفظ الله يحفظك » الحديث ، ورسالة فى قوله عليه الصلاة السلام : « السعيد سعيد فى بطن أمه » . ورسالة فى «الكبائر» . ونسبه الشريف متصل بالسيد السبط عليه الرضوان . وكانت ولادته سنة ١٢٣٨ ﻫ ووفاته فى ٢٦ ربيع الثانى سنة ١٣٠٧ ﻫ ودفن فى تربة باب الصغير بدمشق فى جوار عمه السيد محمد وجده السيد عمر عابدين . رحم الله الجميع رحمة واسعة ، وأعاد علينا من بركاتهم ، آمين .

مُحمّد عَلاء الدّين عَابدين

١٢٤٤ — ١٣٠٦ هـ

وقفت له على ترجمة كتبها ابن عمه العلامة محمد أبو الخير عابدين ، الذى كان مفتياً للشام نصها :

هو الشيخ الإمام العالم ، الفقيه الصوفى ، الملازم لاتباع الشريعة الغراء المحمدية ، بسيرة حسنة وأخلاق رضية . أخذ الفقه عن شيخه الإمام فقيه وقته وأوانه ، وعالم الشام فى زمانه ، الشيخ هاشم التاجى رحمه الله . وأخذ الحديث عن الشيخ عبد الرحمن الكزبرى ، والطريقة الخلوتية عن قطب الوقت الشيخ محمد المهدى الزواوى المغربى . وقد رباه وسلكه فى الطريقة وأدخله الخلوة ، واستخلفه ، وأجازه بتلقين الذكر وتربية المريدين وكتب له إجازة حافلة ، وأمره بالدخول فى سلك الموظفين فى الدولة العثمانية ، فتولى كثيراً من المناصب منها : قضاء طرابلس الشام ، وسافر إلى إستانبول ، ودخل فى عداد أعضاء المجلة العلمية ، وأكمل حاشية والده . وله من المؤلفات : كتاب « معراج النجاح شرح نور الإيضاح » ، و « الهداية العلائية » ورسالة فى « زلة القارى » .

وأخذ عن والده وحصل منه على إجازه بخطه ، وله غير ذلك تحريرات رائقة ، وأبحاث فائقة ، فى جملة من علوم الفقه والحديث والأصول ، والتوحيد

والتفسير . وبالجملة كان رحمه الله تعالى من الأفراد الذين يعول عليهم فى حل المشكلات .

وسمع هو وسيدى الوالد — السيد أحمد — الكتب الستة من شيخ الشيوخ الشيخ سعيد الحلبى . وكانا صغيرين ، فكان يحضرهما ويقعدهما فى نافذة حجرته فى جامع بنى أمية ، وحصلا على إجازة منه .

ونسبه الشريف يجتمع مع نسب السيد الحمزاوى . وكانت ولادته فى ربيع الثانى سنة ١٢٤٤ ﻫ كما رأيته بخط والده على ظهر نسخته « الدر المختار » فى شرح تنوير الأبصار . قال : وسميته باسم الشارح رجاء أن يكون من العلماء . وقد حقق الله رجاءه ، وتوفى رحمه الله فى اليوم الحادى عشر من شوال سنة ١٣٠٦ ﻫ ورثاه جماعة كثيرون ، وأرخ وفاته الشيخ محمد الهلالى الحموى الشاعر المشهور بأبيات كتبت على لوح قبره وهى :

تـوارى من الدين الحنيف عـلاؤُه

بلحد سقاه العفـو صـوب غمامـه

إلى دار خـلد ، من بنى عابدين قـد

مضى كوكب الإسـلام ، بدر تمامـه

بنى الشرف المـأثورِ علماً ومحتـداً

إلى سرّ ملك الله أصـل نظامه

أناس عـلى الإيمان منهم مـؤرخاً

زها لعـلاء الدين طيب ختامـه

وكتب على اللوح الآخر :

زر ضريح الحبر الهمام علاء الـ
ـدين ، تظفر (به) بنيل مرام
فهو من بيت أشرف الرسل طه
فعليه والآل أزكى السلام
قد قضى نحبه ، فحل بأبهى
روضة ، فى جوار قوم كرام
قدّس الله روحه ، وحباه
من جنان الفردوس أعلى مقام
قد دُعى للقا فلبى مجيباً
أرخوا يا فوزى بحسن الختام
١٣٠٦

ودفن بمقبرة باب الصغير — ملاصقاً لقبر والده وجده السيد عمر ، ولقبر الشيخ العلائى صاحب «الدر المختار». رحم الله الجميع ونفعنا بهم والمسلمين آمين . انتهى مانقلته من خط العلامة أبى الخير عابدين .

قلت : وقوله « ونسبه الشريف يجتمع مع نسب السيد الحمزاوى » يريد السيد محمود مفتى الشام المعروف بمحمود حمزه الحمزاوى ، فإن نسبه يجتمع بنسب المترجم فى « إسماعيل » أول من جاء « دمشق » من أجدادهما ، وولى بها نقابة الأشراف سنة ٣٣٠ ﻫ . وترجمه « ابن عساكر » فى تاريخه . وقد ذكرنا

نسب العلامة محمود حمزة فى ترجمته ، ونذكر هنا نسب المترجم منقولا من خط العلامة أبى الخير عابدين ، قال :

هو محمد علاء الدين ، بن محمد آمين عابدين صاحب الحاشية على الدر المختار ، ابن عمر بن عبد العزيز بن أحمد بن عبد الرحيم بن صلاح الدين — وهو أول من اشتهر بعابدين — بن نجم الدين بن محمد كمال بن تقى الدين (المدرس فى بلد الله الأمين) ابن مصطفى بن حسين بن رحمة الله بن أحمد بن على بن أحمد بن محمود بن عبد الله عز الدين بن قاسم بن حسن بن إسماعيل (أول من جاء دمشق منهم وولى نقابة الأشراف سنة ٢٣٠ هـ ، وترجمه ابن عساكر فى تاريخه) بن حسين المنتوف (والذى بخط السيد مرتضى الزبيدى : المفتون) بن أحمد صاحب الشام ، بن إسماعيل الثانى بن محمد بن الإمام إسماعيل الأعرج بن الإمام جعفر الصادق ، بن الإمام محمد الباقر بن الإمام على زين العابدين بن الإمام الحسين بن الإمام على بن أبى طالب ، رضى الله تعالى عنهم .

أحمد الفحماوى

١٢٤٦ — ١٣٠٩ هـ

هو الشيخ أحمد الفحماوى[1] ابن الحاج إسماعيل ابن الحاج قاسم ابن إسماعيل بن عامر بن منصور، ومنصور هذا من قبيلة المحاميد — نسبة إلى محمود القرشى.

ولد صاحب الترجمة بأم الفحم بمركز جنين بمديرية نابلس بولاية بيروت ببر الشام. وأم الفحم قريبة من بيت لحم مسقط رأس سيدنا عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام. ولذا قال صاحب الترجمة تحدثا بنعم الله: « ولدنا بنى فى وسط الحول المذكور فى قوله تعالى: «سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله...» فبلدتنا فى وسط البركة. فلله الحمد والشكر». ولد رحمه الله فى سنة ١٢٤٦ هجرية الموافقة لسنة ١٨٣٠ ميلادية. وتوفى إلى رحمة الله بمصر المحروسة فى سنة ١٣٠٩ هـ الموافقة لسنة ١٨٩٢ م. ودفن بحوش الترجمان أمام حوش المرحوم الشيخ الحداد، بتربة الشيخ حسن الشبراخيتى شارح الأربعين حديثا النووية، معه فى لحد واحد، وذلك بقرافة المجاورين.

وخلف من الذكور محمد ماجد أفندى الأجزاجى بشارع شبرا ومحمد عارف

---

(١) هذه الترجمة بقلم محمد عارف الفحماوى ولده بناء على طلب المرحوم أحمد تيمور باشا.

أفندى معلم العلوم الرياضية والعمارة بمدرسة المهندسخانة سابقاً ومن وكلاء النائب العمومى لاحقا .

أرسله أبوه للجامع الأزهر لطلب العلم ، وكان عمره إذ ذاك نحو خمسة وعشرين سنة ، فبعد سنتين أو ثلاث تزوج بالست أليفة بنت السيد أحمد العبساوى الجواهرجى الحسينى ، فخلف منها ولديه المذكورين آنفا ، ثم توفى أبوه إلى رحمة الله ، فسافر لبلدة أم الفحم لحضور العزاء ، ثم عاد وأقام بمصر حتى قضى نحبه . وكان أبوه ينفق عليه ، فلما توفى سعى على معايشه ، بتعاطى صنعة نسخ كتب العلم بحبر مطبعة الحجر لصاحبها كاستلى ، أشهر مطبعة وقتها بعد مطبعة بولاق الأميرية .

فطبع بخطه مجموع المتون وكتب التصوف لسيدى عبد الوهاب الشعرانى وديوان سيدى عمر بن الفارض ، والشفا للقاضى عياض ، وأخيراً اللزوميات لأبى العلاء المعرى . وكتبها كذلك بالحبر العادة لكثير من الذوات ، وكتب كثيراً من المصاحف والربعات ودلائل الخيرات .

وتوظف بوزارة المعارف المصرية بقلم الترجمة ، ثم انتقل إلى الدائرة السنية أميناً لكتبخانتها .

وكان رحمه الله نجيبا أديباً ، نادرة زمانه ، يحفظ كثيراً من قصائد الأدب ، وكثيراً من الحكم ، وكثيراً من الأحاديث النبوية والقدسية . وكان صالحاً تقياً عالماً عاملا مخلصاً صادقاً أميناً كريماً زاهداً فى الدنيا راغباً فى الآخرة .

وكان رحمه الله نصوحاً لأولاده وأحبابه . أحفظ له ثلاث نصائح لى —

أحدها وأنا تلميذ حديث البلوغ ، وهى أنه أوصانى بالاستبراء عقب الحدث « البول » ، وأخبرنى بأن المبنى على الفاسد فاسد ، والمبنى على الصحيح صحيح ، وأن هذا أساس العبادات . والثانية وأنا معلم بمدرسة المهندسخانة ، وهى أنه أخبرنى أن الناس فى غفلة عن الله سبحانه ، وأن اللازم أن العبد يتوجه بوجهه وقلبه دائماً إلى الله تعالى . وأوصانى بقوله : الزم يا بنى هذا الدعاء : (اللهم لاتحول قلبى ولاوجهى إلا إليك، ومثل ذلك لأصحاب الحقوق علىّ وللمسلمين) .

والثالثة : ذكر الحديث : بين العبد وربه سبع عقبات أهونها الموت وأصعبها الوقوف بين يدى الله عز وجل إذا تعلق المظلومون بالظالمين ، يقول هذا أخذ مالى وظلمنى وهذا هتك عرضى وفضحنى . وأخبرنى بأن المنجى من كل ذلك المواظبة على الصلوات الخمس ، وأن الإنسان بعد السلام من كل فرض يقول : أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم ، وأتوب إليه ثلاثاً . أستغفر الله العظيم لى ولوالدى ولأصحاب الحقوق علىّ ولجميع المؤمنين المؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات خمساً . وذلك قبل أن يغير جلسة التشهد من كل فرض .

ولما تزوج ولداه محمد ماجد أفندى ومحمد عارف أفندى ، وكانت الست والدتهما مطلقة خارج منزله ، وكان على ذمته غيرها ، عزما على أن تكون أمهما معهما بالمنزل ، فكتبا له عريضة بطلبهما هذا ، حياء منه أن يطلبا إليه ذلك شفهيا .

وهذه صورة العريضة :

عريضة مقدمة بين يدى حضرة والدنا للنظر فى إصلاح أحوالنا الدنيوية والأخروية .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الحليم الحكيم العادل ، والصلاة السلام على رسوله خير الأواخر والأوائل ، وعلى آله وصحبه أولى الفضائل والشمائل . أما بعد . فإن المنة لله ولرسوله وللوالدين ، حفظهما البارى تعالى ورفعهما فى الدارين . فنعرض يا أبانا على شريف مسامع جنابك ، أنه من مننك على أولادك ، أنك أحسنت مثوانا ، وسعيت لنا فى صنعتين شرفتنا بهما ، جعل الله يدنا العليا بالعطاء ، ولم يجعل يدنا السفلى بالاستعطاء . لما ألهمك ربك وأنت مسافر باسلامبول ، حديث: كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول . ودوام السعى لنا بكل الهمة ، على ما فيه صلاحنا ، فلك المنة . واتخاذك إيانا كأخويك ، مع الشفقة بنا ولين جنبيك . وتحريضنا على صلة الأم والأرحام ، وقولك لنا إن أمنكما عنهم حرام ، وتعليمك إيانا أمور ديننا ، وحثنا على الزواج حفظاً لسيرنا ، وغير ذلك من مننك التى لا تحصى ، وإرشاداتك المخلصة التى لا تستقصى . فحق علينا أن نقول، موقنين من الله القبول : سبحانك لانحصى ثناء عليك . أنت كما أثنيت على نفسك . حيث من الله علينا بوالد بار ، شفوق صالح صبار . وحق لنا أن نقول ، وعلى الله بلوغ المأمول :

حيث أن متوسط مكاسب ولديك شهرياً مدة السبع سنوات نحو

الخمسة عشر جنيها تنصرف مع مكسبك الشهرى تقريبا فى المنزل مع وجود الدَّين ، ولم يصل للست أمنا من مكاسبنا إلا جنيهان شهرياً ، فلما من الله علينا بالزواج ألهمنا سبحانه أننا قادمون فضلا عما سبق على ما هو أصعب . فإنه إذا كان الأمر الأول هو فى حالة خلونا من الزواج ، فما يكون شأن الأمر الثانى ووجود الأزواج . وفى الأول والثانى تكون أمنا محرومة منا . وقد من الله علينا بحل هذه المسألة هكذا :

أولا : ألا نصرف زيادة عن حدنا .

ثانياً : ألا نأخذ شيئاً بالدَّين .

ثالثاً : أن تبقى الست والدتنا فى منزلنا .

وفى ذلك يا أبانا مزايا دنيوية وأخروية .

أما الدنيوية فإنها توفر علينا اثنين جنيه ، وهدو سرنا من جهة الست أمنا، واحتياجاتها الشرعية .

وأما الأخروية فإنها الحصول على رضاء أمنا عنا ، كما تحصلنا بفضل الله على رضاء أبينا .

وقد تكلم موسى عليه الصلاة والسلام ثلاثة آلاف وخمسمائة كلمة ، فكان آخر كلامه : يارب أوصنى . قال : أوصيك بأمك حسناً ، وقد كررها تعالى سبع مرات . قال : حسبى . ثم قال : ياموسى ألا إن رضاها رضاى وسخطها سخطى . وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لابن مهران : لاتأتين أبواب

السلاطين وإن أمرتهم بمعروف أو نهيتهم عن منكر ، ولا تخلون بامرأة وإن علمتها سورة من القرآن ، ولا تصحبن عاقا فإنه لن يقبلك وقد عق والديه .

وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله إن لى والدة أنفق عليها وهى تؤذينى بلسانها فكيف أصنع ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أد حقها ، فوالله لو قطعت من لحمك ما أديت ربع حقها ، أما علمت أن الجنة تحت أقدام والدتك . فسكت الرجل وقال : والله لا أقول لها شيئاً . ثم أتى الرجل إلى والدته وقبل أقدامها وقال : يا والدتى بذلك أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد قال صلى الله عليه وسلم : ما عُبدَ الله بشيء أفضل من جبر الخواطر . وقد سمعنا منك مراراً : البَرُّ بارٌّ بأهله . وقال عليه الصلاة والسلام : رحم الله امرأ أعان ولده على بره . ونرى أنه بعد الوصول إلى ذلك لاريب أن الله تبارك وتعالى يوصلنا إلى الخير . وفى الحديث القدسى : أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت له اسما من اسمى ، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته . وقال صلى الله عليه وسلم : من أحب أن ينسأ له فى عمره ويبسط له فى رزقه فليصل رحمه .

وعَرْضنا مسألتنا هذه لحضرتك يا أبانا تحريريا هو لشدة الحياء منك ، ولتمكن حضرتك من التأمل والتفكر والتدبر والتروى فى هذه التجارة المنجية لنا جميعاً من النار . فأعنا يا أبانا فى الدنيا يعنك فى الآخرة .

والحاصل أن مطمح نظرنا معيشتنا فى الدنيا متمين بالحزم ، ووصولنا للفتوح برضاء الوالدين ما استطعنا كما أمر الله ورسوله ، محاربين أنفسنا

والشيطان والدنيا والهوى . خالصة قلوبنا لله فإنا هُدنا إليه . الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . ولا زلتم ملجأ لنا وللقاصدين ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . وعلمنا الكتاب والحكمة ، وزكنا إنك أنت العزيز الحكيم . وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمى وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً . آمين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

فأجاب صاحب الترجمة طلبهما ، فرحمه الله وإيانا رحمة واسعة .

حسين عوده

١٢٥٢ — ١٣٣٢ هـ

وقفت له على ترجمة بخط الأستاذ العالم السيد عيسى إسكندر المعلوف[١].

قال :

هو الدكتور حسين بن مصطفى أبي عودة ، ولد في دمشق نحو سنة ١٢٥٢ هـ ودرس الطب على بعض معاصريه ، ثم أتمه في مدرسة قصر العيني المصرية[٢] مدة ست سنوات من سنة ١٢٨٤ هـ حتى سنة ١٢٩٠ هـ . وكانت المدرسة في هذا العهد تشتمل على نحو مائتي طالب من طبيب وصيدلي ؛ وطلبة الشام عشرة ، ورئيس المدرسة محمد على البقلي ، وأساتذتها : حسين بك عوف ، وسالم باشا سالم ، ويوسف بك جاستنيل ، وحسن بك عبد الرحمن ، ومصطفى أفندي أبو زيد ، وغيرهم من مشاهير الأطباء والعلماء . فلما نال المترجم شهادته الطبية عاد إلى صيدا نحو سنة ١٢٩١ هـ ، وكان يتردد بين صيدا ودمشق . ويبحث في المكتبات عن الكتب الطبية القديمة ، فاقتنى بعضها وطالع معظمها ، واختار منها طرق العلاج القديمة بالعقاقير ، واعتمد عليها في معالجاته .

---

(١) في كتابه مغاوص الدرر في أدباء القرن الثالث عشر والرابع عشر .
(٢) الآن كلية طب قصر العيني .

فكانت مزيته فى الطب أنه يقتصر على أبسط الأدوية النباتية مما يجمعه بيده منها ويستحضره بطرق خاصة ، ويحرص على المعيشة البسيطة ، والتغذية النباتية ، حتى اعتقد أنه بهذه الذرائع سيعيش أكثر من مائة وخمسين سنة ، وكان واثقاً باعتقاده . وطبب الفقراء مجاناً أو بقيمة زهيدة ، وتجافى عن تطبيب الأغنياء ولو أعطوه مالا كثيراً .

ومن مزاياه العامة أنه كان ينزع إلى القناعة والكفاف ، كريم الأخلاق ، محباً للخير ، موالياً لجميع الناس ، صبوراً لين الجانب ، حتى عد لذلك غريب الأطوار ، ينحو نحو الفلاسفة .

وصادق كثيراً من العلماء وعاشرهم أو راسلهم ، مثل المرحومين : أحمد فارس الشدياق ، وحسن حسنى باشا الطويرانى ، والشيخ طاهر الجزائرى .

وبينما كان يعتقد أنه سيعمر ، زلت قدمه وهو سائر فى مدينة صيدا فجرح ، ولم يلبث أن قضى نحبه فى ربيع الأول سنة ١٣٣٢ هـ عن نحو الثمانين . وله أطوار غريبة فى طرق حياته ومعيشته ومعاشرته وأفكاره وطبائعه .

ومن آثار قلمه : فهرست للمادة الطبية سماه : « عمدة المحتاج فى علمى الأدوية والعلاج » وقد طبع فى مصر بمطبعة بولاق سنة ١٢٧٨ هـ (ربما ١٢٨٧ هـ) فيكون قد ألفه وهو تلميذ . وله تعليقات ومقتطفات من

كتب الطب فى وصف العلاجات النباتية والنباتات ، وترجمة لحسن باشا الطويرانى .

هذا ما أمكن الوقوف عليه من ترجمته بعد البحث الكثير ، والمراجعات الجمة . ومن مصائب العلماء والمؤلفين أنهم قلما يترجمون ، بل قلما يضبط زمن وفاتهم باليوم والشهر والسنة ، أو تاريخ ولادتهم . وأكبر خطأ يقع فى الصحف عدم الاعتناء بذلك .

محمد المبارك الحسني الجزائري

١٢٦٣ — ١٣٣٠ هـ

وقفت له على ترجمة بخط العلامة الشيخ طاهر ابن الشيخ صالح الجزائري السمعوني قال :

ولد رحمه الله تعالى في مدينة بيروت على رأس سنة ١٢٦٣ هـ ، كان والده السيد المبارك أول المهاجرين إليها من الجزائريين .

وتوفي رحمه الله تعالى يوم الثلاثاء خامس جمادى الآخرة سنة ١٣٣٠ هـ وبقي حتى وفاته مجموع الحواس ، يؤانس أصحابه ، ويرسل خلف من لم يحضر ، وكان يودعهم واحداً بعد واحد ، وقد استحضر كلمة الشهادة ، ونطق بها ، مادا بمسبحته ومشيراً بها ، وذلك بحضور أصحابه .

وخرجت جنازته رحمه الله على هيئة السنة حسب وصيته ، كما أنه أوصى أن يدفن في الصالحية في سفح جبل قاسيون ، وينزل على والده . واشترك في تشييع جنازته كثير من الناس ، وصلى عليه في جامع الشيخ الأكبر بعد صلاة العصر ، ثم صعد بجنازته إلى الجبل ونزل على والده العارف بالله تعالى السيد المبارك المتوفى سنة ١٢٦٨ هـ ، في المقبرة المسماه بالروضة ، بين ضريح سيدنا ذي الكفل عليه السلام وبين قبر جده لأمه الإمام الكبير الصوفي الشيخ محمد المهدي ، رحمه الله رحمة واسعة .

وقـد كتب إليه الأمير عبد القادر الحسنى الجزائرى قدس الله سره ملغزا فى الهرم [أى الشيخوخة] :

أقول على صدق لأهل النهى طرا
ولست بمستثن لئيماً ولا حـراً
ألا خبرونى أين ضلت عقولـكم
وكلـكمُ يستهجن الشر والضرّا
ويغفل عنـــــه وهو منتبه له
ويطلب هذا الشر ، أعظم به شرّا
وحينئذ يقلوه كل مُــــــوَادِدٍ
ومن مس هذا الضر هيهات أن يبرا

فأجابه الشيخ محمد المبارك الجزائرى — بإشارة منه رضى الله عنه :

أيا جهبذا رقت معانى رمـوزه
ودقت فـلم يدرك لهـا ذو الحجا سرّا
لقد ضـل فـكرى فى مهامه لغزكم
ولم يلف من يوليه من طيه نشرًا
وما هـو إلا كنز درّ معارف
له رصـدٌ يحمى جواهره قسرًا
فحاولت أن أجلـو براقع وجهه
وأكشف عن معنى بلاغته السترًا

فخـيّل لى أن الرياسـة سره
وخلت — إذن — أنى أحطت بها خبرا
ولاريب أن الجاه أعظم مشتهى
عـلى أنـه شر وأعظم بـه شرّا
ومن بعد ذا أمعنت فـكرى فلاح لى
هو الـكبر المستلزم البـأس والضرّا
وهـذا لعمرى ليس يرقى سليمه
ولـكن ينال الأجر إن أحـرز الصبرا
فأسأل رب العـرش يحفظ ذاتـكم
بجاه ختام الرسل خـير الورى طرا

وقد وقفت للشيخ محمد المبارك[١] الحسنى الجزائرى — على ترجمة أخرى بخط الأستاذ العالم السيد عيسى اسكندر المعلوف عضو المجمع العلمى العربى بدمشق الشام ، قال فيها :

هو الشيخ محمد بن الشيخ محمد المبارك المغربى الجزائرى الدلسى الحسنى المالـكى الدمشقى . ولد فى بيروت سنة ١٢٦٣ هـ فى أثناء هجرتهم من المغرب ، لأن أمه كانت حاملا به ، فنقل طفلا مع أسرته إلى دمشق ، فوصل إليها قبل دخول الأمير الجزائرى إليها ، فـكان أول مهاجر مغربى وصل إلى دمشق فى القرن الماضى ومعه كثير من طلبته .

---

(١) ترجمه الشيخ البيطار ترجمة مختصرة لأنه كان حيا ، ولم يذكر وفاته ، فزدت على الترجمة ما فى كتاب «مغاوص الدرر» وما تلقفيته من ولده صديق الشيخ عبد القادر المبارك .

وقرأ على علماء دمشق ، كالشيخ الطنطاوى ، والشيخ الجزائرى ، واتصل بالأمير عبد القادر الجزائرى الحسنى وخصه بشعره فلم يمدح أحداً غيره به . وكان يقرىء مقامات الحريرى لأولاده . وحضر دروسه الأخرى السيد عبد الباقى الجزائرى الحسنى ابن أخى الأمير عبد القادر — وهو الذى تولى إفتاء المالكية فى دمشق ، والشيخ محمد الحكيم ، والأستاذ محمد كرد على رئيس المجمع العلمى العربى فى دمشق . وكانت مجالسه عامرة بالأدباء ، ومال إلى الأدب والتصوف ، وله حواش وتعاليق على ما قرأه من الكتب ، ولا سيما على تفسير ابن جرير الطبرى .

وكان يصرح أن مبدأه ليس تأليف الكتب ، ولكن تصحيح كتب السلف وضبطها . فلهذا لم يكلف بالتأليف كلفه بالضبط والتصحيح . فترى فى مكتبته كتباً كثيرة محشوة بالفوائد ، مثل « سيرة ابن هشام » و « نوادر الأصول » للترمذى الحكيم ، و « الذريعة إلى مكارم الشريعة » و « مقامات الزمخشرى » وكثيراً من كتب التصوف والأدب عليها تقارير ومقابلات .

وجمع فى مكتبته مخطوطات نفيسة آلت من بعده إلى ولده الشيخ عبد القادر .

وله قصائد تملأ ديوانا مجموعاً بخطه ، ورسائل ست أشبه بالمقامات طبعت فى دمشق ، وهى :

١ — « غناء الهزار[1] ونضرة البهار ، فى محاورة الليل والنهار » .

---

(١) جاءت الفقرة (غناء الهزار) والتى تليها تاريخا بحساب الجمل لسنة إنشائها وهى سنة ١٢٩٥ — بحساب التاء المربوطة هاء . وقد نقل الشيخ للبيطار فى ترجمته هذه المقامة برمتها (٣ : ٣٧٣) .

٢ — « أبهى مقامة ، فى المفاخرة بين الغربة والإقامة » ذكر فيها الأمير عبد القادر ورحلته إلى بعلبك ، وهو يرافقه .

٣ — « المقالة اللغزية ، والمقالة الأدبية » .

٤ — « بهجة الرائح والغادى ، فى أحاسن محاسن الوادى » ضمنها رحلته إلى غوطة دمشق .

٥ — « غريب الأنباء ، فى مناظرة الأرض والسماء » طبعت بدمشق سنة ١٣٠٢ هـ

* * *

ولقد نال رتبة (قاضى أزمير) ، وأقطعته الحكومة أرضاً فى « حوران » فلم يقبل القطيعة ، ولا حضر مجالس الرتبة الرسمية .

وكانت أخلاقه رضية ، وله إحسانات للمحاويج . وتوفى سنة ١٣٣٠ هـ .

ومن شعره قوله فى مدح الأمير عبد القادر الجزائرى من قصيدة رائعة :

قد أسفرت بين العذيب وحاجر

خودٌ سبت أهل الهوى بمحاجرِ

هيفاء طرتها غدت تحكى دجى

ليل ، وغرّتها كصبح زاهرِ

يفترُّ جوهر ثغرها عن لؤلؤ

أجريت منه عقيق دمع هامرِ

إلى أن قال متخلصا لمدحه :

يصفو بطيب وصالها وقتى ، كما
يحلو المديح بذكر عبد القادر

مولى حكت أخلاقه فى لطفها
مسرى النسائم فى رياض أزاهر

بزغت به شمس المعارف بعدما
أفلت ، فأرشد كل لاه حائر

وختمها مؤرخا سنة ١٢٩٥ هـ بقوله :

ما قال ممتدحاً مؤرخ شكره
هام الوجود بسر عبد القادر

مُحَمَّد بَدْرُ الدِّين

١٢٦٧ — ١٣٤٤ هـ

هو العالم العلامة المحدث الكبير الشيخ محمد بدر الدين الحسنى، كان والده الشيخ يوسف ابن الشيخ بدر الدين من علماء الأزهر الشريف، وهاجر إلى الشام، وهو من ذرية سيدنا الحسن، وكان من أعظم علماء الأزهر فى عهد الشيخ إبراهيم السقا وقبله، ولما هاجر إلى الشام عمر « دار الحديث » بعد خرابها، وجلس للتدريس فيها، وله تآليف عديدة فى سائر العلوم. وكان معظماً عند علماء مصر والشام. ثم تزوج من بيت الكزبرى وولد له شيخنا الشيخ محمد بدر الدين. ولما أن صار عمر المترجم سبع سنوات، رأى والده النبي صلى الله عليه وسلم يطعمه تمرة، ثم رآه مرة ثانية يسقيه حليباً، وقال له: هذا الولدُ ينتفع به المسلمون.

ولما صار عمر المترجم عشر سنوات، انقطع لطلب العلم إلى أن صار عمره ثلاث عشرة سنة، ثم توفى والده فصار يقرأ عند الشيخ أبى الخطيب، وظل كذلك سنتين حفظ خلالهما ستة آلاف بيت من « متون » مختلفة فى علوم القرآن الكريم والحديث الشريف. وكان يحفظ كتب الحديث كتاباً بعد

كتاب مع الإسناد ، ثم صار يشرح ويؤلف . وأول شرح هو فى مصطلح الحديث ، طبع فى مصر . ثم جلس فى المسجد الأموى لتدريس سائر العلوم للخاصة والعامة ، ثم طاف فى بلاد مختلفة ، منها القاهرة والإسكندرية والحجاز والأقطار العربية الأخرى .

وكان يقرأ درسه فى الحديث من البخارى بالإسناد غيباً ، ويطبق عليه من سائر كتب الحديث مع الإسناد غيباً . ويطبق مأخذ المذاهب والأصوليين وعلماء التوحيد على الأحاديث ، ويبين من الأحاديث العلوم العقلية والنقلية ، حتى إن درسه العام فى المسجد الأموى كان يشتمل على علوم الطب والهندسة والجغرافية والحساب وغيرها من العلوم الرياضية . وكان يجلس لذلك الدرس بعد صلاة الجمعة من الظهر إلى العصر ، ويسرد الأحاديث من سائر كتب الحديث غيباً مع الإسناد ، ويسعى الناس من البلاد الإسلامية المختلفة لاستماع الحديث منه ، وأخذ الإجازة عنه . وقد أخذ هو الإجازة فى الحديث عن العلامة الكبير المرحوم مولانا الشيخ إبراهيم السقا رفيق والده فى الطلب ، وصار العلماء من سائر البلاد يرسلون إليه القصائد والمدائح ، ويصفونه بأنه المجدد ، وصاحب الوقت ، وقطب الزمان . وترجم له كثير منهم فى كتبهم ومؤلفاتهم ، ومنهم العالم الهندى الشيخ عاشق الاهى .

ولما بلغ العشرين زوجه ابنته العلامة الشهير شيخ الشام الشيخ محى الدين العانى الرفاعى ، وجاءه منها أولاد أكثرهم نساء ، وله ولد واحد اسمه الشيخ محمد تاج الدين، صار من علماء دمشق الأعلام .

وقد عين فى عهد الحكومة العثمانية مفتياً للجيوش ، وفى عهد الأمير فيصل شيخاً للإسلام ، وعرف منذ حداثته بأنه يقوم الليل ويصوم النهار ، ولايفطر إلا أيام العيدين ، وجلوسه على الحصيرة ، ولباسه من ثياب القطن ، ولايذهب إلى الحكام .

وقد سمع درسه كثير من علماء مصر ، منهم الشيخ محمد بخيت ، والشيخ رضوان العدل ، والشيخ مصطفى الجندى ، وتخرج عليه فى « دار الحديث » كثير من علماء الشام ، آخرهم الشيخ محمد المبارك ، والشيخ أمين السويد ، والشيخ توفيق الأيوبى. واستمر حتى بلغ الخامسة والسبعين مواظباً على درسه الخاص يوم الثلاثاء ودرسه العام يوم الجمعة .

وحينما هاجر إلى الشام العلامة الكبير الشيخ الكتانى جلس فى درسه وأخذ منه الإجازة فى الحديث . كما طلب الإجازة منه كثير من علماء الآستانة ومصر والعراق والحجاز واليمن وغيرها من الأقطار الاسلامية .

وقد جمع مكتبة نفيسة من المخطوطات ، خصوصاً بعد ما احترق قسم من مكتبة والده النادرة .

وللأستاذ الهلالى قصيدة طويلة فى مدح الشيخ بدر الدين يقول فيها :

يا عالما جـــل قـدره ومن حـكى البحر صـــدره
الدين أعـــلى سماء وأنت لاشـــك بدره

رحم الله الشيخ وأكرم مثواه جزاء وفاقاً .

ترجمة أخرى :

ووقفت له على ترجمة أخرى بخط السيد محمود بن رشيد العطار ، قال :

ولد الأستاذ العلامة الشيخ محمد بدر الدين بدمشق سنة ١٢٦٧ هـ ، وقد مدحته بقصيدة طويلة قلت فيها مؤرخاً مولده :

من قد سما بين الأنام قدره حافظ دين الله فهو بدره
من نشأة قد طهرت أنفاسه مولده تاريخه (أغراسه)
١٢٦٧

وولادته كانت بداره — قرب دار الحديث بالأشرفية — مقر المترجم ومقر أئمة الحديث من سبعمائة سنة من أبوين فاضلين تقيين ورعين : فوالدته السيدة عائشة من أسرة الكزبرى الدمشقية العريقة المشهورة بالعلم والفضل والحسب والنسب ، خصوصاً علم الحديث المنتهى رياسته إليها . وقد اعتنت بكفالته بعد وفاة والده أشد الاعتناء ، وسلمته لشيوخ العصر للتلقى عنهم . أما والده فهو العلامة الإمام الشهير الشيخ يوسف ابن العلامة السيد بدر الدين ابن السيد عبد الرحمن ابن السيد عبد الوهاب ابن السيد عبد الملك ابن السيد عبد الغنى المراكشى السبتى الحسنى المالكى . وقد ولد الشيخ يوسف فى محلة ورياد العروس ، فى مراكش . وينتهى نسبه إلى الولى الكبير الشيخ عبد العزيز التباع أستاذ الولى الشيخ الجزولى صاحب دلائل الخيرات . والشيخ عبد العزيز ينتهى نسبه إلى سيدنا الحسن رضى الله عنه . وقدم دمشق بعد ماصار العلم الأوحد والأستاذ المفرد فى سائر العلوم العقلية والنقلية ، خصوصاً

علم الأدب فكان حامل لوائه بلا خلاف . وكان تحصيله العلوم بالجامع الأزهر — فأخذ عنه العلامة الشيخ حسن العطار شيخ الإسلام الأسبق ، والعلامة الصاوى والشيخ الفضالى والأمير الصغير والسيد محمد الحسينى الشهير بفتح الله والشيخ حسن القويسنى وغيرهم من شيوخ العصر . واستجاز من الشيخ المحدث عبد الرحمن الكزبرى ، ومن رفقائه فى الدرس كالعلامتين الأشمونى والطهطاوى وأضرابهما. وله مصنفات كثيرة تشهد له بالتفرد وطول الباع فى سائر الفنون ، خصوصاً الأدب . فمنها شرحه على « مولد الدردير » فى مجلد سماه « فتح القدير » ونظم « درة الغواص » للحريرى وهى مفيدة جداً ، ومنظومته الشهيرة فى فن الرسم العربى ، وشرحها المسمى : كشف النقاب عن وجوه مخدرات الطلاب ، وهى فريدة فى بابها .

أما نظمه فكثير جداً يكاد لايحصى ، مع حسن صياغة وإبداع تفرد بهما فى عصره . وكان ينظم على البداهة ، ويكاتب أصدقاءه الكثيرين المتفرقين فى سائر الأقطار بالشعر ، ويجيز به أيضاً . وقد أجاز العالم الشريف السيد أحمد عابدين صاحب المكتبة الشهيرة بالمدينة المنورة بقصيدة عصماء ساق فيها شيوخه الكثيرين وعددهم . ثم رحل إلى الآستانة واتصل بالسلطان محمود بواسطة صديقه الحميم شيخ الإسلام عارف حكمت ، وبسط للسلطان قضية « دار الحديث » المشهورة مقر حفاظ الحديث وشيوخه وأئمة الدين من سبعمائة سنة إلى وقتنا هذا[1] ، مثل ابن الصلاح والنووى والذهبى والمدنى والسبكى وأولاده . فقام

---

(١) فى حياة المغفور له العلامة المحقق أحمد تيمور باشا رحمه الله .

قومة الأسد المصور ، وسل سيف الحق ، وهو حامل لواء الشريعة فى زمنه وحامى ذمارها ، حتى أيده الله باستخلاص القسم المغصوب من تلك المدرسة « دار الحديث » ، وأتم تعميرها ، وافتتحت باحتفال كبير حضره العلماء والأمراء ومنهم الأمير عبد القادر الجزائرى الحسنى صاحب اليد الطولى فى مساعدته لاسترداد المغتصب . وقد كان له العون الكبير بواسطة شيخ الإسلام عارف حكمت بنيل مبتغاه واختياره معلماً بعد ذلك لنجلى السلطان محمود « عبد المجيد وعبد العزيز » ، فعلمهما أصول العربية ، وقد أجازهما بعد تلقيهما منه . كما مدح العلامة الشيخ يوسف بدر والد صاحب الترجمة ، السلطان محمود ونجليه ، فى مقدمة منظومته ، وكذلك شيخ الإسلام عارف حكمت ، بقصائد كثيرة .

وقد ترجم له المؤرخان السيد مراد والسيد جميل الشطى ، فقال الأخير فى طبقاته بعد أن ساق نسبه كما ذكرناه آنفاً : « هو المصرى المولد ، المغربى الشهرة والمحتد ، نزيل دمشق ودفينها الشيخ الإمام العلامة الفقيه المحدث الكبير الأديب البارع الشاعر البليغ المتضلع المتفنن الهمام الأوحد والعلم المفرد . توطن دمشق بين سفر وإقامة . ولما عاد إلى دمشق الأمير عبد القادر الجزائرى الحسنى أحبه محبة عظيمة ، وقدره حق قدره ، فقد أخذ العلم فى مصر عن مشايخ كثيرين ، وقرأ القراءات وأتقنها ، وصنف المصنفات الكبيرة مع الدين المتين والورع والزهد . وأخذ عن الشيخ سعيد الحلبى والشيخ عبد الرحمن الكزبرى ، ودرس فى الجامع الأموى ، وحضر العلماء والأفاضل درسه فى مدرسة دار الحديث الشهيرة . وهى التى فتحها ودرس بها وأسكن بها الطلبة ، وكان ذلك سنة ١٢٧٠ هـ فصارت

له أثراً باقياً وخيراً جارياً . وقد نظم فيها قصيدته المشهورة « التحديث عن نازلة دار الحديث » وهى تزيد على أربعمائة بيت ساق فيها القصة بتمامها . وحسب المطلع عليها أن يعلم ماله من القدم الراسخة فى العلم والأدب . وبالجملة — كان آية من آيات الله ومعجزة من معجزاته ، قوالا بالحق ، لا تأخذه فى الله لومة لائم . كان مهيبا تفر العظماء من بين يديه مهابة له وإجلالاً . حتى إن السيد طاهر أفندى مفتى الشام المشهور كان يتوارى منه لأنه تراخى عن نصرته فى قضية « دار الحديث » . ثم سكن مدة طويلة بالمدينة المنورة ، وهناك نظم قصيدته التوسلية الشهيرة فى مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم وأولها :

إليك رسول الله وجهت وجهتى ... لأنك باب الله فى أى محنة

وأنت ملاذ العارفين بأسرهم ... إذا ما استغاثوا ، سيما يوم حسرة

وهى قصيدة سارت بذكرها الركبان ، تقرأ عند اشتداد الكروب ونزول المصائب . ولقد أخبرنا أحد الثقات أنه كان إذا دخل من باب الجامع الأموى وأحس به بعض المدرسين قام مختفيا خشية الوقوف على درسه والتكلم معه !! كما أخبر بعض المعمرين أنه كان يأتى بعض ضواحى دمشق وقراها كقرية دوما وكفر سوسه فيدخل الجامع فيجتمع عليه الناس للوعظ والانتفاع بعلمه وفضله ، فيقرأ أولا عشرا من القرآن الكريم بالقراءات العشر ، ثم يشرع بالوعظ بلا كتاب . وقد أخبرنا الشيخ عثمان الدرمانى الحنبلى الفقيه إمام مسجد درما أنه جلس مرة للوعظ مبتدئاً ببيت من البردة فشرحه بأنواع الفنون . ثم توقف هنيهة فأنشأ عدة أبيات من بحر البردة وقافيتها . كما نظم تاريخاً بديعاً منقوشاً على جدار درما الشهير .

وله مع الأمير عبد القادر الجزائرى الكبير واقعة مشهورة، وهى أنه فى أثناء احتدام قضيته « دار الحديث » دخل على الأمير عبد القادر الجزائرى وهو يقرأ البخارى لتلامذته فقال موجها الخطاب للأمير : أصلى أربع تكبيرات على هذا الميت ، فكان هذا سبباً لقيام الأمير بنصرة الشيخ . وبالجملة كان مجدد عصره بلا خلاف ، وحامل لواء السنة بالاتفاق .

ورأيت بخط تلميذه الشيخ عبد السلام الشطى أنه توفى يوم الخميس ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٢٧٩ هـ فى دمشق ، ودفن فى تربة باب الصغير ، وقبره ظاهر يزار ويتبرك به .

وأعقب المترجم نجليه العلامة الشيخ محمد بدر الدين وأخاه المرحوم الشيخ أحمد بهاء الدين ، وكان الأخير من أهل العلم إماماً فى مدرسة دار الحديث ، ثم صار شيخا للتكية المجيدية يقيم بها الذكر والطريقة النقشنبدية إلى أن توفى إلى رحمة الله ، وخلف ولداً دعاه يوسف ضياء الدين ، وهو فى كنف عمه يطلب العلم أسوة بأسلافه .

نشأة الأستاذ الأكبر الشيخ بدر الدين :

وقد نشأ الأستاذ الأكبر مولانا الشيخ بدر الدين فى حجر والده العلامة الشيخ يوسف المشار إليه آنفاً . وحفظ القرآن الكريم بمعونته وإرشاده ، وقرأ عليه مبادىء العلوم حفظاً وفهماً ، وحينما أشرف والده على الموت ، كان يقول له : تركتك لله يا بدر الدين . وكان لوالده شغف عظيم به ومحبة شديدة له ، وقد ذكره فى قصيدته التوسلية ، وكان غائباً عن دار الخلافة لأجل قضية « دار الحديث » قال :

وأما الذى قـد أورث القلب حسرة

ففرقـة من للعين أعظم قـرة

محمـدٌ ابنى من بـه امـتن خالق

علىّ عقيب الشيب إبان شيخـة

ففارقتـه قهـراً ولا كافـلٌ له

سوى من قضى بالبعد عنـه لحكمة

وقولى عـلى من رام لى عنه فرقة

بمحض الأذى : الله حسبى بحـرقـة

وأهـدى صـلاتى الهاشمى محمدا

تُمتعنى قبـل الممات برؤيـة

عليـه صـلاة الله ما حن غائب

وما اكتحلت عين برؤيا الأحبـة

وبمناسبة « دار الحديث » ، تذكر حادثة أخرى لها وقعت خلال الحريق الهائل الذى شب فى دمشق والتهم سوق الحميدية الشهير ، فقد احترق قسم منها ، فبلغ الوالى ، عزت باشا العابد ، الذى اعتزم عمارتها على أحسن طراز بعد زيارته لها وتفقدها مع المرحوم السيد عبد الحميد الزهرارى ، وجدد العزيمة الصادقة على عمارتها ، وصرف مالاً كثيراً فى هذا السبيل ، وبالرغم من قيام بعض أحفاد الذين عارضوا تعميرها من قبل لصرف همته !! ولـكن الله أبى إلا أن تعمر وتعود لما كانت عليه . وهى بحمد الله عامرة بأهل العلم والطلبة

من الصباح إلى المساء ، وهى المعهد الوحيد الذى تدرس فيه العلوم على اختلاف أنواعها، وتقصد من أطراف الأرض فيزورها الجاوى والبخارى والهندى والصينى والأفغانى والمدنى والمصرى والداغستانى واليمنى والتترى . فهى تعج بالأجناس المختلفة .

وفى حقها قال « السبكى » :

وفى دار الحديث لطيف معنى أصلى فى جوانبها وآوى
لعلى أن أمس بحر وجهى مكانا مسه قدم النواوى

ويقال إن نعل المصطفى عليه الصلاة والسلام بحائطها القبلى . والله أعلم .

ولما توفى والد المترجم — كان عمره اثنتى عشرة سنة ، فقعد فى غرفة والده بدار الحديث ، ولها اتصال بداره ، وصار يطالع الكتب التى تركها له والده بهمة عظيمة ، ويحفظ المتون فى أنواع الفنون بحافظة غريبة .

وقد أخبرنى رجل مغربى صالح ثقة اسمه الحاج أحمد ، وكان مختصاً بخدمة بيت الشيخ ، أن المترجم لما جلس مكان والده فى الحجرة ، وصار يطالع الدرس بالليل ، كان والده يتجلى له ويرشده بروحانيته إلى ما استعصى عليه فهمه من المشكلات .

وقص على أمه مارى ، فقالت له : إن أرواح الصالحين تحضر وتزور من تحب . وكانت من العابدات الصالحات ، قل مثلها فى زمنها ، ثم إنها أخذت الأستاذ وذهبت به إلى العلامة أبى الخير الخطيب فى دمشق ، وأوصته به خيراً ،

فعامله الشيخ المذكور معاملة ولده ، لما رأى عليه من سيماء النجابة والذكاء المفرط ، مع خلق كريم وورع عظيم . وشغله بحفظ المتون فى الفنون المختلفة ، فحفظ الألفية والشاطبية وألفية الحديث للعراقى وغيرها مما يقدر بستة آلاف بيت . ثم شفعها بقراءة شروحها بفهم وإتقان ، ولم يكمل الثامنة عشرة من عمره ، حتى نبغ نبوغاً باهراً ، خارقاً للعادة ، لفت إليه أنظار مشايخه ، فأجازوه إجازة عامة ، وأذنوا له فى التدريس والتأليف ، فشرح « غرامى صحيح فى مصطلح الحديث» ولما يكمل العشرين من عمره ، وطبع الشرح سنة ١٢٨٦ هـ ، ثم أقبل على المطالعة لنفسه بهمة شماء وعزيمة صحيحة ، لا يفتر عن ذلك آناء الليل وأطراف النهار ، وحفظ من الأحاديث بأسانيدها ماشاء الله أن يحفظ . ويقال إنه يحفظ البخارى ومسلم بأسانيدهما ، ولا يغيب عنه حديث قط من الكتب الستة ، ومن رأى الأستاذ فى درسه العام وهو يسرد الأحاديث بأسانيدها ، ويتكلم عليها بأنواع العلوم — علم أن الله اختصه بقوة حافظة خارقة للعادة لم يسمع بمثلها . ثم صار يكتب على بعض المتون شروحاً . فشرح « الإظهار» شرحاً مفيداً جداً ، ومنظومة « موافقات سيدنا عمر » للسيوطى ، وشرح « البيقونية » ومتونا كثيرة فى الصرف . وكتب حاشية على « شرح المحلى على البردة » وحاشية على « الجلالين » فى أربعة مجلدات وكتب شرحاً على « مختصر ابن الحاجب » ، وقد رأيت ذلك كله بخطه . وله تقييدات كثيرة على أطراف الكتب ، ولعل له تآليف أخر لم أطلع عليها ، لأنه يريد ألا ينسب له شىء منها تواضعاً ، وقد محا اسمه عنها كلها هضماً لنفسه ، كل ذلك ولم يتجاوز

العشرين من عمره . ثم صار يقرأ للطلبة فى الجامع الأموى النحو والصرف والبلاغة والمنطق والفقه وغيرها .

وقرأ درساً عاماً بين العشاءين ، وسمعت أنه كان يقرأ تفسير البيضاوى عن ظهر قلبه دون أن يحمل كراسا . وكان جهورى الصوت ، يجتمع عليه الخلق الكثير صفوفاً صفوفاً . فتعطلت دروس غيره من الشيوخ لشدة فصاحته ولإخلاصه الخالص .

ثم اعتزل فى حجرته بالمدرسة ، ولم يخرج منها مدة سبع سنوات ، حتى يقال إنه ما كان يرى أبداً ، ويصلى فيها حتى الجمعة لالتصاق حجرته بالمسجد من جهة الشرق . فأكب خلالها على المطالعة والحفظ ، مقبلا بكليته على علم الحديث حتى صار فيه الحجة البالغة ، ثم رحل إلى حمص ، فأقبل عليه أهلها إقبالاً عظيماً وأخذوا عنه وكان ذلك فى سنة ١٢٩٤ هـ ، ثم رجع إلى حجرته فى المدرسة حتى جاوز الثلاثين ، فقرأ درساً عاماً فى جامع السادات عن ظهر قلبه من صحيح البخارى ، وقد بهرت الناس فصاحته وتكلمه على الحديث الواحد من علوم شتى لم تعرف بديار الشام مثل الحكمة والطب والرياضيات وغيرها . وانتقل لكثرة الخلق عليه ـ لما ضاق بهم الجامع — إلى جامع سنان باشا ، فكان يقرأ ليلتى الجمعة والاثنين من بعد المغرب إلى العشاء ، ويجتمع عليه الألوف من الناس ، ويأتون من قبل المغرب فيصلون فى الجامع ، ويمكثون لشدة الزحام فى أماكنهم ، لامتلاء المسجد بسدتيه العليا والسفلى حتى الرواق وصحن المسجد الخارجى . وكان يحضر درسه العام عزت أفندى متصرف دمشق التركى

إذ ذاك بعد أن يبدل ثيابه ويلبس جبة وعمة على هيئة أهل العلم ، وأحبه محبة عظيمة . وما إن جتمع فى الآستانة بالوزراء وأهل الحل والعقد حتى أخبرهم بالأستاذ وأنه مع حداثة سنه من أجل المحدثين ، متكلماً عن ظهر قلبه فى سائر الفنون مع فصاحة وطلاوة تأخذان بمجامع القلوب ، فأثمرت مساعيه تعيين عشرة ليرات معاشا شهرياً للأستاذ دون علمه . حتى إن الأستاذ كان على عادته يقرأ الدروس فى الأصول والتوحيد والمعانى والوضع والمنطق كحاشية الأزميرى على المرآة وحواشى التلويح والمطول والأطول والخيالى وحواشيه والعصام والكفوى على الوضعية والقطب على الشمسية وشرح حكمة الإشراق وغيرها ، وبينما هو يقرأ الدروس جاءه رسول الوالى ، فقدم له ظرفا كبيراً يحوى براءة سلطانية بالمعاش المذكور ـ فقال الأستاذ له : ليس هذا لى ، وامتنع عن أخذه . . مع أنه كان فى أشد الحاجة ، ثم لم ير بداً من قبوله .

ثم تزوج المترجم بكريمة العارف بالله ذى الكرامات الظاهرة والمناقب الفاخرة العالم الكامل السيد الشريف محى الدين العانى الرفاعى ، ورزق منها أولاده ، وصار أخو المترجم الشيخ أحمد بهاء الدين يتناول المعاش ، ويتولى أمر البيت ، والأستاذ مشتغل بقراءة الدروس .

وفى سنة ١٢٩٨هـ أسند إليه التدريس فى الجامع الأموى ، فقرأه باحتفال حضره أعيان العلماء والرؤساء والوالى وجماعته ، وكان إذ ذاك (مدحت باشا) فابتدأ بالحديث الأول من صحيح البخارى ذاكرا سنده ومشايخه ، وأتى على مقدمة عظيمة فى علم الحديث شارحاً منقوله ومعقوله ، وما ترك علماً من العلوم

إلا ذكر شيئاً منها . واختتم بالدعاء بالصلاح والتوفيق لولاة الأمور . واستمر كذلك فى إلقاء هذا الدرس كل يوم جمعة بعد صلاتها إلى أذان العصر . مبيناً ماينبى على الحديث من الأحكام الشرعية على اختلاف مذاهب المجتهدين ، مرجحا الأقوى منها مأخذاً وأدلة . وقد تبلغ الأحاديث التى يذكرها مما يتعلق بحديث الباب مائة حديث . ويدلل على المسألة الواحدة بما يطبقه من علم الأصول وآداب البلاغة فى البحث والتفسير والتوحيد والأدوات كلها حتى الحكمة والفلسفة والطب والهيئة والهندسة ، مما يبهر السامعين ببديع تقريره ، ومن بينهم أحد الذين تخصصوا فى الطب والرياضيات مثلا ، فيشهد له حين يسمعه باليد العليا فى هذه الفنون !!

وعلى الرغم من حضور درسه الحكام والأمراء والقضاة جلوساً جانبه وحوله ، وأكثر الحاضرين وقوف ، فإنه يبلغهم جميعاً صوته بلا توقف ولا تلعثم منتقلا من البحث إلى الآخر بأدنى مناسبة ، ويذكر الأحاديث المخوفة مشددا الأمر على من بيدهم أمور الناس فيبكيهم ويذكرهم بالعودة إلى الرجاء والثواب للعادلين والذين لإماناتهم وعهدهم راعون ـ بين ترغيب وترهيب فى وصف العلاج ، شأن الحكماء ، مع إجابته متبسما متلفتاً عما يخطر ببال المتخصص بعلم من الأسئلة ، متكلما فيه مفيداً ومجيداً . ويختتم درسه بآيات مطبقاً إياها بما يحير الألباب . ومن عادته الجلوس فى مصلاه بعد صلاة الفجر مع الجماعة ـ قارئا أوراده إلى طلوع الشمس مؤديا صلاة الضحى ، وما قطعها مرة حتى فى الحج ـ فيقوم للوضوء مستقبلا القبلة داعياً ومصلياً بعد عودته إلى غرفته نوافل

كثيرة ، فإذا أذن للظهر صلاه مع الجماعة إلى صلاة العصر قارئا درساً أو أكثر إلى قبيل المغرب ، فيصليه جماعة أيضاً ـ ذاهباً إلى داره بعد الصلاة ، فيفطر ويجلس للدرس فى بيته ويحضره الكثير من الخاصة والعامة ، إلى أن يصلى العشاء جماعة ، ثم يذهب إلى مضجعه . علما بأنه لم يصل إماما فى حياته ، مع كونه لم يترك صلاة الجماعة أصلا ، وكان يزور أهل الصلاح والتقوى والفقراء متفقدا مدارس الأولاد الصغار طالبا الدعاء منهم ومن معلميهم ماسحا برءوس الأيتام ، وكذلك زيارته المسجونين ناصحا واعظا متلطفا معهم . ولم يدخل طول عمره دواوين الحكومة ، متورعاً كثيراً فى الفتاوى الفقهية ، وكثيراً ما يحيلها إلى بعض تلامذته . وقد وصفه أحد علماء الهند بقطب الزمان ومجدد الأوان ، كما كان شيخ الإسلام فى الآستانة يقول عنه إنه قطب العالم الإسلامى . ورحل إلى الحجاز مرتين ، فقرأ بمكة المكرمة بعض كتب الحديث، كما زار مصر مجتمعاً بالشيخ الأشمونى رفيق والده فى الأزهر وذهب إلى القدس الشريف وغيرها .

وكانت زيارته للروضة النبوية الشريفة فى حجته الأخيرة سنة ١٣٢٣ هـ قبيل صلاة الجمعة ، فاغتسل ولبس أحسن ثيابه ، ثم توجه إلى الحرم النبوى ، فلما دخله اجتمع عليه الخلق ، ولكنه لم يكلم أحداً منهم حتى خرج ، ثم أخذ يستقبل أفواجاً بعد أفواج من العلماء والطلبة وغيرهم . ثم رحل إلى الآستانة مرتين ، وعين أستاذاً للعلوم الدينية ، وتولى مشيخة الإسلام فى حكومة الملك فيصل الأول .

وكان رحمه الله ، ربعة ، خفيف العارضين ، قليل شعر الوجه ، مرتفع الجبهة وعليها أثر السجود ،وآية المهابة والنجابة والذكاء المفرط تلمع من وجهه الأبيض وعينيه الحادتين جاذبية ، ويداه كالحرير لينا والفضة بياضا ، يلبس الثياب البسيطة التى لا تميزه عن غيره ، قليل الكلام إلا فى الدرس ، ورعاً ، مضرب الأمثال ، ماقبل هدية قط ، ولا رئى مفطراً فيما عدا الأيام المنهى عن صيامها ، مهتماً بأمور الخلق أكثر من اهتمامهم بأنفسهم ، حريصاً على نفعهم ومنفعتهم ، شافعاً لهم عند الحكام فلا ترد شفاعته . كما كتب إلى كثير من الملوك والأمراء والحكام فى أقطار الأرض ،حاثا لهم على العدل وإقامة الحق بين الخلق ، فلسان الخلق أقلام الحق ـ رحمة الله عليه وعلى أمثاله من أهل الصدق بين العالمين .

طاهر الجزائري

١٢٦٨ — ١٣٣٨ هـ

يرجع نسب الشيخ طاهر الجزائرى إلى أسرة الأدارسة بالمغرب ، ويعتبر والده السيد محمد صالح بن أحمد بن موهوب الجزائرى ، الإدريسى الحسينى ، آخر من قدم من أفراد أسرته إلى المشرق ، إذ قدم إلى دمشق سنة ١٢٦٣ هـ واشتهر فيها بتبحره فى العلوم والمعارف ، والتزامه مكارم الأخلاق ، وبها توفى سنة ١٢٨٥ هـ ، تاركا عـدة أولاد أشهرهم الشيخ طاهر المترجم له .

وقد ولد الشيخ طاهر بدمشق ، بعد قدوم والده إليها بخمس سنوات ، وعنى والده بتنشئته وتربيته ، فتلقى علوم العربية وآدابها على مشاهير علماء عصره ، وعنى بجمع الـكتب والمخطوطات منذ حداثة سنه إلى آخر حياته . كما عكف على دراسة اللغتين الفارسية والتركية ، فأتقنهما بجانب إتقانه علوم العربية . وفى الوقت نفسه حذق اللغة الليبية ، وهى لغة قبائل الجزائر المغربية .

وكانت هوايته للـكتب سبباً لتنقله فى مختلف البلاد ، لجمع نفائسها ، فأكسبته رحلاته معارف جمة جديدة ، وتوثقت صلاته بكثير من العلماء والأدباء فى البلاد التى زارها ، وصار مرجعاً يعتد به فى فن وصف المخطوطات ومعرفة مظانها .

وإلى الشيخ طاهر الجزائرى يرجع الفضل فى السعى الحثيث فى إنشاء كثير من المؤسسات النافعة فى دمشق ، وفى مقدمتها الجمعية الخيرية التى ضم إليها مشاهير العلماء والوجهاء السوريين ، وتم تأسيسها سنة ١٨٩٤ م وأنشأت مدارس عديدة ، كما أنشأت مطبعة قامت بطبع كثير من الكتب المدرسية .

ومن مساعيه الحميدة تأسيس المدرسة الظاهرية بدمشق ، وإنشاء مكتبتها الكبيرة التى جمع فيها ما كان مبعثراً من الكتب والمخطوطات القيمة فى المساجد والمدارس وغيرها ، فحفظها بذلك من الضياع ، ويسر الانتفاع بها .

كما يرجع الفضل إلى الشيخ طاهر الجزائرى فى إنشاء المكتبة الخالدية بالقدس .

وإلى جانب هذا كله ، عكف — رحمه الله — على جمع نفائس المخطوطات ونوادر المطبوعات ، وواصل جهوده فى التأليف والترجمة ، وقام برحلات عدة إلى جزيرة العرب وغيرها من بلاد المشرق ، ثم أعقبها برحلات أخرى إلى الآستانة ومصر والبلاد الأوربية .

وفى سنة ١٣١٦ هـ — ١٨٩٨ م ، عين مفتشا لمكاتب الشام ، ولبث فى هذا المنصب أربع سنوات ، قدم خلالها خدمات جليلة لتنظيم هذه المكاتب والنهوض بها .

وحدث أن قام بعد ذلك برحلة إلى فلسطين ، وفى أثناء غيبته هناك قامت السلطات الحاكمة فى دمشق بتفتيش داره فيها ومصادرة كتبه وأوراقه

والتحفظ عليها فى مكتبه الخاص بمدرسة عبد الله العظم (باشا) فاستاء من هذه المعاملة، واستقر رأيه على المهاجرة إلى مصر، وتم له ذلك فى سنة ١٩٠٥. وحمل معه إليها أكثر محتويات مكتبته الثمينة، تاركاً بقيتها فى المكتبة الظاهرية بدمشق بعد أن وقفها عليها. وقد رحب به علماء مصر وأدباؤها، وبقى فيها محوطاً بالإجلال والتكريم، حتى أصيب بمرض طال علاجه فى سنة ١٩١٩، فعاد إلى دمشق حيث عين مديراً للمكتبة الظاهرية، ثم عضواً فى المجمع العلمى هناك، ولكن مرضه ما لبث أن اشتد، وأسلم روحه الطاهرة إلى بارئها بعد قليل.

وقد ترك الشيخ طاهر الجزائرى عدة مؤلفات مخطوطة منها: التفسير الكبير، والمعجم العربى، والسيرة النبوية، وجلاء الطبع فى معرفة مقاصد الشرع. وموسوعة باسم «التذكرة» فى عدة مجلدات، ضمنها ما اختاره من فرائد المخطوطات والكتب النادرة.

أما مؤلفاته المطبوعة فمن أهمها: كتاب «بديع التلخيص وتلخيص البديع». وقد طبع على الحجر سنة ١٨٧٨ م. وكتاب «منية الأذكياء فى قصص الأنبياء»، عربه عن التركية وطبع سنة ١٨٨١ م. وكتاب «الفوائد الجسام فى معرفة خواص الأجسام» وموضوعه الحكمة الطبيعية، وقد جمع بين قديمها وحديثها، وطبع سنة ١٨٨٣ م. وكتاب «عقود اللآلى فى الأسانيد العوالى» وطبع سنة ١٨٨٥ م. وكتاب «مدخل الطلاب إلى

فن الحساب » وطبع ثلاث مرات . وكتاب « تمهيد العروض إلى فن العروض » وطبع سنة ١٨٨٦ م .

وله مؤلفات كثيرة أخرى منها كتابان فى مصطلح الحديث هما : « مبتدا الخبر فى مبادئ علم الأثر » . و « توجيه النظر إلى أصول الأثر » . وكتاب فى التجويد اسمه « تدريب اللسان على تجويد البيان » . وكتاب باسم « البيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن » . وقد انتفع بهذه المؤلفات فى حياته وبعد مماته كثيرون من طلاب العلم والمعرفة فى سوريا ومصر وغيرهما من البلاد العربية .

سليم الآمدي البخاري

١٢٦٨ — ١٣٤٧ هـ

وقفت له على ترجمة بخط الشيخ سعيد الباني أحد مريديه قال : هو الشيخ سليم الآمدي أصلاً ، البخاري شهرة ، نسبة إلى بخارى بلدة أمه . ولد في دمشق سنة ١٢٦٨ هـ ، ونشأ على حب العلم منذ نعومة أظفاره ، فكان نابغة في العلوم التي حصلها في الآداب العربية واللغة والفقه والأصول والحديث ، وألم ببعض العلوم ، واقتنى مكتبة نفيسة . وقد تخرج في المدارس التحضيرية كأمثاله في زمانه ، ثم تولى شئون تربيته العلمية الشيخ محمد البرهاني خال والدته ، وكان من فقهاء الحنفية بدمشق ، فلقنه العلوم الدينيه من فقه وغيره ، ووكل إلى العلامة الشيخ عمر الأصفهاني حفيد الشهاب العطار ، تعليمه العلوم العقلية من منطق وحكمة ، وعلوم العربية من صرف ونحو ووضع ومعان وبيان وبديع .

ثم لزم المترجم له بعد ذلك العلامتين الجليلين : أستاذنا الشيخ بكرى العطار ، ومنلا طه الكردى ، للتزود من علوم العربية والعلوم العقلية . وتلقى الحديث الشريف ، رواية ودراية ، من علامة دمشق ومحدثها الجليل الشيخ سليم العطار . كما أنه لزم علامة دمشق النحرير والشيخ محمد الجوخدار والشيخ محمد الجزائرى مفتى السادة المالكية بدمشق . وأجازه فقيه الديار الشامية السيد محمود أفندى الحمزاوى مفتى دمشق الأسبق ، بعد أن لزم مجالسه العلمية واقتبس منه كثيراً من الفوائد والقواعد .

وكان هو والسيد أبو الخير عابدين والمرحوم طاهر الجزائرى رفاقا فى الطلب منذ عهد الشباب ، وأخذوا عن طبقة واحدة ، ثم تخصص كل واحد منهم ببعض أنواع العلوم .

وحينما سافر إلى الديار الحجازية للحج وزيارة الروضة النبوية الشريفة ، مكث بمكة المكرمة ستة أشهر ، تلقى خلالها متن « الشمسية » فى المنطق و « الربع المجيب » من الشيخ رحمة الله الهندى ، صاحب كتاب « إظهار الحق » . ودرس « إحياء علوم الدين » للإمام الغزالى ، على السيد أحمد الدهان من علماء مكة . كما لزم دروس السيد زينى دحلان مفتى مكة المكرمة .

ولما رجع من الحجاز ، أسندت إليه وظيفة مفتى لواء المدفعية فى الفيلق الخامس ، بعد أن أحرز السبق فى الامتحان لها ، ولإجادته اللغة التركية تكلماً وكتابة ، مع إلمامه باللغة الفارسية . فنهج فى وظيفته منهج النزاهة والأمانة . واستمر إلى ذلك يقرىء طلاب العلوم ، ويتبحر فى علوم العربية وآدابها ، وفى التاريخ والطبقات والشريعة ، واطلع على كثير من نفائس الكتب التى كانت كنزاً دفيناً ، فحاول هو وصديقه المرحوم الشيخ طاهر الجزائرى كشفها وإحياءها . وكان بطبعه محبا للاطلاع على جميع المؤلفات الحديثة فى علوم الاجتماع والعمران والسياسة والحكمة النظرية والعلوم الكونية ، وعلى الصحف السيارة والمجلات العلمية التى تقتطف من ثمرات علوم الغرب .

لهذا كان من العلماء المجددين ودعاة الإصلاح — وقد خدم المعارف خدمة تذكر فتشكر حينما كان عضوا فى الجمعية الخيرية المؤلفة فى عهد مدحت

باشا الوزير العثمانى قبل إحداث مديرية المعارف . وكان على جانب عظيم من الذكاء وسرعة الخاطر وقوة الحافظة ، سليم الصدر ، طاهر القلب لايضمر السوء والغش لأحد ، شديد الغيرة على الوطن والشعوب العربية ، مستمسكاً بدينه ومبادئه ، لكنه يمقتُ التعصب الذميم والتنطع بالدين . رحب المحيا رقيق الشمائل ، يحب النظافة والإتقان والترتيب والنظام ، فائق الهمة ، جامعاً بين تؤدة الشيوخ وهمة الشباب ، صداعاً بالحق لاتأخذه فى الله لومة لائم . وله مواقف عجيبة من هذا القبيل ، كان آخرها موقفه مع جمال باشا ، فقد كان الشيخ بوصفه من كبار الأحرار المصلحين لايرضى عن الحكم المطلق ، بل ينشد الإصلاح الذى من شأنه سعادة الوطن وعمرانه وحياة الأمة ورفاهيتها ورقى الدولة وصيانة كيانها ، فاتحد رأيه مع رأى أحرار الترك أعضاء جمعية « تركيا الفتاة » وانتظم فى سلك هيئاتهم السرية ، وظل زهاء ثلاثين سنة يجاهد فى هذا السبيل ، معرضاً نفسه إلى الخطر ، حتى أعلن القانون الأساسى . وحينما رأى تهور الاتحاديين انسحب من جمعيتهم ولزم الحياد ، وحينما تمادوا فى طغيانهم وبدت عليهم علائم سوء النية نحو العناصر غير التركية ، خصوصاً العرب ، اضطر إلى المجاهرة بمخالفتهم ، وانتظم فى سلك حزب الحرية والائتلاف . ثم كان فى طليعة المنادين بالإصلاح والمطالبة بحقوق العرب المهضومة ، فحنقت عليه الحكومة التركية وتربصت به الدوائر ، حتى أعلنت الحرب العامة سنة ١٩١٤ م ودخلتها الدولة ، وتولى جمال باشا قيادة الحملة المعروفة ، فقبض على الشيخ وزج به فى سجن الشرطة شهرين ، ثم سيق

إلى جزر عاليه ، ونفى بعد ذلك إلى الأناضول ، وكان ولده المرحوم محمود جلال فى عداد الشهداء .

وفيما هو سجين فى نُزُل « دمسكس بلاس » استدعاه جمال باشا ، وأفهمه أنه يريد إعفاءه من النفى ، على شرط أن يكف لسانه عن الطعن على الحكومة ، فأجابه بقوله : « اقض ما أنت قاض » فأيقن جمال أنه لن يسكت عن مظالم الحكومة ، وعدل عن العفو عنه .

وظل الشيخ يشنع على فظائع الحكم غير مبال ولامتهيب ، وقد أعجب بعلمه وفضله وإخلاصه كل من صحبه من علماء الأتراك وسراتهم وأعيانهم .

وعقب الانقلاب العثمانى ، طلب أن يحال إلى التقاعد فأجيب طلبه ولزم بيته ، وعكف على مطالعة كتبه ومزاولة درسه وبحثه . ثم ألح عليه إسماعيل فاضل باشا ، أحد ولاة سوريا ، فى قبول عضوية لجنة الأوقاف ، فقبل بعد أخذ ورد طويلين .

ولما ذهب الحكم التركى ، عين عضواً فى مجلس الشورى . وانتخب عضواً فى المجمع العلمى العربى ، وعضواً فى مجلس المعارف الكبير ، إلى أن أسندت إلى عهدته رياسة العلماء فى دمشق .

وكانت وفاته فى جمادى الأولى سنة ١٣٤٧ هـ بدمشق ، رحمه الله .

محمد أبو الخير عابدين

١٢٦٩ — ١٣٤٣ هـ

وقفت له على ترجمة بخطه(١) ، قال فيها رحمه الله :

إن هذا الحقير أبو الخير محمد بن أحمد بن عبد الغنى بن عمر ، المعروف كأسلافه بابن عابدين ، المتصل نسبهم الشريف بالسيد الأعظم صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما هو مذكور فى مشجر النسابة الحميدى ، وفى تكملة رد المحتار . وأما مولده فدمشق الشام سنة تسع وستين ومائتين وألف من الهجرة . نشأ فى حجر والده ، ودخل المدرسة سنة ثمانين ومائتين وألف ، فأخذ النحو والصرف والفقه والكلام والحديث والأصول والمنطق والتصوف والفرائض والحساب والمصطلح والبيان والتفسير والآداب عن جملة من أفاضل العلماء ، منهم : والده ، وابن عمه السيد محمد علاء الدين صاحب التكملة ، والشيخ محمد الطنطاوى ، والشيخ بكرى العطار ، والشيخ محمد الملاطى ، والشيخ عبد الرحمن البوسنوى الشهير بمغربى زاده ، والشيخ سعيد الأسطوانى ، والسيد محمود الحزاوى مفتى دمشق . ولازم أمانة الفتوى بدمشق ما ينيف على

---

(١) مولده فى سنة ١٢٦٩ هـ ووفاته فى ٦ مارس سنة ١٩٢٥ م — بناء على خطاب من المغفور له السيد محمد كرد على رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق ووزير معارف سوريا الأسبق -- للمغفور له العلامة أحمد تيمور باشا مؤرخ ٧ — آذار رس سنة ١٩٢٥ .

خمس وثلاثين سنة ، ثم تولى نيابة قضاء درما ، ثم قضاء بعلبك ، ثم قضاء درعا ، وسافر إلى الآستانة مرتين بعد أن تولى إفتاء دمشق الشام ، وبعد أن دخلت الحكومة العربية دمشق الشام عزله الملك فيصل عن الإفتاء ، وعين عضوا فى محكمة التميز للنقض والإبرام .

وأما سماعه الحديث وإجازاته به وبغيره فمن والده وابن عمه ، ومن السيد الجزاوى ومن طاهر أفندى مفتى الشام الأسبق ، ومن الشيخ محمد البيطار أمين الفتوى ، ومن السيد محمد الكتانى حينما كان فى المدينة المنورة ، ومن كثير من المشايخ الأعلام ، كتابة من أكثرهم ، ومشافهة من الباقين .

وأما أخلاقه فحب العزلة وقلة التردد على أبواب الكبار ، ولايحب الدخول فيما لايعنيه ، ويرجح راحة البال ، ويفضل الإقامة فى أكثر الأوقات فى قرية من قرى الشام .

وأما آثاره فله عدة رسائل لم ينشر منها سوى رسالة فى « تكرار القصص الواردة فى القرآن الكريم » حررها جواباً عن سؤال من بعض أهل العلم ، والمرجو من الله سبحانه حسن الختام .

وهذه ترجمة أخرى للعلامة محمد أبى الخير عابدين :

هو العلامة مفتى الشام محمد أبو الخير بن أحمد بن عبد الغنى بن عمر ، وبقية نسبه فى ترجمة ابن عم أبيه السيد محمد علاء الدين عابدين . اشتغل بطلب العلم كأسلافه ، وجد وحصل وتولى الإفتاء بدمشق ثم تركه .

لقينه فى رحلتى لدمشق ، فرأيت فضلا وكمالا وتواضعاً وحسن سمت ، واطلعت له على إجازة كتبها سنة ١٣٣٩ هـ ، للعلامة المحقق السيد أحمد رافع الطهطاوى يطلب منه إيصال سنده بالعلامة السيد محمد أمين الشهير بابن عابدين عم والد المترجم ، فاستخلصت منها أسماء شيوخه الذين أخذ عنهم ، فمنهم والده السيد أحمد عابدين ، وابن عمه السيد محمد علاء الدين ، والشيخ طاهر أفندى مفتى الشام ، والشيخ محمد البيطار أمين الفتوى بدمشق ، والسيد محمود الحمزاوى مفتى دمشق ، والسيد عبد الله الصوفى الطرابلسى ، والشيخ المفسر بكرى العطار ، والسيد حسين الغزى . وقرأ جملة من النحو والمنطق والحساب على عالم الشام الشيخ محمد الطنطاوى ، وقرأ المختصر مع حاشية الدسوقى على الشيخ الصوفى محمد الملاطى . وانتفع كثيراً فى النحو والصرف والحديث وغير ذلك بالأخذ عن الشيخ عبد الرحمن البوسنوى الشهير بمغربى زاده ، وسمع بعض البخارى والحديث المسلسل من الشيخ سليم العطار والشيخ مسلم الكزبرى . وقرأ على الشيخ سعيد الأسطوانى : «الأشباه والنظائر» مع مطالعة حواشى الحموى والكفوى والبيرى وأبى السعود ، وحاشية الشيخ صالح ابن صاحب التنوير . وسمع من الشيخ يوسف المغربى حديث الأولية ، وأجازه إجازة عامة .

وللمترجم عناية وولوع باقتناء نفائس الكتب ونوادرها من المخطوط والمطبوع ، وله خزانة جمعت كثيراً منها على ما بلغنى ، ولم أطلع على شىء منها بسبب قصر المدة التى قضيتها بدمشق .

حسن المدور البيروتي

١٢٧٩ — ١٣٤٢ هـ

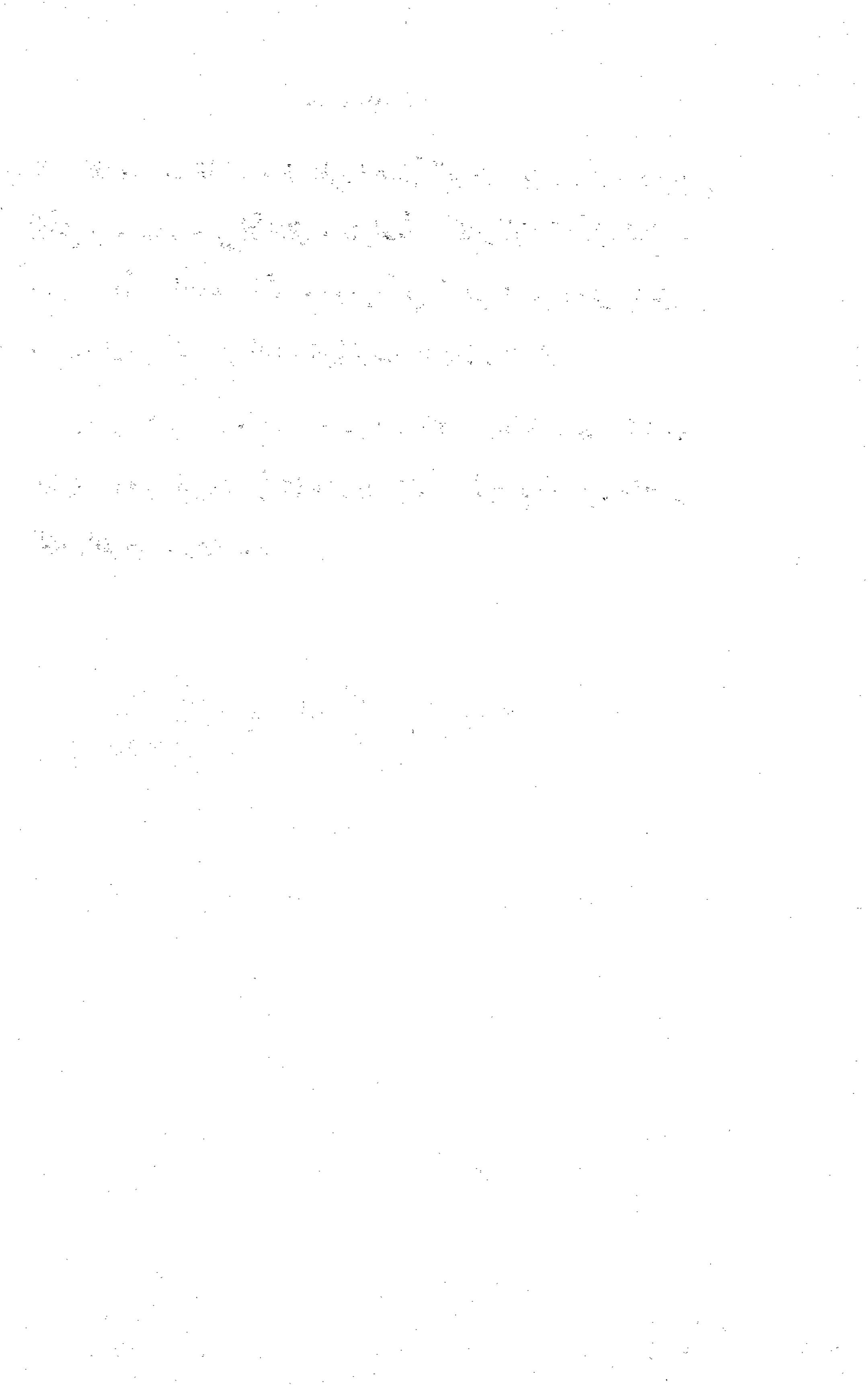
وقفت له على ترجمة ملخصة من مقالة نشرت بإحدى جرائد سورية بقلم السيد طه المدور — ابن أخيه — قال :

ولد سنة ١٢٧٩ هـ ، ودرس على الشيخ محمد رمضان . وبعد أن بلغ الثانية والعشرين من عمره ، ذهب إلى دمشق ، فأخذ عن علمائها مثل الشيخ بدر الدين الحانى ، والشيخ الكزبرى . ومكث بها خمس سنوات ، ثم رجع إلى بيروت واشتغل بها ، ثم رحل إلى مصر ، واشتغل بالحضور فى الأزهر على شيوخه ، ومنهم الأستاذ الشيخ محمد عبده . ثم عاد إلى بيروت ، وشرع فى الإقراء ، فكان يقرأ كل يوم ١١ درساً بلا انقطاع . وبقى يدرس ويفيد ٤٧ سنة .

وقبل إعلان الدستور العثمانى بسنوات ، أسس المدرسة العلمية ، وجعل ناظراً لها . ثم تركها لأنها شغلته عن دروسه . وبعد إعلان الدستور ـ بقليل ـ جعل أميناً للفتوى ، وأستاذاً للدروس الدينية فى المكتب السلطانى ، وظل كذلك مع اشتغاله بالتدريس بالمساجد إلى وفاته . وكانت طريقته فى التدريس حسنة يفهمها العامى والمتعلم .

وكان متوسط القامة ، حنطى اللون، عسلىّ العينين، يميل إلى الزهد وعدم التأنق فى ملبسه ، حسن الأخلاق ، متواضعاً ، كثير المطالعة، يكره المزاح .
وكان متضلعاً من المذاهب الأربعة ، وفريداً فى المذهب الحنفى ، وفى المنطق ، وعلم الميراث ، وكثير من العلوم كالرياضيات والبلدان والتاريخ .

وأجازه كثيرون ، حتى لقد اجتمع عنده (٥٥) إجازة ، وكان نقشبندى الطريقة . وله من المؤلفات (٢٠) عشرون مؤلفاً . لم يطبع منها غير ثلاثة فى الفقه والتوحيد . رحمه الله .



أعلام العراق



مسلسل	أسماء الأعلام	التاريخ	مسلسل	أسماء الأعلام	التاريخ
	نعمان الآلوسى	١٢٥٢ـ١٣١٧هـ	١٨	خالد النقشبندى	١١٩٠ـ١٢٤٢هـ
	محمود شكرى الآلوسى	١٢٧٢ـ١٣٤٢هـ	١٩	عبد الجليل البصرى	١١٩٠ـ١٢٥٣هـ
	نائب بكتاش	١٠٧ ـ١١٨٧هـ	٢٠	أحمد السويدى	١٢١٨ـ١٢٨٧هـ
	الحاج عمر البغدادى (باقرزاده)	١١٦٧ـ١٢٢٩هـ	٢١	عبد الغفار الأخرس	١٢٢١ـ١٢٩٠هـ
	المنلا مختار فتحى	١٦٠ ـ١٢٢٦هـ	٢٢	أمين الواعظ	١٢٢٣ـ١٢٧٤هـ
	أبو محمد عبد الله الكردى البيتوشى	١١٦١ـ١٢٢١هـ	٢٣	على الكردى	١٢٢٦ـ١٣١٦هـ
	عبد الغفور البغدادى	١١٦١ـ١٢٥١هـ	٢٤	المنلا عثمان الجبورى	١٢٢٧ـ١٣٠٤هـ
	على السويدى	١١٦٣ـ١٢٣٧هـ	٢٥	داود الكرخى	١٢٣١ـ١٢٩٩هـ
	مكى إسماعيل ولى	١١٦٨ـ١٢٢٨هـ	٢٦	حسين البغردرى	١٢٣٢ـ١٣٢٢هـ
	نامى الأربيلى	١١٧١ـ١٢٤١هـ	٢٧	عبد الفتاح البغدادى	١٢٣٣ـ١٢٩٩هـ
	سليمان الموصلى	١١٧١ـ١٢٣٣هـ	٢٨	عبد السلام أفندى	١٢٣٤ـ١٣١٨هـ
	عناية الله أغا القبولى	١١٧٤ـ١٢٣٠هـ	٢٩	إسماعيل الموصلى	١٢٣٦ـ١٣٠٢هـ
	المنلا عبد الرحمن بن أبى بكر	١١٧٨ـ١٢٤٢هـ	٣٠	محمد فيضى المفتى	١٢٣٧ـ١٣٠٧هـ
	عبد العزيز الشواف	١١٧٨ـ١٢٤٩هـ	٣١	حيدر سليمان الحلى	١٢٤٦ـ١٣٠٤هـ
	محمد جواد السباهبوش	١١٧٩ـ١٢٤٥هـ	٣٢	أحمد المشاهدى	١٢٦٢ـ١٣٣٦هـ
	صالح التميمى	١١٨٠ـ١٢٦١هـ	٣٣	عباس الكرخى	١٢٦٧ـ١٣٣٥هـ
	على السويدى البغدادى	١١٨٤ـ١٢٤٥هـ	٣٤	عبد الرازق الأعظمى	١٢٨١ـ١٣٢٨هـ

نعمان الآلوسي

١٢٥٢ — ١٣١٧ هـ

وقفنا على ترجمة له بخط السيد محمود شكري الآلوسي مؤرخة ٢٢ رجب سنة ١٣٣٩ ، قال رحمه الله :

هو السيد نعمان بن محمود بن عبد الله بن محمود الآلوسي البغدادي ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي آل أبي طالب رضي الله عنهما . ولد يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من المحرم سنة اثنتين وخمسين ومائتين وألف للهجرة النبوية . وقد أرخ ولادته يومئذ شاعر عصره عبد الحميد الأطرقجي فقال :

بدا الكوكب الدريّ والقمر الذي
محاسنه للشمس أضحت تسامت
فلا عجب إن فاح كالمسك عرفه
فها هو من بيت النبوة نابت
له ثبت الحق الصريح من العلى
وتاريخه : حق لنعمان ثابت
١٢٥٢

وقد اشتهر بأنه السيد خير الدين نعمان أبو البركات ابن السيد محمود عبد الله الآلوسي كما تقدم . ولم ينبت منه العذار إلا وجمع من الفضائل ما يسمه

أسفار ، ولم يبلغ سن العشرين إلا وصار من الأساتذة المعتبرين . أخذ العلم عن والده المبرور وعن أجلة تلامذته ممن كان بالفضل مشهورا ، وقد أجازه العلماء الأعلام والمشايخ العظام بجميع العلوم من منطوق ومفهوم ، وجمع من الأسانيد والأثبات مالم يجتمع عند غيره من ذوى الفضائل والكمالات . وقد اقتحم مشاق الأسفار لذاك ، وطوى شقق البعاد لما هناك ، له المحبة التامة بالعلم وذويه ، والشغف الوافر بالفضل وحامليه ، لاسيما ما كان عليه السلف الصالح من الطريق المستقيم الواضح . فقد طوى قلبه على محبتهم ، وسلوك نهجهم وطريقتهم . فأحيا ذكرهم بعد اندراسه ، وأوقد مصباح هديهم بعد انطفاء نبراسه . سيف الله المسلول على أهل البدع والأهواء ، والبلاء المبرم على من خالف الشريعة الغراء . ولايحتج فى الغالب لتأويل ، ولايميل إلى زخرف الأقاويل . فهو سلفى العقيدة ، آمر بالمعروف ناه عن المنكر ، صادع بالحق . فلذا كثر مما ندوه ، وخصماؤه وحاسدوه ، فإن الحق صعب على المغلوب ، وترك مألوف العوائد تأباه القلوب ، وكان فى الوعظ لا يشق له غبار ، ولايدرك فى مضمار . فهو كالسيل المنحدر ، والغيث المنهمر . فهو كما قال القائل :

إذا ما رقى للوعظ ذروة منبر
لخطبته فالكل مصغ ومنصت
فصيح عن الشرع الإلهى ناطق
وعن كل مذموم من القول صامت

تولى أيام شبابه بعض المناصب العلية ، فكان فيها محمود السيرة ، حتى ترك

جميع ألسنة الناس تلهج بالثناء عليه ، ثم ترك ذلك وسافر إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر رسوله عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام . ثم عاد إلى وطنه واشتغل بالتدريس والتأليف . ثم سافر إلى دار الخلافة عن طريق الشام ، واجتمع بغالب هاتيك الديار الأعلام، فاستجاز وأجاز ، ومرّ أيضاً على مصر لأجل طبع تفسير والده ، واجتمع هناك أيضاً بأفاضلها ومشاهير علمائها ومنهم السيد عبد الهادى الابيارى عليه الرحمة . فلما وصل الى القسطنطينية التى بها أعصا التسيار ، فعومل هناك احسن معامله ، واحلوه من الاحترام محله . وبعد ان نال مقاصده عاد الى وطنه قرير العين ، بعد ان اقام فى تلك الديار نحو سنتين . وعند ذلك مدحه الشعراء ، وأثنى عليه الأدباء . ثم انتصب للتدريس فى المدرسة المرجانية ، ونشر الفضائل والسنن النبوية . وكان قد جمع ما جمع من الكتب النادرة ، فأوقفها على تلك المدرسة ، فهى إلى اليوم محفوظة فيها ، لم يزل المستشرقون يزورونها ويستكتبون منها ما ندر وجوده فى غيرها . كانت هذه المدرسة مهجورة نعبت البوم فى أكنافها ، حتى أعادها كما كانت أيام منشيها .

ألف كتباً عديدة ، وتصانيف مفيدة ، منها حاشية على شرح القطر لمصنفه أكمل بها حاشية والده ، وقد اشتملت على تحقيقات . ومنها كتاب الشقائق واسمه شقائق النعمان على شقاشق ابن سليمان ، وابن سليمان هذا كان من متصوفة بغداد اسمه داود أصله من عانات . كان داعية للبدع ، ألف رسالة دعا بها العوام إلى الغلو فى أهل القبور . وقد قرظ الشقائق شاعر عصره عبدالباقى أفندى العمرى بأبيات منها :

شقاشق ابن سليمان أضحت لها . . إلى آخر الأبيات .

ومنها الآيات البينات نصر فيها ما قاله السادة الحنفية فى باب الإيمان من عدم سماع الأموات . ولما نشرها قام لها القبوريون وقعدوا . ومنها جلاء العينين ، فى المحاكمة بين الأحمدين ، وهو كتاب مشهور نصر فيه الشيخ ابن تيمية ورد فيه ما تقوله عليه ابن حجر الهيتمى المكى الشافعى . ومنها كتاب غالية المواعظ وقد لخصه من كتب ابن الجوزى وغيره ورتبه ترتيباً حسناً سهل فيه مسالك الوعظ ، فهو اليوم عليه اعتماد أغلب الواعظين فى الديار العراقية وغيرها . ومنها الأجوبة النعمانية عن الأسئلة الهندية . وله كتاب مختصر مشتمل على كلام لاتختلف قراءته صدراً وعجزاً ، وكذا الكلمات ، كلفظ «سلس» . وقد شرح كفاية المتحفظ للأجوابى ولم يتمه . وله غير ذلك . وله نثر لطيف وشعر رقيق قد جمع فى مجموع مفرد .

ومن أجل مصنفاته الجواب الفسيح لما لفقه عبد المسيح ، وهو الكندى الذى ألف رسالة وطعن فيها على الديانة الإسلامية . والرد بمجلدين طبع فى الهند . وقد قرظه جمع من العلماء نظماً ونثراً ، منه قول على بن سليمان أحد أفاضل علماء نجد من قصيدة طويلة :

هو البدر إلا أنه غير آفل
هو العلم الفرد الذى فاز بالشكر
تآليفه أمست جلاء عيوننا
وسارت بها الركبان فى البر والبحر

ولاسيما الرد الفسيح فإنه
كتاب حوى علما يجل عن الحصر
وبان به شرع الإله ودينه
وأصبح مقطوعاً به دابر الكفر

والقصيدة طويلة . وكان حلو المفاكهة ، سريع المحاضرة ، محبوب العشرة ، كثير اللطائف والنكات ، حسن الخط ، وافر العقل . وكان مربوع القامة ، أبيض اللون ، يميل إلى الصفرة ، صبوراً على عناء المداراة . وترك أربعة بنين لم يزالوا مشتغلين بالعلم[١] . ثم إنه تمرض عدة أشهر . ثم انتقل إلى رحمة الله ، وحضر جنازته جمع لايحصون عدداً . رحمة الله عليه .

(١) لم يبق منهم اليوم أحد ، فسبحان الدائم .

محمود شكرى الالوسى

١٢٧٢ — ١٣٤٢ هـ

وقفت له على ترجمة كتبها بخطه، قال رحمه الله :

إنى محمود شكرى، المكنى بأبى المعالى، ابن السيد عبد الله بهاء الدين، ابن أبى الثناء السيد محمود شهاب الدين الآلوسى، وينتهى نسبي إلى الحسين ابن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهما، ولله الحمد على ذلك. وقد ولدت صباح يوم السبت تاسع عشر رمضان سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف.

ثم لما بلغت من العمر ثمانى سنين ختمت الكتاب الكريم، وشرعت فى قراءة بعض الرسائل، وقرأت طرفاً من العربية على والدى، ثم أنخت مطايا التحصيل على الفاضل الكامل، والشيخ الواصل، علامة عصره وفهامة دهره الشيخ إسماعيل الموصلى رحمه الله. وكان فى قوة الحفظ والذكاء وحسن الأخلاق على جانب عظيم، كما أنه كان فى الزهد والورع « جنيد » زمانه، فلم تمض إلا أعوام يسيرة حتى شملتنى بركته، فوصلت الليل بالنهار فى التحصيل، وفارقت أخدانى وأقرانى، وانزويت عن كل أحد. فأكملت قسماً عظيماً من الكتب المهمة فى المنقول والمعقول، والفروع والأصول. وحفظت غالب متون ما قرأته من الكتب المفصلة والمختصرة، وأدركت مالم يدركه غيرى، ولله الحمد.

سهرى لتنقيح العلوم ألذّ لى ... من وصل غانية وطيب عناق
وتمايلى طرباً لحل عويصة ... فى الدرس أبلغُ من مدامة ساق
وصرير أقلامى على أوراقها ... أشهى من «الدوكاه» و«العشاق»
وألذّ من نقر الفتاة لدفها ... نقرى لألقى الرمل عن أوراقى

ثم إنى توغلت فى اتباع سيرة السلف الصالح ، وكرهت ماشاهدته من البدع والأهواء ، ونفر قلبي منها كل النفور ، حتى إنى منذ صغرى كنت أنكر على من يغالى فى أهل القبور ، وينذر لهم النذور . ثم إنى ألفت عدة رسائل فى إبطال هذه الخرافات ، فعادانى كثير من أبناء الوطن ، وشرعوا يغيرون على ولاة البلد ، ويحرضونهم على كتابة مايستوجب غضب السلطان علىّ . وفعلوا ذلك مراراً حتى ألجأوا بعض الولاة أن يكتب للسلطان بأن الأمر خطر إن لم يتداركه ، وأن العراق تخرج من اليد ، بسبب تغير عقائد الأعراب إلى ما يخالف ما عليه الجمهور من العوام . ولم يزل يلح حتى ورد الأمر بإبعادى إلى جهة ديار بكر .

فلما وصلت إلى الموصل قام رجالها على ساق ، ومنعونى أن أتجاوز بلدتهم . وكتبوا كتابات شديدة اللهجة إلى السلطان ، فجاء الأمر بعد أيام بعودى إلى بغداد مع مزيد الاحترام والإكرام ، وسقط فى أيدى الأعداء . ولايحيق المكر السيء إلا بأهله .

وقد وفق الله تعالى لتأليف عدة كتب ورسائل ، تتجاوز خمسين مؤلفاً ، ما بين مختصر ومطول . ومنها ما قد طبع ونشر . ومنها مالم يزل فى زوايا

الحول والنسيان . وقد نظم فى مدائحى شعراء العصر على اختلاف بلادهم وتباين أقطارهم مما قد دون فى كتاب مفصل ، مع مالهم من المنثور أيضاً . من ذلك ما قاله(١) أديب بغداد أخى فى الله أحمد بن عبد الحميد الشاوى الحميرى مفتى البصرة ، رحمه الله تعالى ، فى ١٦ جمادى الأولى سنة ١٣١١ هـ :

معاتبتى لو أعتب الدهر للدهر
بما قد جرى لاتنقضى آخر العمر

وحربى مع الأيام لاصلح بعده
ولاهدنة حتى أوسَّدَ فى القبر

وكيف وقد روّعننى بفراق من
علىّ فراقيه أمرُّ من الصبر

أخٌ ماجدٌ ما دنّس اللؤمُ عرضه
ولا خاط كشحيه على الغدر والمكرِ

ولا قُلّبٌ ، قلبُ المودة ـ إن يغب
له صاحب ـ يدميه بالناب والظفرِ

ولكنه يعطى المودةَ حقها
ويجمع للخلّ الوفاء مع النصرِ

ولا هو ممن همه لبسُ فروةٍ
يباهى بها أقرانه من بنى المصرِ

(١) لهذه القصيدة عدة تخاميس وتشاطير من أدباء العصر .

وينفض تيهاً مذرويه مفاخراً
ويرفع من فرط التكبر بالصدر
ويرفل فى أثوابه متبختراً
وينظر كيما يرهب الناس عن شزر
لعمرى لقد جربت أبناء دهرنا
برمتهم فى حالة الخير والشرّ
وقلبتهم ظهراً لبطنٍ بأسرهم
مراراً لدى الحاجات فى اليسر والعسرِ
فما سمعت أذناى ما سرّ منهمُ
ولا أبصرتْ عيناى وجه فتى حُرِ
وما إن رأى إنسانُ عينى واحداً
كما شئت إنسانا يُعدُّ سوى شكرى
ولو لم يكن فى حاضر العصر مثله
لقلنا على الدنيا العفاء بذا العصرِ
فقل لغبيّ قاسه بسوائه
ولم يعرف التبر المصفى من الصُّفرِ
عداك الحجى أين الثريا من الثرى ؟
وأين حصى الحصباء من درر البحرِ
وحيث إنى قد بلغت من العمر اليوم ما بلغت ، تذكرت قول بعضهم :

أعينى لِمْ لاتبكيانِ على عمرى ؟
تناثر عمرىِ من يدىّ ولا أدرى
إذا كنت قد جاوزت ستين حجةً
ولم أتأهبْ للمعاد ، فما عُذرى ؟

فتوفرت على درس أُلقيه ، وكتابٍ أنظر فيه ، وفرض أؤديه ، وتفريط فى جنب الله أسعى فى تلافيه ، لايشغلنى عن ذلك شاغل ، ولايكفكفنى عن مثابرتى فى نشر الفضائل ، لعل الله سبحانه وتعالى يدخلنى دار رحمته ، ويسكننى مع من سبقت له الحسنى فى جنته ، فإن الرحيل قريب ، وكأنى للنداء مجيب . وما أحسن قول الإمام على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه :

وإن امرأ قد سار خمسين حجة
إلى منهلٍ ، من وِرْدِهِ لقريبُ

وهذا ملخص حالى ، وما جرى علىّ من حوادث الليالى ، ونسأل الله حسن العواقب .

* * *

ولما علم فقيدنا العلامة أحمد تيمور باشا من إحدى رسائل العلامة الأب أنستاس الكرملى خبر نعيه ، كتب إليه يقول : « قضى الله ، ولا راد لقضائه ، أن يفجع العلم بإمامه ونبراسه ، وأن يحرم المستفيدون من سندهم فى حل معضلاته . ويعلم الله ما كان لهذه المصيبة من الوقع فى نفسى . ولكن ما الحيلة ، وقد نفذ القضاء وطوى الكتاب . وإنا لله وإنا إليه راجعون » .

وقد رثاه شاعر العراق الكبير السيد معروف الرصافى بقصيدة عصماء ، جعل عنوانها « واشيخاه » وفيها يقول :

أزمعت عنا إلى مولاك ترحالاً
لما رأيت مناخَ القوم أوحالا

رأيتنا فى ظلام ليس يعقبهُ
صبح فشمرت للترحال أذيالَا

كرهتَ طول مقام بين أظهُرِنا
بحيثُ تُبصرنا للحقّ خُذّالاَ

ولم ترق نفسك الدنيا ونحن بها
لسنا نؤكد بالأقوال أفعالاَ

وكيف تحلو لذى علم إقامته
فى معشر صحبوا الأيام جُهّالاَ

لذاك كنتَ اعتزلتَ القومَ منفرداً
حتى أقاربك الأدنين والآلاَ

وما ركنت إلى الدنيا وزخرفها
ولا أردت بها جاهاً ولا مالاَ

لكن سلكتَ طريقَ العلم مجتهداً
تهدى به من جميع الناس ضلالاَ

(محمود شكرى) فقدنا منك حَبْرَ هدى
للمشكلات بحسن الرأى حلالاَ

قد كنت للعلم فى أوطاننا جبلاً
إذا تقسم فيها كان أجبالا
وبحر علم إذا جلشت غواربه
نغصت بالحزن شهر العيد شوالا
أعظم برزئك فى الأيام من حدث
هزت على به الأيام عسّالاَ
أمست لروعته الأبصارُ شاخصة
أما القلوب فقد أجفلن إجفالا
طاشت حصاةُ العُلا لما نعيت لها
وكل ميزان حلم بالأسى شالاَ
إذا نَعِيُك وافى مصر منتشراً
جثا أبو الهول يشكو منه أهوالا
وإن أتى البيت ، بيت الله ، رج به
وأوجس الركنُ من منعاك زلزالا
أما العراقُ فأمسى الرافدان به
سطرين للدمع فى خديه قد سالا
بكى الورى منك حبراً لامثيل له
أقواله ضربت فى العلم أمثالا
بكوك حتى قد احمرت مدامعهم
كأنهم نضحوا فيهن جريالا

ولو لفظنا لك الأرواح من كمد
لم نقض من حقك المفروض مثقالا

ولا نخصص فى رزءٍ بتعزيةٍ
إلا علوماً أضاعت منك مفضالاَ

فإن رزءك عم الناس قاطبة
يا أكرم الناس أعماماً وأخوالا

شكراً لأقلامك اللاتى كشفت بها
عن أوجه العلم أستاراً وأسدالا

كتبن فى العلم أسفاراً سيدرسها
أهل البسيطة أجيالاً فأجيالاَ

أمددتها بمدادٍ ليس يبلغه
دمعُ الأنام وإن يبكوك أحوالا

وكنت أنت نطاسىّ العلوم بها
وكنّ فى سبرِ جرح الجهل أميالا

يا مُطلعاً فى سماء الفكر أنجمه
تهدى إلى العلم رُحالاً وقُفالاَ

لو أننى بلغت زُهر النجوم يدى
نحتها لك بعد الموت تمثالا

ماضرنا بعد ما خلدت من كُتُبٍ
ألا نرى لك بين الناس أنجالا

إذا ذكرناكَ يوماً في محافلنا
قمنا لذكراك تعظيماً وإجلالا
إني أخفّ لدى ذكراك مضطرباً
وإن حملتُ من الأحزان أثقالا
لأشكرنك يا (شكرى) مدى عمرى
وأبكينك أبكاراً وآصالا
فأنت أنت الذى لقنتنى حكماً
بها اكتسيت من الآداب سربالا
أوجرتنى من فنون العلم أدوية
شفت من الجهل داء كان قتالا
فصح عقلى وقبلاً كنت مشتكياً
من علة الجهل أوجاعاً وأوجالا
أنا المقصر عن نعماك أشكرها
ولو ملأت عليك الدهر إعوالا
فاغفر عليك سلام الله ماطلعت
شمسٌ، وما ضاء بدرُ الليل أو لالا(١)

(١) أى تلألأ .

أعيان فى بغـــداد

وقفنا على هذه التراجم لبعض السادة العلماء والأدباء ببغداد بخط صديقنا الأديب الأستاذ على أفندى ظريف ، وهو معروف بعروبته وصدق لهجته ونبوغه فى العلم والأدب ، وفيما يلى بيان هذه التراجم:

نَائِبْ بكْتَاش

١١٠٧ — ١١٨٧ هـ

كان السيد الشيخ نائب بكتاش أفندى ابن عمر أفندى البغدادى المعروف باسم بارودجى زاده — عالماً فاضلاً فقيهاً فرضيا .

وكان يلقب بملتقى الأبحر — لسعة علمه وغزارة اطلاعه — مشهوراً بالذكاء والتقوى والورع ، وقد عمر طويلاً إذ عاش نحو ثمانين سنة ، وتوفى إلى رحمة الله فى سنة ١١٨٧ هـ .

الحَاجّ عُمَر البُغدَادِى (بَاقِرْزادَه)

١١٦٧ — ١٢٢٩ هـ

كان الحاج عمر أفندى البغدادى المعروف : بباقرزاده — عالماً فاضلاً مشهوراً بالخير والكرم والصلاح . وأصله دركزنلى ، ونبغ فى الفارسية ، وعمر ٦٢ سنة ، وتوفى لرحمة مولاه سنة ١٢٢٩ هـ — بعد أن انتفع بعلمه وإرشاده جمع كثير من الدارسين .

المنلا مختار فتحي

١١٦٠ — ١٢٢٦ هـ

كان المنلا مختار أفندي ابن فتحي أفندي البغدادي — عالماً جليلا وفقيها فاضلا مولعاً بالعلوم الرياضية ، وتعين في آخر أيامه خطيباً في جامع شهرابان ، وهي بليدة شرقي بغداد تبعد عنها بمرحلتين ، وأصل اسمها «شهراباذ» ، وتوفي بعد ست وستين سنة قضاها في الفقه والدرس والتحصيل . وتوفي لرحمة الله سنة ١٢٢٦ هـ ، رحمه الله .

أبو محمد عبد الله الكردي البيتوشي

١١٦١ — ١٢٢١ هـ

هو : أبو محمد عبد الله بن محمد الكردي البيتوشي ، ولد سنة ١١٦١ هـ ، ونشأ في بيتوش ، ثم هاجر إلى بغداد ، وأخذ العلم عن علمائها حتى فاق أقرانه ، وله عدة تآليف منها : « شرح الفاكهي » على قطر ابن هشام و « منظومة كفاية المعاني » وشرحها بشرحين مختصر ومطول . وله شعر رائق ، ومن شعره قبل وفاته :

إني أحن إلى العراق ولم أكن
لا من رصافته ولا من كرخه
لكن في بغداد لي من قربة
أشهى إليّ من الشباب وشرخه

وتوفي في بلدة الأحساء سنة ١٢٢١ هـ رحمه الله .

عبد الغفور البغدادى

١١٦١ — ١٢٥١ هـ

كان السيد عبد الغفور البغدادى من علماء الشافعية الأجلاء . وقد أخذ العلم عن الشيخ يحى المروزى العمادى ، وعن الشيخ خالد النقشبندى . وكان عالماً فاضلا مشهوراً بالتقوى والزهد والورع ، نقشبندى الطريقة ، وهو ينتمى نسبه إلى سيدنا الحسين رضى الله عنه . وبلغ عمره نحو التسعين . وتوفى ببغداد سنة ١٢٥١ هـ ، رحمه الله .

على السويدى البغدادى

١١٦٣ — ١٢٣٧ هـ

هو الشيخ على أفندى السويدى ، ابن محمد سعيد أفندى ، ابن عبد الله أفندى المعروف بالسويدى ، وكان عالماً فاضلا نحريراً ، فصيحاً بليغاً تقياً ، وله اليد الطولى فى علم الحديث ، وله عدة تآليف ، منها : « العقد الثمين » ، و « رسالة فى الخضاب » ، وله كذلك شعر رائق ، قال من قصيدة طويلة :

وأحسن رأى المرء ما كان حازماً
بفصل خطاب يصطفيه المهند

ولا فضل إلا فى ذرى السيف والقنا
ولا حكم إلا حكمه المتأيد

وتوفى بالشام سنة ١٢٣٧ هـ ، ودفن بجبل قاسيون ، عليه رحمة الله .

مكي إسماعيل ولي

١١٦٨ — ١٢٢٨ هـ

كان مكي إسماعيل أفندي ابن ولي أفندي البغدادي عالماً فاضلا ، أخذ العلم بالتلقي عن أحمد أفندي الطبقجلي ، وعن غيره من علماء بغداد المشهورين في زمانه ، وعينه الوالي عمر باشا كاتباً لديوانه . وكانت ولادته سنة ١١٦٨ هـ ، إذ عاش ستين سنة ، وتوفي إلى رحمة الله تعالى سنة ١٢٢٨ هـ .

نامي الأربيلي

١١٧١ — ١٢٤١ هـ

ولد في أربيل ، ونشأ بها ، وبلغ من العلم والفقه ما أهله لتولي قضائها ، ثم هاجر بغداد في أيام الوالي داود باشا ـ بعد أن استقال من قضاء أربيل . فعينه معيداً لدرس البخاري عنده ، ثم عينه ـ بعد مدة ـ قاضياً في البصرة ، واستقال من منصبه بعد سنة ، ورجع إلى بغداد ، وتوفي بها سنة ١٢٤١ هـ ، حيث كان من العلماء المشهورين ، وعاش ٧٠ سنة ، رحمة الله عليه .

سليمان الموصلى

١١٧١ — ١٢٣٣ هـ

كان سليمان بك الموصلى الأصل المعروف بفخرى زاده ـ عالماً فاضلا جليل القدر بارعاً فى اللغة العربية ، ذا إلمام كامل بالفارسية ، ماهراً فى علم المنطق والفلسفة ، قضى حياته مجداً فى دراسات العلوم وتدريسها ليعم نفعها ويؤتى ثمرها ، إلى أن توفى ببغداد سنة ١٢٣٣ هـ رحمه الله ، وعاش نحو اثنتين وستين سنة .

عناية الله أغا القبولى

١١٧٤ — ١٢٣٠ هـ

هو : عناية الله أغا ابن أحمد أفندى القبولى البغدادى ـ وكان عالماً فاضلا بارعاً فى علم الموسيقى ، وكان مولعاً باقتناء الكتب ، مشهوراً بالذكاء ، عاش ٥٦ سنة وتوفى سنة ١٢٣٠ هـ ببغداد ، وله حاشية على « عبد الله اليزدى » ووجد بعد موته فى مكتبته ١٤٦٣ كتابا ، كلها من نفائس المخطوطات فى علوم مختلفة ، رحمة الله عليه .

المنلا عبد الرحمن بن أبى بكر

١١٧٨ — ١٢٤٢ هـ

كان المنلا عبد الرحمن بن أبى بكر البغدادى عالماً فاضلا ، اشتهر بالتبحر فى الفقه الشافعى ، وكان تمسكه بالمذهب الشافعى سببا فى تقلده التدريس بمسجد الشواف فى الكرخ ، وقد توفى إلى رحمة الله سنة ١٢٤٢ هـ ، وقيل إنه من مواليد سنة ١١٧٨ هـ .

عبد العزيز الشواف

١١٧٨ — ١٢٤٩ هـ

كان عبد العزيز أفندى الشواف عالماً فاضلا ، وكان يدعى : « سيبويه الثانى » . أخذ العلم عن أبيه العلامة محمد أفندى الشواف . وأخذ عنه عدة من علماء بغداد ، وهو من بيت علم وجاه . وتوفى سنة ١٢٤٩ هـ فى الطاعون الجارف ببغداد ، رحم الله ضحايا الطاعون ، ووقى المسلمين أجمعين .

مُحَمّد جَوّاد السّبَاهبُوش

١١٧٩ — ١٢٤٥ هـ

هو : السيد محمد جواد البغدادي المعروف بالسباهبوش ، كان شيعي المذهب ، طويل الباع في الشعر والنثر ، واتهم بالزندقة ، وبلغ داود باشا والي العراق أنه يحاول اختصار القرآن الكريم ، فأحضره وسأله في ذلك ، فأنكر وقال له : إن لي أسوة بجدي ، فقد رموه قبلي بأكبر مما رموني به .

ولما لم تثبت التهمة أطلقه الوالي . وتوفي إلى رحمة الله سنة ١٢٤٥ هـ .

ومن شعره من قصيدة طويلة يرثي بها الشيخ خالد النقشبندي :

خدين الهوى خفّ الخليط المعاهد

وأطلال أحباب هَوِيت هوامد

وله قصيدة طويلة هجا بها بيوت التجار ببغداد في أيام داود باشا ، وهي مشهورة ، ومطلعها :

لاتبتغي غير فضل الله في الطلب

ومن يؤمل عطاء الله لم يخب

ولا تبدل نعيماً دائماً أبداً

بلذة قُرِنت بالبؤس والتعب

صالح التميمي

١١٨٠ — ١٢٦١ هـ

هو : الشيخ صالح التميمي ، ابن الشيخ درويش ، ابن الشيخ على زيني التميمي البغدادي . ولد سنة ١١٨٠ هـ ببغداد . وتوفى بها سنة ١٢٦١ هـ وعمره ٨١ سنة . وكان من كتاب العربية الأوائل فى أيام داود باشا والى العراق ، وهو من شعراء بغداد المشهورين ، ومن شعره من قصيدة فى مدح داود باشا :

بطلعتك الزوراء أشرق نورها
فأعيادنا أيامها وشهورها

بعدلك والحلم استضاءت شموسها
وبأسك والحزم استنارت بدورها

لعمرك مازاغت عن الرشد أمة
إذا كان عن داود يتلى زبورها

على السويدي

١١٨٤ — ١٢٤٥ هـ

هو : العلامة على أفندى السويدى البغدادى العباسى ، من أكابر علماء العراق ، ومن أشرف البيوتات فى بغداد علماً وفضلاً وأدباً وفقهاً وتشريعاً . وقيل إنه من مواليد سنة ١١٨٤ هـ ، وتوفى لرحمة الله سنة ١٢٤٥ هـ .

خالد النقشبندى

١١٩٠ — ١٢٤٢ هـ

هو الشيخ خالد بن أحمد بن حسين النقشبندى ، ولد سنة ١١٩٠ هـ ، فى قصبة « قره طاغ » من بلاد شهر زور . والمشهور أنه من ذرية عثمان بن عفان رضى الله عنه . هاجر إلى بغداد فى صباه ، وأخذ العلم عن علمائها ، ومنهم السيد صبغة الله الحيدى ، والسيد عبد الرحيم البرزنجى ، والشيخ محمد بن آدم الكردى ، وأخذ عنه جماعة من العلماء .

وله عدة تآليف قيمة منها : « شرح مقامات الحريرى » ، و « شرح العقائد العضدية » ، و « رسالة فى إثبات مسألة الإرادة الجزئية » . وله ديوان شعر بالفارسية . وكان شافعى المذهب ، نقشبندى الطريقة ، عالماً زاهداً أديباً ، بارعاً فى العلوم العقلية والنقلية . وأخذ الإجازة الحديثية المتسلسلة من الشيخ الكزبرى .

ولما علا صيته ، واشتهر علمه ، رحل إلى السليمانية لبث العلوم ، ثم عاد إلى بغداد ، وأقام بها مدة طويلة ، ثم سافر منها إلى الشام فى أيام داود باشا والى العراق ، وتوفى إلى رحمة الله فى دمشق سنة ١٢٤٢ هـ غير متجاوز الاثنين والخمسين عاماً هجريا .

عبد الجليل البصرى

١١٩٠ — ١٢٥٣ هـ

هو : السيد عبد الجليل البصرى ، ابن السيد ياسين الطباطبائى . كان عالماً فاضلا أديباً ، كاتباً شاعراً ، أخذ العلوم عن علماء البصره ، وكان مشهوراً بالتقوى والصلاح . كريم الخلق ، على جانب عظيم من الحلم والتواضع والزهد والورع .

وكانت ولادته سنة ١١٩٠ هـ ، وتوفى إلى رحمة الله سنة ١٢٥٣ هـ .

أحمد السويدى

١٢١٨ — ١٢٨٧ هـ

هو : الشيخ أحمد أفندى السويدى — كان عالماً فاضلا ، اشتهر بكثرة التحصيل وسعة الاطلاع فى علوم الفقه والتشريع ، وبرع فى تفسير القرآن الكريم. وتولى القضاء مراراً فى بلاد العراق ، وقد عمر تسعا وستين سنة . وتوفى إلى رحمة الله تعالى سنة ١٢٨٧ هـ .

عَبْدُ الغَفّارِ الأَخْرَس

١٢٢١ — ١٢٩٠ هـ

هو : السيد عبد الغفار الأخرس ، ابن السيد عبد الواحد ابن السيد وهب . ولد فى الموصل سنة ١٢٢١ هـ ونشأ فى بغداد . وهو سلفى العقيدة ، علوى النسب ، وكان يتجول فى البلاد العراقية ، وفى أيام صباه أرسله داود باشا والى العراق إلى الهند ليصلح لسانه من الخرس ، فرجع دون فائدة . وكان من الشعراء المشهورين ، وتوفى سنة ١٢٩٠ هـ رحمة الله عليه . وقد جمع له ديواناً من الشعر بعد وفاته أحمد عزت باشا العمرى ، وهذا الديوان مشهور بديوان الأخرس .

ومن شعره من قصيدة طويلة :

ظعن الركب ضحوة وأرانى
لم يطب لى بعد الحبيب المقام

فاترك الهزل يوم جد بجد
إن هزل المقام بالشهم ذام

أمين الواعظ

١٢٢٣ — ١٢٧٤ هـ

هو : السيد أمين أفندى الواعظ ابن السيد محمد أفندى الشهير بواعظ القادرية . كان عالماً نحريراً ، وفاضلاً أديباً ، وهو من بيت علم ومجد ببغداد . وكان لاشتهاره بالتبحر فى علوم الشريعة وفقه الحنفية يدعى : أبا يوسف الثانى . وقد ولد سنة ١٢٢٣ هـ وتوفى سنة ١٢٧٤ هـ رحمه الله .

على الكردى

١٢٢٦ — ١٣١٦ هـ

هو : على أفندى الكردى ، إذ كان كردى الأصل ، بغدادى المنشأ . أخذ العلم عن عبد السلام أفندى والسيد إسماعيل أفندى الموصلى ، وكان محبوباً عند الخاصة والعامة . محترماً مهيباً أينما توجه أو أقام . وقد تقلد وظيفة التدريس فى مدرسة حسن باشا . وفى أواخر حياته تقلد وظيفة أمين الفتوى . وتوفى سنة ١٣١٦ هـ وعمر نحو التسعين . وكان مشهوراً بالورع والزهد . كما تخرج عليه جماعة من علماء بغداد ، رحمه الله .

المنلا عثمان الجبوري

١٢٢٧ — ١٣٠٤ هـ

المنلا عثمان الجبورى البغدادى — كان عالماً فقيهاً مشهوراً بالصلاح والورع والذكاء، حتى إنه اختير تعيينه خطيباً فى جامع الحلة من بلاد بغداد — فكانت حلقات دروسه غالباً ما يرد إليها جمهور كثير العدد من رواد العلم والتفقه فى الدين . وعمر رحمه الله نحو سبع وسبعين سنة . وتوفى بالحلة سنة ١٣٠٤ هـ .

داود الكرخي

١٢٣١ — ١٢٩٩ هـ

كان الشيخ داود أفندى الكرخى — من بلدة الكرخ — عالماً فاضلاً تقياً ورعاً زاهداً مشهوراً بالصلاح، وهو من كبار الصوفية فى بغداد . نقشبندى الطريقة، حنفى المذهب . وقيل إنه ولد فى سنة ١٢٣١ هـ وتوفى إلى رحمة الله سنة ١٢٩٩ هـ .

حسين البنردرى

١٢٣٢ — ١٣٢٢هـ

كان حسين أفندى البنردرى ابن عبد الله عالماً فاضلا ، اشتهر بالتبحر فى العلوم العربية ، وتقلد التدريس بمدرسة الأعظمية مدة طويلة . وكانت وفاته رحمة الله عليه سنة ١٣٢٢ هـ . وعمره نحو التسعين ، وقد مضى فى تدريس العلوم العربية وإرشاد طلاب المعرفة إلى ما ينفعهم فى دنياهم وأخراهم . ومكث أكثر من ستين عاماً يزاول مهنة التدريس وتثقيف الدارسين عليه ، جزاه الله خيرا .

عبد الفتاح البغدادى

١٢٢٣ — ١٢٩٩ هـ

كان عالماً فاضلاً جليلاً مشهوراً بالفقه ، حتى كان يعرف بأبى يوسف الثانى . وعمل مدرساً بمدرسة القادرية ، وعمر نحو ست وستين عاما ، وتوفى إلى رحمة الله تعالى سنة ١٢٩٩ هـ بعد أن انتفع بدراساته وتهذيبه جم غفير من الطلبة والرواد .

عبد السلام أفندى

١٢٣٤ — ١٣١٨ هـ

هو : من أكابر علماء العراق ، ولد سنة ١٢٣٤ هـ فى أيام داود باشا والى العراق ، وأخذ العلم من العلامة السيد محمود شكرى الآلوسى ، وعن العلامة عيسى النبدنجى . وأخذ عنه جماعة من علماء بغداد ، وكان زاهداً ورعاً ، عمرَ طويلاً . وتوفى سنة ١٣١٨ هـ . وهو من سكان الجانب الغربى من بغداد ، وكان مدرساً فى مدرسة القادرية ، محترماً عند الولاة ، محبوباً عند جميع البغداديين على اختلاف مذاهبهم ، وله نفوذ دينى على أهل السنة ، ولاسيما أهل الجانب الغربى .

ولما مات أغلقت أسواق بغداد ذلك النهار ، وكانت لموته رنة حزن . وهو حنفى المذهب ، وله رسالة « شرح الإظهار » فى النحو ، و « شرح حديث جبريل عليه السلام » .

اسماعيل الموصلي

١٢٣٦ — ١٣٠٢ هـ

كان من أكبر علماء العراق ، أخذ العلم عن علماء الموصل ، مسقط رأسه ، في سنة ١٢٣٦ هـ ، حيث كان مولده ، ثم هاجر إلى بغداد وسكن بها ، ثم نصب مدرساً في مدرسة الصباغين ، وأخذ عنه العلم جماعة من علماء بغداد ، منهم السادة شاكر أفندي الآلوسي ، والسيد أحمد أفندي الخالدي ، وعلي أفندي الكردي . وكان سلفي العقيدة ، ذكياً ، زاهداً ، حسن الأخلاق ، توفي سنة ١٣٠٢ هـ ببغداد .

محمد فيضي المفتي

١٢٣٧ — ١٣٠٧ هـ

هو : الشيخ الجليل محمد فيضي أفندي المفتي المشهور بالزهاوي ، كان عالماً فاضلاً ، هاجر من بلاده الكردية في صباه ، وسكن ببغداد ، وأخذ العلم عن علمائها الأعلام ، حتى فاق أقرانه ، فولته الحكومة إفتاء بغداد ، وبقي في منصبه إلى أن مات إلى رحمة الله بعد أن عمر سبعين سنة . وتوفي سنة ١٣٠٧ هـ وترك عدة أولاد ، أشهرهم الشاعر جميل صدقي أفندي الزهاوي ، ومحمد أفندي مفتي بغداد ورشيد باشا ، رحمهم الله جميعاً .

حيدر سليمان الحلي

١٢٤٦ — ١٣٠٤هـ

هو : السيد حيدر سلمان الحلي ، ولد سنة ١٢٤٦ هـ بالحلة إحدى بلاد بغداد وهو من وجوه أعيان الشعراء المشهورين ، ومن شعره من قصيدة طويلة هذين البيتين :

زارت على رقبة عذالها   فاقتبل العمر بإقبالها
طيبة الأردان ما استبخرت   بالمندل الرطب كأمثالها

أحمد المشاهدى

١٢٦٢ — ١٣٣٦ هـ

هو : السيد أحمد أفندى ابن السيد إبراهيم ابن السيد المشاهدى البغدادى - كانت ولادته سنة ١٢٦٢ هـ ، وقد أخذ العلم عن علماء العراق ومنهم : السيد عبد الله أفندى الآلوسى ، ومنلا اسماعيل أفندى الموصلى ، وحسن بك الشاوى - فكان من أكبر علماء الشافعية ببغداد . وقد اشتهر بالعلم الغزير والزهد والورع . كما أخذ الطريقة النقشبندية عن الشيخ أبى بكر الصلاحيه لى الأربيلى . وفى أواخر أيام حياته تولى رياسة تكية الخالدية ببغداد ، ولما بلغ نحو أربعة وسبعين عاماً توفى لرحمة الله سنة ١٣٣٦ =

عباس الكرخي

١٢٦٧ — ١٣٣٥ هـ

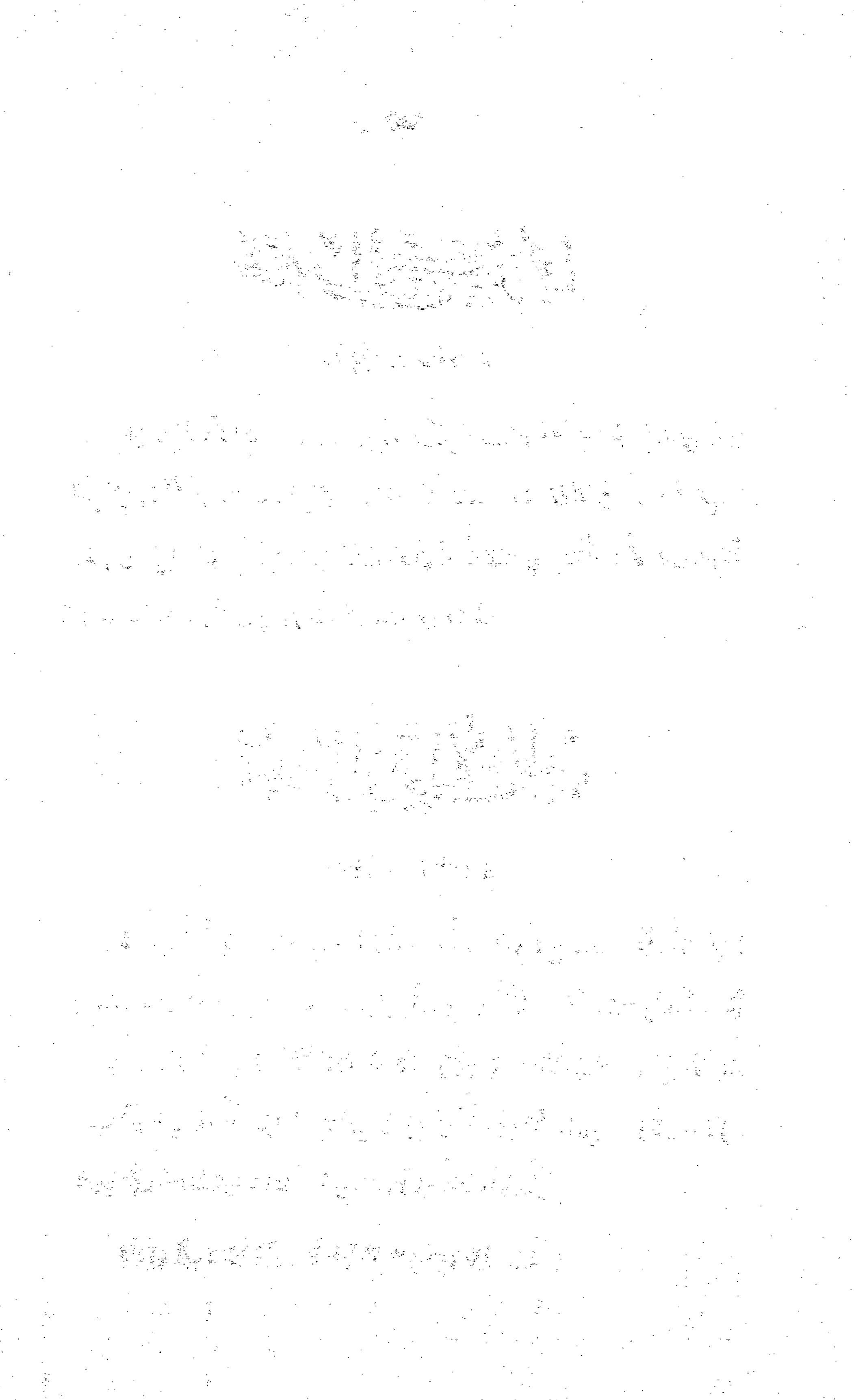
كان من علماء بغداد . ولد بمدينة الكرخ سنة ١٢٦٧ هـ وهي إحدى مدن العراق ، واشتهر بالزهد والورع ، وكان عالماً جليلا وله مؤلفات كثيرة نفيسة تحتوى على المخطوطات والمطبوعات وعين أميناً للفتوى ببغداد ، ثم عين مدرساً بمدرسة سامرا ، وتوفى إلى رحمة الله سنة ١٣٣٥ هـ .

عبد الرازق الأعظمي

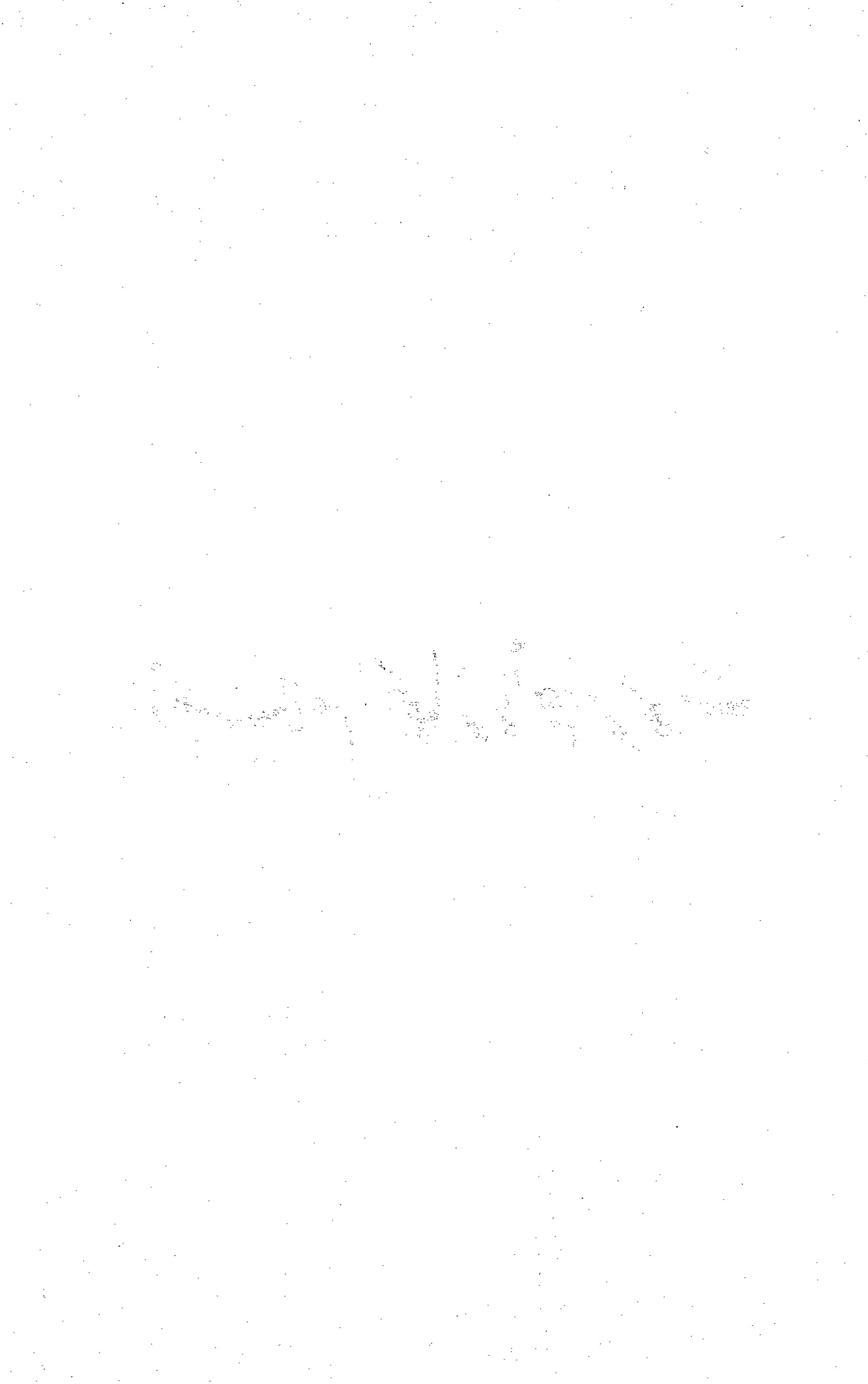
١٢٨١ - ١٣٢٨ هـ

هو من أكبر رجال السلفية ببغداد ، أخذ العلم عن عبد السلام أفندى ، والسيد نعمان الآلوسى ، وعلام رسول الهندى ، وكان عالماً فاضلا زاهداً ورعاً ذكياً ، سلفى العقيدة ، غير مقلد لمجتهد ، وكان يدعى الاجتهاد . ومن تلاميذه السيدان حميدى أفندى الأعظمى ، ونعمان أفندى الأعظمى . وكان له نفوذ دينى على النجديين ، وله أسفار عديدة فى نجد والحجاز .

وتوفى إلى رحمة الله سنة ١٣٢٨ هـ وعمره ٤٧ سنة .



أعلام الحجاز وحضرموت



رقم مسلسل	أسماء الأعـلام	التاريخ	رقم مسلسل	أسماء الأعـلام	التاريخ
١	محمد شهاب الدين المصرى	١٢١٠–١٢٧٤هـ	٤	محمد بن عقيل العلوى	١٢٧٩–١٣٤٩هـ
٢	علوى بن أحمد السقاف	١٢٥٥–١٣٣٥هـ	٥	على حيدر	
٣	عثمان الراضى	١٢٦٠–١٣٣١هـ			

محمد شهاب الدين المصرى

١٢١٠ — ١٢٧٤ هـ

هو الشيخ شهاب الدين الحجازى محمد بن إسماعيل بن عمر المصرى محتداً الشافعى مذهباً ، وهو شريف النسب ، ولد بمكة المكرمة سنة ١٢١٠ هـ وحضر إلى القاهرة صغيراً ونشأ بها واشتغل أولا بالقبانة ، ثم دخل المحكمة الشرعية تلميذاً للتعلم ، ومال للأدب ، حتى نبغ فى نظم الشعر واشتهر به شهرة تامة ، واشتهر أيضاً بمعرفة الفنون الرياضية كالحساب والهندسة والموسيقى . أخذ عن العلامة الشيخ حسن العطار شيخ الإسلام الأسبق . وانفرد بالرياسة فى تحرير الوقائع ، ثم أحيلت إليه رياسة تصحيح الكتب بمطبعة بولاق . ومن ثم داخل الأعيان حتى اتصل بالوالى السابق عباس الأول ، وتقرب إليه ومدحه بالقصائد ، فأحبه وقربه حتى صار كبير جلسائه وندمائه ، وجعل له فى كل قصر من قصوره حجرة يبيت فيها الليلتين والثلاث ، إذا طلبه للمجالسة والمنادمة ، وأفاض عليه من نعمه ، وقبل شفاعته حتى صار له بذلك جاه عريض .

وله معه نوادر غريبة ، فمنها أن المترجم كان جالساً فى حجرته مرة فى أحد القصور ، ومعه بعض جلساء الوالى ينتظرون الإذن بالدخول إليه ، فقال فى عرض كلامه : يقولون إن البغلة لا تحمل ، أفلا يكون ذلك بسبب رطوبات أو ما أشبهها تعوق حملها ؟ وعند الوالى أطباء كثيرون ، فلو أنه أمر بعضهم بالبحث فى سبب هذه العلة وإزالتها ، فلست أشك فى أنها تحمل بعد ذلك .

وأصرع بعض العيون ، فبلغ الوالى كلامه ، فجاءه بعد هنيهة أحد رجال القصر يقولون له : إن الوالى سيأمر الأطباء بما أشار به ، ولكنه يسأل : ماذا يكون إذا لم تحمل البغلة ؟ !

فبهت القوم لنقل المجلس بهذه السرعة ، إلا المترجم ، فإنه قال لرجل القصر : بلغ مولاك أن لى كذبتين كل سنة أيام الباذنجان ، هذه إحداهما .

وكان رحمه الله رقيق المزاج ، أنيس المحضر ، عظيم الرأس ، وسطاً بين الطول والقصر ، لايمل جليسه من نوادره المستظرفة الطريفة الرائعة . وتعلق بعلم الموسيقى فبرع فيه ، وأخذ عنه كثيرون ، وجمع فيه كتاباً سماه « سفينة الملك ونفيسة الفلك » . وهو كتاب جليل فى فن الموسيقى والأغانى العربية حوى نخبة من مختار الشقيق الرقيق وضروبه — طبع حجر سنة ١٢٨١ هـ .

ومن مؤلفاته الكثيرة : ديوان شهاب الدين المصرى . وفيه : القصائد فى كل فنون العروض ومعانى الشعر ، رتبه على ثمانية أقسام .

ومن شعره فى المزج :

لئن تمزج بعشاق فهم فى عشقهم تاهوا
مفاعيلن مفاعيلن وقالوا حسبنا الله

وأرخ تمام كتابه سفينة الملك سنة ١٢٥٩ هـ .

هذى سفينة فن بالمنى سنحت
والفضل فى بحره العجاج أجراها

وإذ جرت بالأمانى فيـــه أرخهـا

سفينة البحر بســم الله مجـراها

وأنشد ما كتب على ستر السيدة آمنة أم المصطفى عليه الصلاة والسلام :

إن هـذا الحمى حمى بنت وهب

وهى (فيه) أمُّ الشفيع الضمين

قـل ولا فخر هــــــذه أرخـوها

أمّ طـه الـكريم خـــــير أمين

وأنشد فى تقريظ كتاب ملتقى الأبحر سنة ١٢٦٣ هـ .

أَنفحُ روض الآس والعبهــر

أهــدى أريج المســك والعنبر

أم عطـر الآفاق طيب الثنـا

من جهبـذ الشهبا الهمام السرى

من ملتقى أبحــر عـرفانـه

أبدى صحاح الدر والجــــوهر

وأبرز الإبريز من كنزه

حتى بدا يحــــكى سنا المشترى

وإذ زها بالطبــــع أرخته

أبهى كتاب ملتقى الأبحــر

ومن قصيدة امتدح بها المرحوم الشيخ محمد أمين المهدى :

إن قلت فى الفتوى سواك أمين
فأنا الذى فيما أقول أمين[1]
يا كوكباً فوق السماك مكانه
وضياؤه فى الخافقين مكين
الجوهر الشفاف فطنتك التى
كالماء سال وما سواه الطين

وكانت وفاته بالقاهرة سنة ١٢٧٤ هـ ودفن خارج باب النصر بحفل حافل من العلماء والأدباء الذين يقدرون علمه وفضله ـ رحمه الله .

---

(١) أمين ، أى : أ كذب .

عِلوى بن أحمد السَّقاف

١٢٥٥ — ١٣٣٥ هـ

هو السيد علوى بن أحمد بن عبد الرحمن السقاف ، نقيب السادة العلويين بمكة المكرمة ، وأحد فقهائها الفضلاء والأعيان. ولد بها سنة ١٢٥٥ هـ ، وولى النقابة سنة ٢٢٩٨ هـ ثم هاجر بأسرته إلى بلدة لحج سنة ١٣١١ هـ ، ملبياً دعوة أميرها الفضل بن على ، فأقام بها إلى سنة ١٣٢٧ هـ ، وعاد إلى مكة المكرمة فتوفى بها فى المحرم سنة ١٣٣٥ هـ ، من كتبه : حاشية فى فقه الشافعية سماها « ترشيح المستفيدين » ومجموعة فيها سبع رسائل . ورسائل فى النحو والفلك والميقات . وله مجموع منظوم فيه ثلاثون علما سماه : « مصطفى العلوم » وكتاب فى « أنساب أهل البيت » .

وله بديعية نبوية رأيت أبياتاً منها ، قال فيها :

الاستدراك : قالوا نرى لك صبرا بعد فرقتهم
فقلت مستدركاً لكنه بفمى

التوشيع : زادوا هيامى بتوشيع الملام لهم
من صولة الجائرين : البين والعدم

المغالطة : غالطتهم حين قالوا : أين منزلهم
ومَن همُ ؟ قلت : أهل البيان والعلم

الغـيرة : إنى أغار عليهم أن أسميهم

وهم بقلبي ، وأشـــكو حـــر بينهم

المناقضة : لهم لدىّ عهود لست أنقضها

إلا إذا شئت أو شاء الهـوى عـدمى

القســم : لابلغتنى المعـالى من تناولهـا

إن لم أكن فى ولائى صادق القسم

رحمه الله رحمة واسعة

عثمان الراضي

١٢٦٠ — ١٣٣١ هـ

هو الشيخ عثمان بن محمد بن أبى بكر بن محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر الراضى المكى شاعر بنى عون ، وأديب الحجاز فى عصره ، رحل إلى قسطنطينية وزار سورية ، وله قصيدة فى مدح بيروت . وأطلعنى ابنه الشيخ أحمد راضى على بضعة آثار له ، منها :

١ — كتاب « الأنوار الحميدية » شرح فيه بديعية للأديب عبد الله فريج فى مدح السلطان عبد الحميد مطلعها :

براعتى فى الهوى دلت على همى

لما استهلت دموع العين كالعنم

ومن هذا المطلع يلوح ضعف القصيدة . أما الشرح فمن أكمل شروح البديعيات ، وهو مجلد ضخم فى ٥٧٢ صفحة جميل الخط ، على هامشه تعليقات يسيرة بخط المؤلف .

٢ — قطعة من كتاب له وضعه تعليقاً على « الرحلة الحجازية » للسيد محمد البتانونى . وقد مات رحمه الله قبل إتمامه ، وفى هذه القطعة فوائد بعضها جدير بالنظر .

٣ — نبذ من ديوانه . وأخبرنى ابنه الشيخ أحمد أنه يقع فى مجلدين .

ومن شعره :

لله معهـــــد أنسنا ما بين فَرْج والغدير
مغــنى تخال قبابه في البهو هالات البدور
يسمو برونقه على حُسنِ الخورنق والسدير
كم فيه من بدر تكحَّلَ بالدلال على الفتور
غوث الطريد المستغيـ ث ، وملجأ العانى الأسير
روح تكوّن رحمة لكنه فى جسم نور
سمحٌ إذا ضن الغما م ، سقى بنائله الغزير

وكان مولده نحو سنة ١٢٦٠ هـ ، وتوفى بمكة المكرمة فى ١٩ من المحرم سنة ١٣٣١ هـ .

كما أخبرنى ابنه أيضاً أن كتاب « تاريخ الدول الإسلامية بالجداول المرضية » المطبوع على الحجر منسوباً للسيد أحمد بن زينى دحلان هو لأبيه صاحب الترجمة ، وأن منه نسخة بخط المؤلف الشيخ عثمان ما زالت عنده .

محمد بن عقيل العلوي

١٢٧٩ — ١٣٤٩ هـ

وقفت له على ترجمة بخطه ، قال رحمه الله :

هذا تعريف بالفقير إلى الله ، محمد بن عقيل بن عبد الله يحيي - طلبه بعض الإخوان منه :

هو محمد بن عقيل بن عبد الله صاحب البقرة ، ابن عمر بن أبي بكر بن طه بن محمد بن شيخ بن أحمد بن يحيي بن حسن الأحمر ، ابن على المناز بن علوى ابن محمد مولى الدويلة ، ابن على بن علوى بن محمد الفقيه المقدم ، ابن على بن محمد صاحب مرباط ، ابن على خالع قسم ، ابن علوى بن محمد بن علوى بن عبد الله ابن المهاجر أحمد ، بن عيسى بن محمد بن على العريضى ، ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب .

وأحمد بن عيسى هو أول من سكن حضر موت من العلويين ، هاجر إليها من البصرة سنة ٣١٧ هـ ، وترجمته وترجمة المذكورين من آباء المعرف به مشهورة ، وكثير من أمهاتهم وأمهاتهن معروفة أنسابهن ، واللاتى تعرف سلسلة اتصالهن بالزهراء منهن نحو سبعمائة ، رحمهم الله تعالى .

ولد محمد بن عقيل — بحضر موت بقرية مسيلة آل شيخ . ونشأ بها . وكانت ولادته ضحى يوم الأربعاء ليوم ... نقيا من شهر شعبان سنة ١٢٧٩ هـ

الموافق ١٨ فيبروارى (فبراير سنه ١٨٦٣ م) . وكان والده السيد عقيل من أشهر أعيان حضر موت نفوذاً وعلماً ، وأكثرهم سعياً فى إصلاحها ، وبنفوذه ونقوده وجده تم ماابتدأفيه والده السيدعبد الله من طرد يافع من قلب حضرموت وتأمير آل كثير عليها ، وكسر الجيوش التى جلبها يافع من الهند واليمن لأخذ الثأر . وقد بدأ إقامة سد مهم لرى قسم كبير من حضر موت ، فمات قبل إتمامه ، وأجرى عيوناً بجوار قرية ساة ، واقتنى كتباً جمة جلها مخطوطة وبعضها من أقدم ما طبع ، ولم تزل محفوظة فى مكتبته الحافلة بشتى العلوم والفنون والآداب .

ووالد السيد عقيل هذا هو السيد عبد الله المشهور فى الحجاز واليمن والهند وجاوة — بصاحب البقرة . وقد ترجم له أكثر من واحد ، وهو أحد الأعلام الجامعين بين العلم والعمل الساعين فى إصلاح البلاد ، وله عدة رسائل وفتاوى معتمدة نافعة ، وجمع مكتبة مخطوطة لم تزل بقيتها أكبر مكتبة معروفة بحضرموت .

ووالدة محمد المذكور هى الزهراء بنت العلامة السيد عبد الله بن الحسين ابن طاهر ، وإليه وإلى أخيه أمير المؤمنين بحضرموت (ولم يدع بهذا اللقب بحضر موت غيره) وإلى ابن شقيقتهما السيد عبد الله صاحب البقرة ينتهى إسناد الحضارمة فى العلوم الشرعية .

وبعد بلوغ محمد هذا ست سنين، جلب له والده من يعلمه القراءة والكتابة فى بيته حفظا له من الاختلاط بالناس ، وفى بضعة أشهر ختم قراءة القرآن الكريم

فى المصحف . ثم حفظ عدداً من مختصرات المتون فى العربية وغيرها ، مع أكثر من ربع كتاب الإرشاد فى الفقه ، والملحة ، ونظم القواعد الفقهية ، وبعض دواوين الشعر وأكثر مقامات الحريرى وغير ذلك . وقد لازم والده إلى وفاته ، وقرأ عليه وانتفع به ، وحضر دروس عمه السيد محمد بن عبد الله نحو سنة ، وانتفع كثيراً من العلامة الأوحد الجليل السيد أبى بكر بن عبد الرحمن بن شهاب الدين ، فى أوقات متفرقة قضاها فى رعايته بحضر موت وجاوه والهند.

وقد احتاج للرحلة عن وطنه صغيراً لوفاة والده السيد عقيل سحر ليلة الأربعاء لثلاث بقين من صفر سنة ١٢٩٤ هـ عن أقل من ٤٥ عاماً . فسافر فى صفر سنة ١٢٩٦ هـ من وطنه بعد أن تزوج فيه بنت السيد عثمان بن عبد الله بن عقيل بن يحى العلوى أكبر علماء جاوه ومفتيها الأكبر ، فوصل سينغافوره منتصف ربيع الأول سنة ١٢٩٦ هـ ، ودخل جزيرة جاوى ، واشتغل فى بعض نواحيها وفيما جاورها بالتجارة وبالزراعة وبالتصدير ، فكانت له صلات تجارية واسعة الأطراف ، بجهات متعددة فى الصين واليابان وجزائر الفلبين وسومطره وغينيا الجديدة والهند والسند وبرما وسيلان واليمن والحجاز ومصر والشام والعراق والآستانة والأناضول وبعض أوربا . وله معارف ببعض تلك النواحى وأصحاب . ورحل وساح فى الكثير من هذه الأصقاع ، وكرر زيارة بعضها ، وأقام مدداً فى بعضها كالصين واليابان والحجاز والهند وسومطره وبعض عواصم أوربا . وحضر معرض باريس سنة ١٩٠٠ م . ثم عاد إليها بعد ذلك . ولم تكن له معرفة بغير اللغة العربية ولغة ملايو ، ويفهم قليلا من

لغة أردو الهندية ، وما لا يذكر من لغات أخرى ، وقيد فوائد متعلقة بتلك السياحات فى مدة أكثر من أربعين سنة فى مسودات لم تبيض ضاع بعضها .

ثم طاف فى حضرموت وغيرها منقباً عن آثار الأقدمين . وعرف كثيراً من أمراء جزيرة العرب ، وكبرائها وعلمائها ، ومن جهات أخرى . وانتفع بكثير من العلماء والصالحين ، وحضر دروس معظمهم ، وقرأ على بعضهم رسائل ومختصرات وأوائل كتب كالأمهات ، وأجازه كثير منهم بمروياتهم ، كما أجازه بعض من لم يتيسر له ملاقاته ، كالشيخ البركة محمد العرب نزيل المدينة ، وأرسل له لباساً مع الإجازة ، ومنهم الحافظ الجليل محدث اليمن الشيخ حسين بن محمد السبعى اليمنى نزيل بهوپال بالهند ، وقد ذكر طرقه وأسانيده فى إجازاته .

وممن أجازه مشافهة العلامة الصوفى السيد المحسن بن علوى بن سقاف السقاف ، وبقية السلف السيد محمد بن إبراهيم بلفقيه ، والمعمر الصالح العابد السيد شيخ بن عمر السقاف ، والجهبذ العلامة السيد أحمد بن محمد المحضار ، والبارع المحقق المتفنن علامة العصر السيد أبو بكر بن عبد الرحمن بن شهاب الدين ، والحافظ الجليل الإمام السيد أحمد بن حسن العطاس الضرير ، والعلامة البركة السيد على بن محمد الحبشى ، وأنموذج الأسلاف شريف الأوصاف الورع الزاهد العلامة السيد عيدروس بن عمر الحبشى ، والصالح البركة السيد أحمد بن عمر العيدروس نزيل سورات بالهند ، والعابد الناسك السيد المحسن بن عمر العطاس نزيل بارودة بالهند ، وقد ألبسه كل هؤلاء خرقة الصوفية .

وممن أجازه وألبسه خرقة التصوف علامة المدينة الشيخ حبيب الرحمن الدكنى الهندى ، وممن أجازه العلامة المحدث السيد محمد مظهر المدنى .

وحصلت بينه وبين كثير من الفضلاء محبة ومكاتبة ، ومباحثة ومراجعة ، وحبب إليه ربه المطالعة في الكتب النافعة ، فكانت هي السمير والرفيق ، والتقط من بحرها فرائد فوائد أورد كثيراً منها فيما جمعه من الرسائل والكتب التي يشتغل بكتابتها في ساعات الراحة .

وكان جل إقامته وتجارته في جزيرة سينغافوره . وفي سنة ١٣٣٨ هـ ، أرسل بعض أفراد أسرته إلى مكة المكرمة ، ثم في سنة ١٩٣٩ هـ أرسل من بقي منهم مع حاشيته ، ثم لحق بهم فيها ، وأقام بها ستة أشهر ، ثم رحل بجميع أهله ومن معه من الحجاز في صفر سنة ١٣٤٠ هـ إلى المكلا أسكلة حضرموت ، وهو الآن[1] بها ، وفقه الله لما به يرضى عنه ، بمنه وكرمه . والحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله .

---

(١) وكتب المغفور له العلامة المحقق أحمد تيمور باشا بخطه بآخر هذه الترجمة ما نصه : (حضر السيد ابن عقيل لمصر سنة ١٣٤١ هـ وهو مسافر إلى الحج ، والتقيت به في القاهرة) .

على حيدر

كان الشريف على حيدر من الأسرة التى تولت إمارة الحرمين الشريفين فينتمى سمو الأمير على حيدر إلى أسرة آل زيد الذين حكموا الحجاز إلى سنة ١٢٥٠ هـ وانتهى هذا الحكم بإلقاء القبض على الأمير الشريف غالب الذى نفى هو وأولاده السبعة وحاشيته وعددها أربعة وثلاثون شخصاً إلى سلانيك ، فتوفوا جميعاً فى يوم واحد . فعينت الدولة العثمانية بعده بمدة وجيزة الأمير الشريف محمد عبد المعين بن عون جد الملك الحسين والأشراف المقيمين فى جهات القبة .

ويجتمع نسب آل زيد وآل عون بعد اثنى عشر جداً ، فلم يكن لأسرة آل عون حكم فى الحجاز إلا بعد تلك الحادثة التاريخية ، فلذلك وقعت منازعة بين الفريقين بسبب الحكم ، فكانت الدولة العثمانية تعين أمراء مكة من هذه العائلة أى من أسرة آل عون حتى الحرب العظمى .

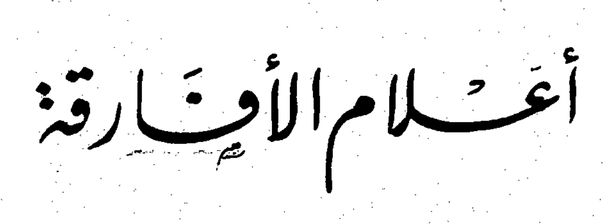
وعلى أثر ثورة الملك حسين بنهضته المعروفة وإعلان استقلاله عن الخلافة عينت الحكومة فى سنة ١٩١٥ م سمو الأمير الشريف على حيدر أميراً بدلا من الحسين . تلقى علومه فى السراى السلطانية مع أمراء آل عثمان ، فهو يحسن اللغات العربية والتركية والفرنسية والإنكليزية ، ومشغوف بالرسم والموسيقى أيضاً . وكان عضواً بمجلس الشيوخ العثمانى ووزيراً للأوقاف ، وأميراً على مكة ، هو ذو شخصية قوية ولا يضارعها أحد من أبناء عشيرته .

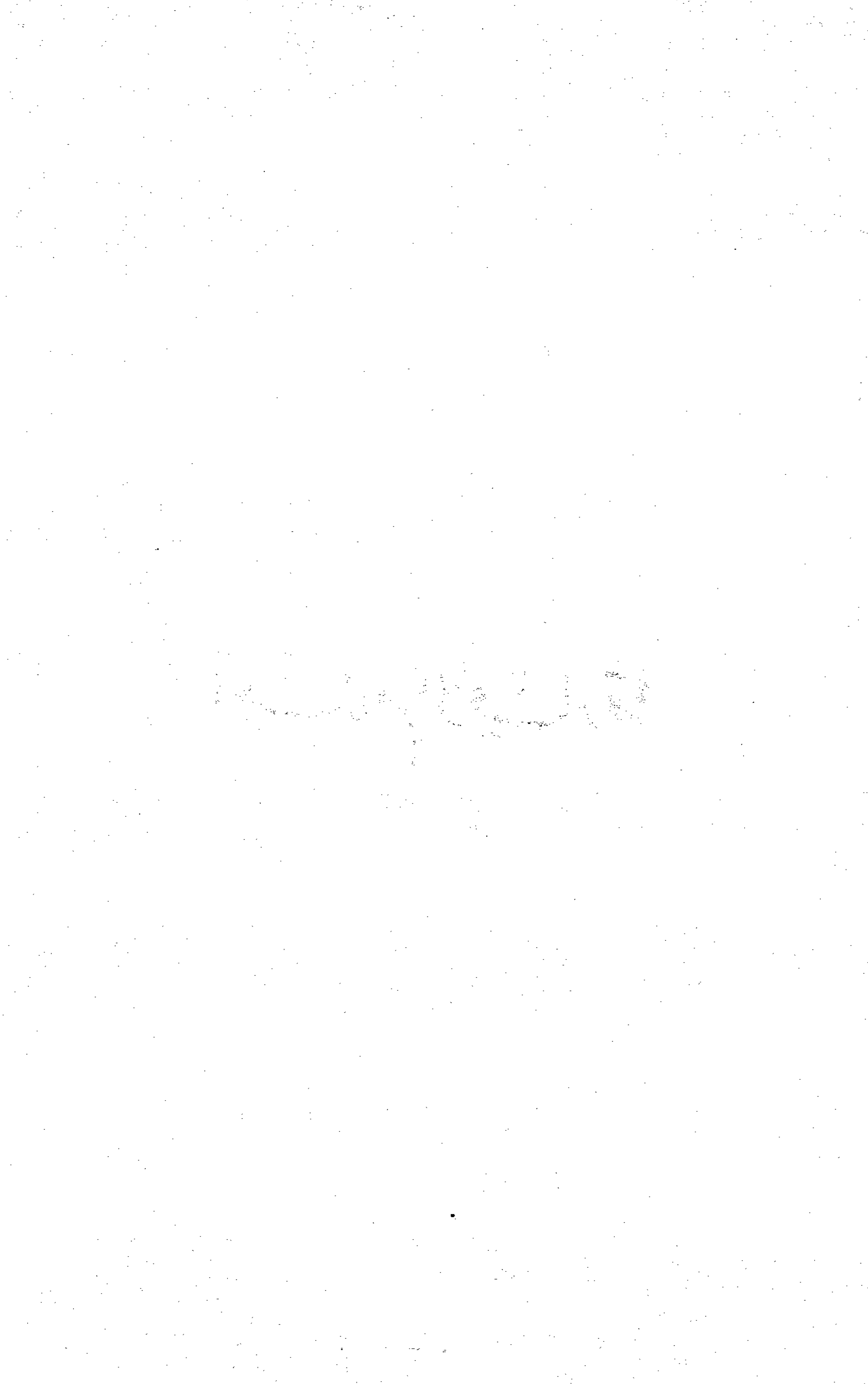
وقد كان تعيينه شريفاً للحجاز مما صدر به الأمر ولم ينفذ ، لانكسار الدولة في الحرب العظمى واستقلال الشريف حسين بالحجاز .

كما أنه قد أشيع العزم على انتخابه ملكا على سورية سنة ١٣٤٨ هـ وهو ابن الشريف عبد المطلب .

وقد كان محباً للعلم والعلماء ولوعا بكل ما يكسب المرء إجلالا واحتراما ، لاتصافه بالأخلاق الطيبة والمزايا الحميدة ، وفي عطفه على الضعفاء والبائسين ، والاجتهاد في الدأب وراء مايفيد الناس في دنياهم وأخراهم بما يبذله من بر وإحسان ، منفقاً في سبيل الله ما وسعه الجهد وما وجد إلى ذلك سبيلا .

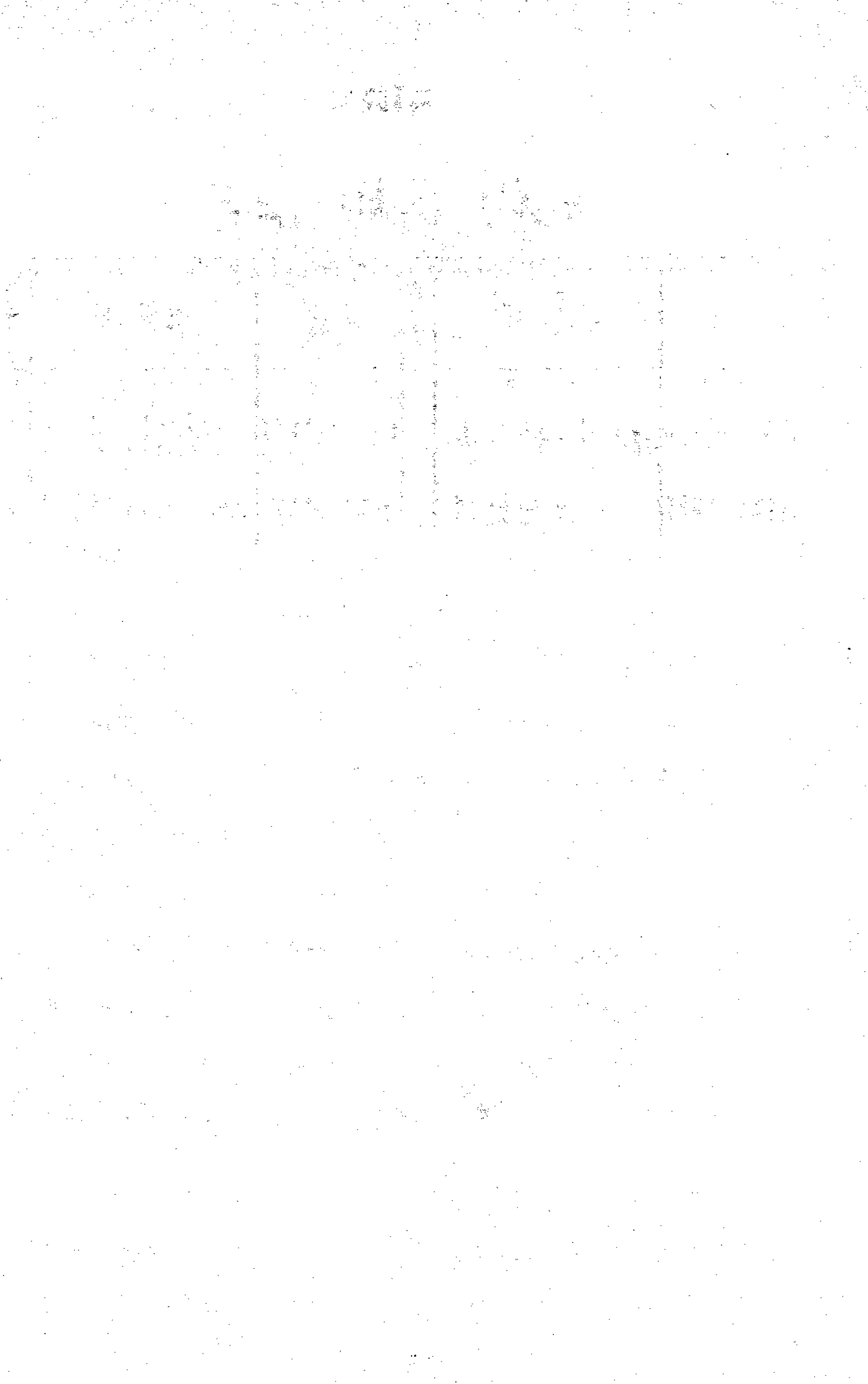
كما كان يميل إلى جمع نفائس المؤلفات من مخطوطات نادرة ومطبوعات قيمة ، حتى إنه ترك مكتبه زاخرة بشتى المؤلفات الفريدة في نوعها . وكانت مضرب الأمثال بما احتوته من المصنفات التي يندر وجودها في كبرى المكتبات الأخرى .


أعلام الأفارقة



تونس . والجزائر . والمغرب

رقم مسلسل	أسماء الأعلام	التاريخ	رقم مسلسل	أسماء الأعلام	التار
١	عبد القادر الجزائري	١٢٢٢ـ١٣٠٠ هـ	٣	أحمد بن الخوجة التونسي	١٢٤٦ـ١٣١٠ هـ
٢	محمد محمود التركزي الشنقيطي	١٢٤٥ـ١٣٢٢ هـ	٤	محمد الخضر حسين	١٢٩٣ـ١٣٧٨ هـ



عبد القادر الجزائري

١٢٢٢ — ١٣٠٠ هـ

وقفت له على ترجمة — كتبها حفيده الأمير طاهر الجزائرى ، قال :

هو : سمو الأمير عبد القادر الجزائرى الحسينى الكبير فرع الشجرة الزكية ، وبدر العصابة الحسنية ، إنسان عين السادة الأخيار ، وعقد جيد القادة الأبرار . صدر الشريعة بل تاجها ، بدر الحقيقة بل معراجها . نخبة آل بيت اشتهرت بالشرف أوائلهم وأواخرهم ، وأشرقت فى أفق سماء السعادة فضائلهم ومفاخرهم . من عجزت عن حصر أوصافه الأقلام ، وتباهت بوجوده الليالى والأيام . وتزينت الطروس بغرر مزاياه ومدائحه ، وتلت النفوس آيات الحمد والإخلاص فى صحائفه . واسطة عقد الشرف المقتنى ، وغصن شجرة الورد المجتنى . كعبة القاصدين، حرم الخائفين ، ناصر الدين، الأمير عبد القادر ابن محيي الدين بن مصطفى بن محمد بن المختار بن عبد القادر بن أحمد المختار ابن عبد القادر بن خده بن أحمد بن محمد بن عبد القوى بن على بن أحمد بن عبد القوى بن خالد بن يوسف بن أحمد بن بشار بن أحمد بن محمد بن إدريس ابن إدريس بن عبد الله الكامل ابن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن فاطمة الزهراء بضعة خير الأنام ، عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام .

ولد قدس الله سره فى رجب سنة ألف ومائتين واثنتين وعشرين ، ببلدة القيطنة التى اختطها جده بإيالة وهران من أعمال الجزائر . ثانى أنجال والده . ووالدته السيدة الشريفة الزهراء بنت السيد عبد القادر بن دوخه الحسينى .

تربى فى حجر والده ، وفى مدرسته حفظ القرآن الكريم ، وأخذ العلم عن أهل العرفان .

وفى سنة ١٢٣٦ هـ ، سافر إلى وهران ، وحصّل بها ، وبرع فى مختلف الفنون .

وفى سنة ١٢٤١ هـ ، سافر منها برا ، صحبة والده ذى الكمالات والعلوم الباهرة . قاصدين مكة المكرمة عن طريق القاهرة ، وبعد الحج رجعا إلى دمشق الشام ، لزيارة الصلحاء والعلماء الأعلام وأخذ بها عن الولى الصالح الإمام حضرة مولانا الشيخ خالد المجدوى الطريقة النقشبندية . ثم غادرها إلى بغداد حيث أخذ الطريقة العلية القادرية على السيد محمود الكيلانى . ثم رجع برا إلى الشام . ومنها قصد بيت الله الحرام مرة أخرى ، وبعد أداء المناسك رجع من طريق البر إلى بلدته فى السنة الثالثة والأربعين بعد المائتين والألف من الهجرة .

وفى سنة ١٢٤٦ هـ قام والده بأمر الجهاد ، فحارب معه سنتين . وفى رجب سنة ١٢٤٨ هـ ، بايعه أهل الجزائر أميراً عليهم لاشتهاره بالشجاعة والعلم والصلاح والبراعة . فباشر الأعمال ، وركب الأخطار والأهوال . وأقام الإمارة على قدمى الفضل والعدل ، وزانها بما يؤيده العقل والنقل . وضرب السكة من فضة ونحاس ، وأنشأ المعامل للأسلحة واللباس . وقام بأمر الجهاد ستة عشر عاماً يحارب جيوش فرنسا ، ويحمى دينه ووطنه . وأظهر من الشجاعة والبسالة فى كل مجال ما اشتهر فى الآفاق . وقد بسطت ترجمته فى كتابى

المسمى بـ : « تحفة الزائر ، فى مآثر الأمير عبد القادر » .

وكان يباشر القتال بنفسه ، ويتقدم أصحابه فى المواقف ، فيرجع وألبسته محرقة من الرمى بالرصاص ، ولم يصبه سوى جرح بكتفه وآخر بأذنه . وماتت تحته عدة خيول .

ثم هاجمته جيوش مراكش من جهة أخرى ، وبعد محاربات عديدة ، علم أن التسليم أولى ، فسلم لفرنسا على شروط مقررة وعهود ، وذلك فى المحرم ١٢٦٤ هـ . وبقى محجوراً عليه عندها .

وفى سنة ١٢٦٦ هـ زاره فى محل إقامته بمدينة « أمبواز » نابليون الثالث أمبراطور فرنسا ، وبشره بإطلاق سبيله ، وأهدى إليه سيفاً مرصعاً ، ورتب له فى كل سنة خمسة آلاف ليرة فرنسية .

ثم سافر إلى باريس ، ومنها إلى الآستانة حيث قابل السلطان عبد المجيد خان ، فأكرم وفادته ، ومنحه داراً عظيمة بمدينة « بورصه » . ثم رجع سنة ١٢٧٠ هـ . إلى الآستانة ، وتوجه منها إلى باريس . ثم رجع إلى بورصة ، وبقى بها حتى سنة ١٢٧١ هـ . فغادرها إلى دمشق للإقامة بها .

وفى سنة ١٢٧٣ هـ توجه إلى زيارة بيت المقدس ، وقرأ خلال شهر رمضان فى دار الحديث هناك : البخارى ، كما قرأ : الإتقان والإبريز فى مدينة الخفقية .

وفى شهر رمضان سنة ١٢٧٥ هـ . أعتكف بالجامع الأموى ، وقرأ : الشفاء والصحيحين فى مشهد الإمام الحسين رضى الله عنه . وفى سنة ١٢٧٧ هـ زار

حمص وحماه ومنح من الدولة العلية النيشان المجيدى من الرتبة الأولى، ونياشين كثيرة من دول مختلفة، تقديراً لما أبداه من المساعدة للمسيحيين فى الفتنة التى حدثت فى تلك السنة .

وفى سنة ١٢٨٠ هـ توجه إلى مكة المكرمة وأقام بها وبالطائف وبالمدينة المنورة سنة وستة أشهر، وأخذ بمكة الطريقة الشاذلية عن الشيخ محمد الفاسى .

وفى سنة ١٢٨٢ هـ قصد الآستانة وقابل السلطان عبد العزيز فأكرم نزله ومنحه النيشان العثمانى من الرتبة الأولى . ثم توجه منها إلى باريس فزاد له الأمبراطور نابليون الثالث ٢٥٠٠ ليرة فرنسية، على مرتبه السنوى السابق .

وفى سنة ١٢٨٦ هـ دعى إلى مصر لحضور احتفال خليج السويس، وقرأ «الفتوحات المكية» مرتين سنة ١٢٨٩ هـ بعد أن أرسل عالمين لتصحيحها على النسخة الموجودة بخط مؤلفها الشيخ الأكبر فى «قونية»، وأخذ الطريقة العلية المولوية على الدرويش صبرى شيخ طريقة المولوية بالديار الدمشقية .

وكان مالكى المذهب، محافظاً على السنن، عاكفاً على شهود الجماعة، كثير الصدقات . وجعل مرتباً فى كل شهر للعلماء الصلحاء والفقراء، عاملا بتقوى الله فى السر والجهر .

وتغلغل فى آخر عمره فى علوم القوم، وأظهر من دقائق الحقائق وعوارف المعارف مايؤذن بسمو مقامه وعلو قدره، وكان يصوم شهر رمضان على الكعك والزبيب، معتزلا عن القريب والغريب . وله خلوة يتحنث بها فى قصره بقرية أشرفية صحنايا . وكان خلال مرض وفاته مشتغلا بالمراقبة والمشاهدة، حتى إنه

ما أنّ ولاتأوه — برغم اشتداد آلام الكلى والمثانة طيلة ٢٥ يوماً — إلى أن انتقل إلى رحمة ربه الكريم فى منتصف ليلة السبت ١٩ من رجب سنة ١٣٠٠ هـ فى قصره بقرية دمر بدمشق .

وصلى عليه بالجامع الأموى خلق كثير ، واجتمع فى جنازته أمم من جميع الملل ، ودفن ظهر يوم السبت إلى جوار الشيخ الأكبر سيدى محى الدين ابن العربى الحاتمى فى حجرته .

وقد توفى عن زوجته ابنة عمه وعشرة أولاد ذكور وست بنات ، وثلاث جوار جركسيات وجارية حبشية . وكان رضى الله عنه معتدل القامة ، عظيم الهامة ، ممتلىء الجسم ، وجهه أبيض مشرب بحمرة ، وشعر رأسه أسود ، إذ كان يخضب بالسواد . أقنى الأنف ، أشهل العينين .

وله من المؤلفات تعليقات على حاشية جده السيد عبد القادر بن خده فى علم الكلام ، وتنبيه الغافل وذكرى العاقل ، والمقراض الحاد لقطع لسان الطاعن فى دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد . والمواقف فى علم التصوف . وله من الشعر الرائق والنثر الفائق ما يطرب الأسماع ، ويستهوى الألباب والطباع . كما كان يجيد اللعب بالشطرنج ، ويحسن الخياطة ولاسيما خياطة الشبكة . وبالجملة كان إماماً جليلا عالماً عاملا نبيهاً نبيلا زاهداً ورعاً مهيباً شجاعاً كريماً حليماً أواباً . رضى الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة مثواه . آمين .

وله ديوان شعر فائق العبارات ، رائق الإشارات ، سماه : « نزهة الخاطر ، فى قريض الأمير عبد القادر » .

ومنه قوله مفاخراً بانتمائه إلى آل البيت :

أبونا رسول الله خير الورى طرا
فمن فى الورى يبغى يطاولنا قدرا
ولانا غـدا ديناً وفرضاً محتما
على كل ذى لب به يأمن الكفرا
وحسبى بهذا الفخر من كل منصب
وعن رتبة تسمو وبيضاء أو صفرا

وقال قدس الله سره لما شاهد تشييد حصن « طازه » فى أسرع وقت ، وأمر بكتابته على باب الحصن :

الله أعلم أن هذا لم يكن
منى على الأمد الطويل دليلا
كلا وإن منيتى لقريبة
منىَ وأصبح فى التراب جديلا
ورضا الإله هو المنى ، ويكون من
بعدى انتفاع الخلق ثمَّ طويلا

وقال لما تركه إخوته وتوجهوا إلى مراكش فى أيام الجهاد :

يا سواد العين يا روح الجسد
يا ربيع القلب يا نعم السند
كنت لى قرة عين ، وبها
راح قلبى ، لا بمال وولد

فرمى الدهر بعينى أسهما
منذ نأيتم لا أرى فيها أحد

وقال مستغيثاً ومتوسلا بالنبي صلى الله عليه وسلم :

يا سيدى يا رسول الله يا سندى
ويا رجائى ويا حصنى ويا مددى
لا علم عندى أرجّيه ، ولا عمل
أمام نجواى من هدى ومن رشد
أبغى رضاك ولاشىء أقدمه
سوى افتقارى وذلى واصفرار يدى

وقال مرحباً بالعالم المتفنن السيد محمد الشاذلى القسطنطيني ، حين زاره فى منفاه بفرنسا :

أهلاً وسهلاً بالحبيب القادم
هذا النهار لدىّ خير مواسم
جاء السرور مصاحباً لقدومه
وانزاح ما قد كان قبل ملازمى
أفديك بالنفس النفيسة زائراً
من غير ما منّ ولست بنادم
طالت مساءلتى الركاب تشوقاً
لجمال رؤية وجهك المتعاظم

لاغرو إن أحببتكم من قبل ما
شاهدتكم أنتم جمال العالم
لازلت ميمون النقيبة طالعاً
بالسعد ذا فضل وخِدن مكارم

وقال متحدثا بنعمة الله :

الحمد لله الذى قد خصّنى
بصفات كل الناس لا النسناس
الجود والعلم النفيس ، وإننى
لأنا الصبور لدى اشتداد الباس
وتحدثى شكراً لنعمة خالقى
إذ كان فى ضمنى جميع الناس

محمد محمود التركزى الشنقيطى (1)

١٢٤٥ — ١٣٢٢ هـ

هو الأستاذ العلامة الحجة الثقة إمام اللغويين فى عصره شيخنا محمد محمود ابن أحمد بن محمد التركزى الشنقيطى ، اشتهر والده بالتلاميد بالدال المهملة ، وسبب ذلك على ما أخبرنى به أنه كان يقرىء تلاميذه فى خيمة انفرد بها ، فكان كل من يسأل عنه يقول: أين خيمة التلاميد ؟ ثم أطلق هذا اللقب عليه كما يقال : السادات للواحد من السادات الوفائية بمصر . وتركز بضم فسكون : اسم قبيلته ، وهو فى الأصل أموى النسب، ولهذا كان يكتب فى توقيعه « العبشمى » نسبة إلى عبد شمس . ثم ترك كتابته لما أقام بمصر .

قرأ على أبيه وبعض أقاربه ، كما أشار إلى ذلك فى ميميته التى نظمها لمؤتمر العلوم الشرقية بأستكهلم ، فقال :

غذانى بدرّ العلم أرأف والد	وأرحم أم لم تبتنى على غم
ولم يفطمانى عنه حتى رويته	عن الأب ثم الأخّ والخال والأم
وعن غيرهم من كل حبر سميدع	تـقى نـقى لا عيّ ولا فـدم

ولازم أيضاً الشيخ عبد الوهاب الملقب بأجدود ، وعليه تخرج، ثم تلقى الحديث عن ابن بلعمش الجلنى، واستظهر من المتون وأشعار العرب شيئاً كثيراً

(1) كتبها بخطه المغفور له العلامة المحقق أحمد تيمور باشا . وكان عنوانها بالمداد الأحمر

لم يذهب من حفظه حتى مات ، واشتهر باللغة والأنساب وانفرد بهما .

ثم رحل إلى المشرق وحج واجتمع بأمير مكة الشريف عبد الله بن محمد بن عون فأكرمه وطلب منه البقاء عنده فأجاب ، وكانت تقع بينه وبين علماء مكة والواردين عليها مناظرات ومحاورات علمية فى مجلس الأمير . وصار يتردد فى الإقامة بين مكة والمدينة إلى أن قصد القسطنطينية فأكرمه السلطان عبد الحميد وعرف قدره وأوفده سنة ١٣٠٤ هـ إلى باريس ولندن والأندلس للاطلاع على ما فى خزائنها من الكتب العربية النادرة وتقييد أسماء ما يوجد منها بخزائن القسطنطينية لتستنسخ ، فسافر على باخرة خاصة . وكان ينزل حيثما حل بدور السفارات العثمانية ، ولكن المشروع أهمل بعد عودته . ثم لما شرع الملك أسكار الثانى ملك السويد والنرويج فى عقد المؤتمر الثامن من العلوم الشرقية ـ أستكهلم سنة ١٣٠٦ هـ طلب من السلطان عبد الحميد أن ينتدب الشيخ إليه ، فانتدبه مع مدحت أفندى الكاتب التركى الشهير ، ونظم الشيخ قصيدته الميمية ليقدمها للمؤتمر ، وأولها :

ألا طرقت مى فتى مطلع النجم غريباً عن الأوطان فى أمم العجم

ذكر بها سبب هذه الرحلة وابتداء تحصيله للعلم بالمغرب ، ورحلته إلى المشرق ، وضمنها مسائل علمية ، ورثى نفسه فيها ، وختمها بذكر القبائل العربية المشهورة ، ولكنه لم يسافر لاشتراطه شروطا أغضبت السلطان ، فأمر بسفره إلى المدينة ، ومنها قدم إلى القاهرة وألقى بها عصا التسيار ، واستحضر أهله

وكتبه من المدينة ، وأقبل على المطالعة والإفادة إلى أن توفى بدار سكنه القريبة من الأزهر قبيل الغروب من يوم الجمعة ٢٣ شوال سنة ١٣٢٢ هـ عن سن عالية ، ولم يمرض إلا أياما قليلة .

وكان رحمه الله نحيفا أسمر اللون شديد التمسك بالسنة قوالا للحق ولو على نفسه ، مع حدة طبع زائدة ، ولهذا لم ينتفع به إلا القليلون ، وكان لا يمل المطالعة ليلا ونهارا حتى أضنته كثيرة الجلوس وسببت له أمراضا وآلاما ولا سيما لما اشتغل بتصحيح المخصص ، وأنه كان يقابله مع شخص آخر بمكان رطب فى الطبقة السفلى من داره ، فاشتد به مرض الصدر وألم الرثية فى أطرافه ، وكثيراً ماكان يقول : « أنا قتيل المخصص ، أنا قتيل الكتب » ، ولم يترك من الآثار إلا (الحماسة السنية الكاملة المزية فى الرحله العلمية الشنقيطية التركزية) ضمنها شيئا من أخباره وقصائده وردوده على من خالفه فى بعض المسائل العلمية وطبعت بالقاهرة فى مطبعة الموسوعات سنة ١٣١٩ ، وله أرجوزه سماها (عذب المنهل والمعل المسمى صرف ثعل) لم تطبع ، و (إحقاق الحق وتبرىء العرب مما أحدث عاكش اليمنى فى لغتهم ولامية العرب) وهى حاشية على شرح لامية العرب لعاكش اليمنى ، وكان قد وفد على الشريف عبد الله بن محمد بن عون بمكة وقدم له هذا الشرح ، فطلب الشريف من الشيخ أن يكتب عليه فكتب هذه الحاشية وبين فيها أغلاطه وهى مخطوطة لم تطبع . وكان شرع فى تأليف كتاب سماه (بنيان العلم المرصص، فى أوهام المخصص) لم يكتب

منه إلا ماطبع على حواشى المخصص ، وكان صحح بعض الأوهام الواقعة فى الطبعة البلاقية من الأغانى ، ولم يستوعب كل مافيه ، فجردها من حواشى نسخته الشيخ الفاضل محمد عبد الجواد الأصمعى وطبعها بالمطبعة الجمالية بالقاهرة سنة ١٣٣٤ بعنوان : تصحيح الأغانى .

أحمد بن الخوجة التونسي

١٢٤٦ — ١٣١٠ هـ

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن حموده بن محمد بن على خوجة (١) ولد سنة ١٢٤٦ ، ونشأ فى حجر علم وفضل : فقرأ على والده شيخ الإسلام النحو والفقه والأصول وعلم الكلام ، وروى عنه صحيح البخارى ، وجود عليه القرآن العظيم ، وأجازه إجازة عامة ، هذا نصها :

الحمد لله الذى وصل من انقطع إلى جنابه ، ووقف ضارعاً خاضعاً ببابه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ، صلاة وسلاماً نرجو بهما النجاة يوم العرض على الله من مناقشة حسابه ، وأليم عذابه .

وبعد فإن ولدى الفاضل النجيب ، الزكى الذكى الأريب ، الحائز من العلوم أوفر نصيب ، الرامى فى ميدانها بسهم مصيب ، الأمجد الأنجد أبا العباس أحمد زاده الله توفيقاً وحشرنى وإياه مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء الصالحين وحسن أولئك رفيقاً ، قد التمس منى أن أجيز له فيما تضمنه هذا الثبت وغيره مما أمليت أو كتبت ، وفى سائر ما هو لدى وصحت نسبته إلىّ . فها أنا قد أجزت له إجازة تامة فى ذلك كله ، علما منى بأنها من وضع الشىء

---

(١) وقفت له على ترجمة كتبها بخطه صديقنا العالم الجليل السيد محمد الخضر حسين نقلا عن مذكراته الخاصة .

فى محله ، وأجزت له أيضا أن يجيز من أراد الكرع من حياضه ، والاقتطاف من أزهار رياضه . وأوصى ولدى بتقوى الله فى سره وعلانيته ، فإنه سبحانه وتعالى مطلع على فعله وعلى نيته ، وأن لا ينسانى بصالح دعواته ، فى خلواته وجلواته . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، ولا حول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم

كتبه بيده الفانية الفقير إلى ربه

فى يوم الاثنين ١٩ صفر عام ١٢٧١ هـ . محمد بن الخوجه

* * *

وقد بلغ من عناية والده به أنه كان إذا خطرت فى باله مسألة من مسائل العلم وهو فى سريره ، ينبه ابنه من النوم ويلقيها إليه ، لئلا يفوت صاحب الترجمة أخذها عنه .

وأخذ عن عمه حسن بن الخوجه والشيخ حسين البارودى والشيخ محمد الستارى والشيخ إبراهيم الرياحى والشيخ ابن ملوكه والشيخ محمد بن عاشور والشيخ ابن سلامة والشيخ محمد النيفر والشيخ معاوية والشيخ الخضار والشيخ الشاهد والشيخ محمد الشنقيطى .

وأجاز له شيخ الإسلام الشيخ بيرم الرابع إجازة منظومة قال فيها :

وبعد فإن نيل العلم فخر
لصاحبه يورثه جلالا

ولا سيما الحديث وأى شخص
يزاوله ولم يحمد مآلا

ومن قاده التوفيق حتى
تردى من مطارفه وجالا
وأسهر جفنه فيه اكتسابا
وبالغ فى تطلبه فنالا
أبو العباس أحمد وهو من قد
عجزت إذا طلبت له مثالا
وباين الخوجة الأسمى أبيه
محمد الهمام حوى احتفالا
ومن أضحى لذاك الليث شبلا
فقد سبق الجهابذة الرجالا
وقد طمحت إلى الإسناد نفس
زكت منه وأحسنت الفعالا
فيمم ذا الفقير يروم منه
إجازته وقد ظن الكمالا
وأفنى فى تردده زمانا
وكرر فى عنايته السؤالا
فأحجم عن إجابته حياء
وأوسعه لذا المعنى المطالا

ولما لم يجد من ذاك بدا
ولا أعفى الملح ولا أقالا
تجشمها وليس لها بأهل
مساعفة لراغبه وقالا
أجزت له رواية ماروى لى
أساتذة وقد كانوا جبالا

تولى صاحب الترجمة خطة التدريس بجامع الزيتونة ، فبهر العقول بتحقيقه وبراعة أسلوبه ، وتولى الإمامة بجامع محمد باى ، ومشيخة المدرسة الشماعية ، وخطب من إنشائه الخطب البليغة ، وتولى خطة القضاء فى ربيع الأول سنة ١٢٧٧ فقام بأعبائها أحسن قيام ، وتولى الإفتاء فى المحرم سنة ١٢٧٩ ، ورجع إلى التدريس يجمع بين التدريس والفتوى، ولا يصح الجمع بين القضاء والتدريس.

ولما توفى الشيخ معاوية ولاه المشير محمد الصادق باى منصب شيخ الإسلام فى صفر سنة ١٢٩٤ . وانتصب لدرس تفسير البيضاوى عام ولايته مشيخة الإسلام فأبدع فى التقرير ، وكان درسه موردا لأذكياء العلماء ، وشرع فى الكتابة على حواشى عبد الحكيم على هذا التفسير ، ولكن عاقه عن الاستمرار على ذلك الدرس ماطرأ على سمعه من صمم .

وكان رحمه الله لطيف المحاضرة، حسن النظر فى مذاهب السياسة الشرعية عالى الهمة ، حسن اللقاء .

(مؤلفاته) منها : المرشد ، ورسالة فى حكم الانتفاع بشواطىء البحار

ومعظم الأنهار ، والصبح المبين ، ونفثة المصدور . وتصدى لتكميل حاشية والده على الدرر من أولها ، لأن والده شيخ الإسلام ابتدأ تلك الحاشية على كتاب النكاح .

وحرر من الفتاوى ما لا يسع القلم استيعابه ، وكان يصوغها على طريقة النظر المستقل ، فيطبق الأصول والقواعد على الوقائع مع رعاية المصالح ومقتضيات الأحوال ، ويجمع فى أكثرها بين المذهبين الحنفى والمالكى .

ومابرحت مجالسه بأهل العلم والأدب حافلة ، وبراعته على تحرير الفتاوى عاملة ، إلى أن توفى سنة ١٣١٠ هـ تغمده الله برحمته ورضوانه .

محمد الخضر حسين

١٢٩٣ — ١٣٧٨ هـ

ولد الشيخ محمد الخضر حسين[(١)] بمدينة نفطة بالقطر التونسي في ٢٦ رجب سنة ١٢٩٣ هـ واشتغل بالعلم بعد أن حفظ القرآن ، فقرأ بعض الكتب الابتدائية ببلده ، وفي آخر سنة ١٣٠٦ هـ ، رحل مع أبيه وأسرته إلى القاعدة التونسية ، فدخل الكلية الزيتونية سنة ١٣٠٧ هـ وقرأ على أشهر أساتذتها ، وتخرج عليهم في العلوم الدينية واللغوية ، ونبغ فيها وفي غيرها . فطلب لتولي بعض الخطط العلمية قبل إتمام دراسته ، لكنه أبى وواظب على حضور دروس العلماء والأكابر مثل عمر بن الشيخ ، والشيخ محمد النجار . وكانا يدرسان التفسير ، والشيخ سالم بوحاجب ، وكان يدرس صحيح البخاري .

ثم رحل إلى الشرق سنة ١٣١٧ هـ ولكنه لم يبلغ طرابلس حتى اضطر إلى الرجوع بعد أن أقام بها أياما . فلازم جامع الزيتونة ، يفيد ويستفيد إلى سنة ١٣٢١ هـ فأنشأ فيها مجلة السعادة العظمى ، ولقي في سبيل بث رأيه الإصلاحي ما يلقاه كل من سلك هذا السبيل .

وفي سنة ١٣٢٣ هـ ، ولي القضاء بمدينة بنزرت ، والتدريس والخطابة بجامعها الكبير . ثم استقال ورجع إلى القاعدة التونسية ، وتطوع للتدريس

---

(١) كتب المؤلف هذه الترجمة في حياة المترجم ، وكان صديقه ، وأوصى بأن يدفن إلى جواره ، وقد أنشأ الشيخ الخضر جمعية الهداية الاسلامية وأصدر مجلة لها ، وعين عضوا بالمجمع العلمي العربي بدمشق وعضوا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ثم اختير شيخا للأزهر في بداية ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ . وتوفي سنة ١٩٥٩ م

بجامع الزيتونة ، ثم أحيل إليه تنظيم خزائن الكتب بالجامع المذكور . وفى سنة ١٣٢٥ ﻫ اشترك فى تأسيس جمعية زيتونية . وفى هذه المدة جعل من المدرسين المعينين بالجامع .

وفى سنة ١٣٢٦ ﻫ ، جعل مدرسا بالصادقية ، وكلف بالخطابة بالخلدونية .

ولما قامت الحرب الطرابلسية بين الطليان والعثمانيين كان من أعظم الدعاة لإعانة الدولة . ونشر بجريدة الزاهرة قصيدته التى مطلعها :

(ردوا على مجدنا الذكر الذى ذهبا

يكفى مضاجعنا نوم دهى حقبا)

ثم رحل الى الجزائر فزار أمهات مدنها ، وألقى بها الدروس المفيدة . ثم عاد إلى تونس ، وعاود دروسه فى جامع الزيتونة ، ونشر المقالات العلمية والأدبية فى الصحف .

وفى سنة ١٣٣٠ ﻫ سافر إلى دمشق ماراً بمصر ، ثم سافر إلى القسطنطينية فدخلها يوم إعلان حرب البلقان ، فاختلط بأهلها وزار مكاتبها ، ثم لما عاد إلى تونس فى ذى الحجة من هذه السنة نشر رحلته المفيده عنها وعن الحالة الاجتماعية بها ببعض الصحف .

ثم جعل عضوا فى اللجنة التى ألفتها حكومة تونس للبحث عن حقائق فى تاريخ تونس ، ثم ترك ذلك لما عزم على المهاجرة إلى الشرق . فرحل إليه ونزل مصر وعرف بعض فضلائها ، ثم سافر إلى الشام ثم للمدينة ثم للقسطنطينية

ثم عاد إلى دمشق معينا مدرسا للغة العربية والفلسفة بالمدرسة السلطانية بها ، وبقى كذلك إلى أن اتهمه مدة الحرب العظمى جمال باشا حاكم سورية بكتم حال المتآمرين على الدولة ، واعتقله ستة أشهر وأربعة عشر يوما ، ثم حوكم فبرىء من التهمة فأطلق سبيله فى شهر ربيع الثانى سنة ١٣٣٥ هـ .

ومن شعره فى حبسه ، وكانوا حالوا بينه وبين أدوات الكتابة :

غلل الحبس يدى عن قلم
كان لا يصحو عن الطرس فناما
هل يذود الغمض عن مقلته
أو يلاقى بعده الموت الزؤاما
أنا لولا همة تحدو إلى
خدمة الإسلام آثرت الحماما
ليست الدنيا وما يقسم من
زهرها إلا سراباً أو جهاما

ثم استمر فى التدريس بالمدرسة بدمشق ، إلى أن دعى إلى القسطنطينية سنة ١٣٣٦ هـ فجعل منشئا عربياً بوزارة الحرب ، وواعظاً بجامع الفاتح . فبقى كذلك إلى سنة ١٣٣٧ هـ ففارق الآستانة وعاد إلى دمشق ، وقال فى ذلك :

أنا كأس الكريم والأرض ناد
والمطايا تطوف بى كالسقاة

رب كأس هوت إلى الأرض صدعا

بين كف تديرها والمهـــاة

فاسمحى يا حيـــاةُ بى لبخيل

جفن ساقيه طـــافح بالسبات

وعين عضواً بالمجمع العلمى العربى بدمشق ومدرسا ببعض المدارس . فلم يباشر شيئا من ذلك ، بل سافر قاصدا مصر ، ونزل بها ، فولى التصحيح وعمل الفهارس بدار الكتب المصرية .

ومن مؤلفاته : نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ، وحياة ابن خلدون ، والخيال فى الشعر العربى ، وحياة اللغة العربية وغيرها (١)

---

(١) توفى إلى رحمة الله سنة ١٣٧٨ هـ الموافق سنة ١٩٥٩ م وصلى على جثمانه بالجامع وقد احتفل رجال الدين والعلماء ونجوم بتشييع جنازته ، ودفن بجوار جثمان المغفور له العلامة أحمد تيمور باشا . بمدافن الأسرة التيمورية بالإمام الشافعى، رضى الله عنه ، بناء على وصيته بذلك .

محتويات الكتاب

صفحة

أعلام الحجاز وحضرموت

أعلام الأفارقة